


تأليف

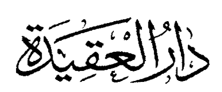
العلامة محمد الخضري رحمه الله

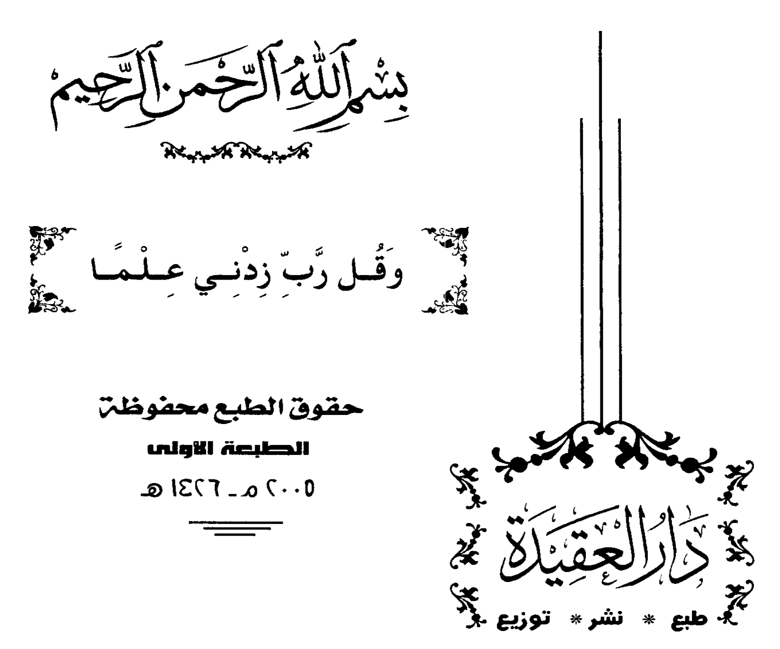
.........

حققه وخرج أحاديثه

أبو أنس/ صلاح الدين محمود السعيد

موافقة لأحكام الشيخ الألباني








الطبعة الأولى

٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٨٧٦٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N 977-347-077-6

دار العقيدة

الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٣/٥٧٦٥٦٢١

القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهرت: ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فتحتفل الأمم قاطبة بتاريخها، وتُعنى بأخبار قادتها وزعمائها.

وهى ترى فى ذلك تدعيماً لأصالتها، وحفاظاً على تاريخها، حتى ولو كان ذلك التاريخ حكماً جائراً، ولو كان ذلك الماضى ظلاماً دامساً.

ولا غَرْو أن يهتم المسلمون بتاريخهم، إذ لابد أن تَعِى الأجيال اللاحقة ما خلفته القرون من أخبار الهُداة المُهتدين.

أما سيرة المصطفى ﷺ وتاريخ جهاده ومعرفة أحواله فى الحرب والسلم، فتلك مسألة لم يقتصر الاهتمام بها على المسلمين وحدهم، بل شملت غير المسلمين ممن أعجبتهم سيرته، وإن لم يؤمنوا به ﷺ ، أو كانت دراستهم للسيرة بداية خير لهم.

إن معرفة تاريخ الإسلام بشكل عام وسيرة المصطفى ﷺ على الخصوص أمر من الأهمية بمكان، ولقد كان السلف يقدّرون لهذه السيرة قدرها، فكانت تعقد لها مجالس التدريس، وكان الناس يحفظونها كما يحفظون السور من القرآن، ولهذا نقل ابن كثير -عليه رحمة الله- أن علم السيرة مما ينبغى الاعتناء به والاعتبار بأمره والتهيؤ له. ثم نقل عن الواقدى بسنده إلى علىّ بن الحسين أنه كان يقول: «كنا نُعَلَّمُ مغازى النبى ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن».

كما نقل عن الزهرى -رحمه الله- أنه قال فى علم المغازى: «علم الآخرة والدنيا».

**قلت:** والكلام يطول فى أهمية دراسة السيرة النبوية، ولا أظنه يَخْفَى على طلاب العلم.

ولاشك أن سيرة المصطفى ﷺ بها اهتم العلماء قديماً وحديثاً. وذلك لأن بهَدْى

المصطفى ﷺ تتبين الأشياء. وقد قال لنا -جل وعلا-: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالاهتمام بالسيرة لابد منه، لأن بالسيرة وبالاهتمام بها معرفة أحواله -عليه الصلاة والسلام- من ولادته إلى وفاته -عليه الصلاة والسلام-.

وبالسيرة يعلم المسلم ما كان عليه النبى ﷺ وصحابته من نشر الدين، وما كابدوا فيه، وأنهم بذلوا ما بذلوا، وتركوا الأمة بعدهم على أمر واضح بيّن، ولم ينتشر الإسلام بسهولة، بل بذل فيه -عليه الصلاة والسلام- بتأييد من ربه -جل وعلا- وبذل فيه أصحابه الكرام ما بذلوا، وهذا يظهر لك فى السيرة.

ومن أوجه الاهتمام بالسيرة أيضاً أن معرفة سيرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- وإن معرفة سيرة الصحابة معه -عليه الصلاة والسلام- تبعث فى قلوب أهل الإيمان القوة فى الإيمان والقوة فى اليقين، وأنهم مهما تكالبت عليهم الأمور، ومهما قوى الشيطان وجنده، فإن لهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وإن لهم فى الصحابة الكرام أسوة حسنة.

فقد شكا بعض الصحابة للنبى -عليه الصلاة والسلام- ما يَلْقَى من شدة قريش عليه، فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«قد كان من قبلكم يؤتى بالرجل فينشر بالمنشار نصفين ما بين لحمه وعظمه، ما يرده ذلك عن دينه، فوالذي نفسي بيده ليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة إلى صنعاء** -أو قال: من مصر إلى مكة- **لا يخاف إلا الله جل وعلا».**

وهذا يبين أن الحق ليس بكثرة الناس، وأن المؤمن إذا حصل له ما حصل من كيد الشيطان أو من كثرة الشهوات أو من كثرة المغريات فإنه يبعثه ذلك على الاستمساك أكثر وأكثر بدين الله -جل وعلا-؛ لأن الصحابة -رضوان الله عليهم- ما تركوا دينهم ولم يتركوا توحيد الله، ولم يتركوا البراءة من الشرك، ولم يتركوا ما آمنوا به مع عِظَم ما أصابهم -عليهم رضوان الله-، فكيف بحال أهل هذا الزمان الذين ربما تركوا شيئاً من الدين لبعض المغريات.

النظر فى السيرة وقراءة السيرة يبعث فى المؤمن قوة اليقين، وقوة الاستعداد للثبات على دين الله.

وكذلك يبعث فى قلب المؤمن قوة العزة فى الإسلام، وأنه عزيز بتوحيد الله -جل وعلا-، وعزيز بما قام فى قلبه من معرفة الله والعلم به والإيمان بمحمد -عليه الصلاة والسلام- وبما أنزل الله -جل وعلا- على رسوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨).

وهذا من ضمن فوائد كثيرة يستفيدها كل مؤمن فى النظر فى سيرة المصطفى ﷺ

إذن؛ فالأصل أن قراءة السيرة ليست قراءة قصص ولا حكايات، وإنما هى قراءة عظة واعتبار، لأن بالسيرة أخذ الفوائد وأخذ ما ينفع المؤمن، ويبعث فيه أنواعاً من الخير والهدى والاستمساك بالحق: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٣، ٤٤).

تنوعت اهتمامات أهل العلم بالسيرة، وذلك لعظم شأنها.

والسيرة المقصود بها: ما أُثر عن النبى ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين وعمن بعدهم من أهل العلم فى وصف حال سَيْر النبى ﷺ وحال طريقته وهيئته منذ ولد -عليه الصلاة والسلام- إلى أن توفاه الله -جل وعلا-.

فالسيرة إذن هى حكاية لما كان عليه النبى ﷺ من حين ولادته إلى أن توفاه الله -جل وعلا-. فيها بيان ما حصل له من ولادته، وما كان فى ولادته من ظهور بعض المعجزات، وظهور بعض الإرهاصات لمبعثه -عليه الصلاة والسلام-. وذكر رضاعه -عليه الصلاة والسلام- وذكر أحواله وأمه وأخواله وأشباه ذلك، وذكر هَدْيه -عليه الصلاة والسلام- وسيرته فى صغره حتى بعثه الله -جل وعلا-، وما كان يتصف به قبل المبعث من أنواع الأخلاق والشمائل.

كذلك سيرته -عليه الصلاة والسلام- حكاية لحاله منذ بعثه الله -جل وعلا- فبلّغ دعوة الله، وصبر على ذلك، وما ناله من الأذى، وكيف بلغ، والسبل التى اتخذها للبلاغ إلى أن هاجر إلى المدينة، ومن مهاجره إلى المدينة وتأسيسه لدولة الإسلام الأولى إلى أن توفاه الله -جل وعلا-، ويُدخِل فيها عددٌ من أهل العلم ما كان بعد ذلك من سيرة الخلفاء الراشدين وما حصل لهم من أنواع الفتوح.

إذن؛ فالسيرة طريقة وهيئة، والسيرة أيضاً مأخوذة من السَّيْر: سار يسير سيراً، يعنى ما سار عليه النبى -عليه الصلاة والسلام-.

وقد جاء فى القرآن ذكْـر السيرة بمعنى الطريقة والهيـئة فى قول الله -جل وعلا-: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾ (طه: ٢١).

فالسيـرة إذن تشمل طريقة السَّيـر، وتشمل الهيئـة التى كان عليها السـير. ولذلك تجمع السيرة على سِيَر. ويذكر فيها أنواع المغازى والفتوح، ويذكر فيها أنواع ما حصل له -عليه الصلاة والسلام- وما حصل لصحابته من بعده.

فإذن السـيرة لها معـنى لغوى، ولها مـعنى اصطلاحى؛ كمـا ذكرت لك. ودرج العلماء على أن المراد بالسـيرة حين تذكر السِّير ما دُوِّن فى كتب مخـصوصة أسموها كتب السيرة وكتب السِّير. وهذا يجعلـنا نفيض فى أن الكتابة فى سيرة المصطفى ﷺ وفى مغازيه كانت متقدمة فى الزمن الأول.

فذكر العـلماء أن أبان بن عثمان بـن عفان ابن الخليفـة الراشد هو أول من دوّن سيرة المصطفى ﷺ ودوّن مغازيه، وكانت وفاة أبان -رحمه الله تعالى- سنة خمس ومائة (١٠٥هـ)، وكان أخذ عن عدد كبير من الصحابة، وأخذ عنه عدد كبير أيضاً من التابعين.

وممن شُهر أيضاً برواية السيرة وتتبعهـا عروة بن الزبير بن العوام فقد كان إماماً فى المغازى، وله مغازى ألفها، وجمعها باسم «مغازى عروة»، وقد جمع بعضها وطبع.

وكذلك ممن اهـتم بالسيرة ابـن شهاب الزهرى الإمـام المعروف سيد المحـدثين فى زمانه، جمع فى السيرة كتاباً، وفى المغازى كتاباً، فيما ذكره له عمر بن عبد العزيز --رحمه الله تعالى-.

وكذلك ممن كتب فى السـيرة من الأولين -من التابعين- عاصم بـن عمر بن قتادة وغيره من ثقات أهل العلم فى القرن الأول وفاتحة القرن الثانى.

بهذا يـتبين أن كـتابة السيـرة كانت مـتقدمة جـداً. ولهذا صار أهـل العلم بعدهم يأخذون مأخذ الـتابعين فى العناية بالسِّير والعناية بـالمغازى. فقد جمع ما سمع من بعض هؤلاء، جمعه العالـم المعروف محمد بن إسحاق المدنى فى كتاب «السير والمغازى».

ومن الكتب التى نالت الاستحسـان والقبول عند الناس كتاب «**نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**»، للشيخ/ محمد الخضرى -رحمه الله-، وإسهاماً منى فى العناية بهذا الكتاب قمتُ بتخريج أحاديثه والتعليق عليه وعزو الأحداث والمشاهد إلى كتب السيرة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ولقد أبقيت تعليقات الشيخ -رحمه الله- كما هى وزدت عليها ليعم النفع.

وأسأل الله العـظيم رب العرش الكريـم أن يجعل هذا العـمل خالصاً لوجـهه الكريم، وأن يجعلـه فى ميزان حسناتى، يوم لا ينفـع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

**وصلى الله على نبينا محمد، وآله، وصحبه، وسلم**

**كتبه**

**أبو أنس/ صلاح الدين محمود السعيد**

**مصر - دمياط - باب الحرس**

**مجمع دار السلام**

# التعريف بالمؤلف

هو محمد بن عفيفى الباجورى، المعروف بالشيخ الخضرى، من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام.

ولد فى مصر ١٢٨٩هـ، وأقام فى الزيتون من ضواحى القاهرة.

تخرَّج بمدرسة دار العلوم، وبرز بين أقرانه عالماً وباحثاً وخطيباً ومربياً ومصلحاً.

وقد شغل خلال سِنِى حياته المناصب التالية:

١- قاضيًا شرعياً فى الخرطوم.

٢- مدرساً فى مدرسة القضاء الشرعى فى القاهرة مدة ١٢ سنة.

٣- أستاذاً للتاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية.

٤- وكيلاً لمدرسة القضاء الشرعى.

٥- مفتشاً بوزارة المعارف.

وقد أسهم فى إثراء المكتبة الإسلامية بمجموعة من الكتب المفيدة فى التاريخ والأدب والشريعة.

وقد نهج فى كتبه نهج الجمع المفيد، معتمداً على الصحاح وأمهات الكتب فى كل فن، وكان حريصاً على تقريب التراث إلى الناشئة، وتقديمه لهم نقياً خالصاً من كل حشو أو تعقيد أو بدع أو قشور، وامتاز أسلوبه بالجزالة والفصاحة والرصانة، يلوِّنه بالموعظة الحسنة الرقيقة النافذة كلما رأى الفرصة مناسبة.

وتظهر مقدرته الخطابية وعاطفته الدينية الصادقة واضحة فى تعقيباته على الأحداث الهامة التى تتعلق بظروف المسلمين الراهنة، فكان كما وصفه صديقه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى: إنه مصلحٌ ومربٍّ غيورٌ.

**مـؤلفاتـه:**

**(أ) في الشريعة:**

- أصول الفقه.
- تاريخ التشريع الإسلامى.
- الغزالى تعاليمه وآراؤه.

**(ب) في التاريخ:**

- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين.
- إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء.
- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (جزءان).
- دروس تاريخية.

**(جـ) في الأدب:**

- تهذيب الأغانى (سبعة أجزاء منه).
- محاضرات فى نقد كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين.

توفى -رحمه الله- فى القاهرة (١٣٤٥هـ، ١٩٢٧م) ودفن فيها، فجزاه الله عن المسلمين خيراً وغفر له.

# مقدمة المؤلف

نحمدك يا مَنْ أوضحت لنا سبل الهداية، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية، ونصلى ونسلم على من أرسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان، يبتغون من الله الفضل والرضوان، والأنصار الذين آووا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين، ما جمعوا، وما ادَّخروا.

**أما بعد:** فيقول محمد الخضرى ابن المرحوم الشيخ عفيفى الباجورى:

كنت أجد من نفسى منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين، وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذِّب وأنصح معلِّم، وكنت أرى فى تاريخ نبينا ﷺ وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده، أعظم مربٍّ لأفكار المسلمين، فإنه يدلهم على ما يجب اتباعه، وما يلزم اجتنابه، ليسودوا كما ساد سابقوهم، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام من اجتذاب النفوس النافرة، والتأليف بين القلوب المختلفة، وما يتعلق بقواد الجيوش من تأليف الرجال وإحكام المعدات؛ حتى يتم لهم النصر على أعدائهم، وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم.

فكنت أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً، وكانت نفسى كثيراً ما تأسف على ترك المسلمين لها! فقلما أجد من يشتغل بها، ولكنى كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع.

فلما قدمتُ مدينة المنصورة جمعتنى النوادى مع محمود بك سالم، القاضى بمحكمة المنصورة المختلطة، فوجدت منه علمًا بدينه تقف دونه فحول الرجال، وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال، فقلما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرِّزاً فيها مفصحاً عن الجواب عنها، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم ﷺ فعنده منها الخبر اليقين، وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوَّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين،

فقلت: يا لله! لقد وافق هذا السيد الكريم ما فى نفسى، ولكنى كنت أرى فى عزيمتى قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته، فإن المقام عظيم وصعوباته أعظم، ولكن لم أرَ من الأمر بُداً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة، فإنهم أكثروا من الأمانى لعمل هذا الكتاب العميم النفعِ الجزيل الفائدةِ.

فقمت معتمداً على الله، راجياً منه أن يوفقنى لما فيه رضاه، وواصلت السير بالسرى، حتى بلغت المنى، فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة، وترجع إليه الخاصة.

وقد كان موردى فى تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخارى ومسلم، ولم أَخْرُج عنهما إلا فيما لابد من تفهيم العبارات، فكان يساعدنى «الشفاء»، للقاضى عياض، و«السيرة الحلبية»، و«المواهب اللدنية» للقسطلانى، و«إحياء علوم الدين» للغزالى.

هذا، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وإحياء معالم دينه حتى يؤيَّدوا بروحٍ من عند الله.

وقد آن أن نَشْرَع فيما قصدناه مستعينين بحول الله، فنقول:



## النسـب الشـريـف

السيد الأكرم الـذى شَرُف الناس بوجوده هو: (محمد بـن عبد الله)، من زوجه آمنة بنت وهب الزُّهْرية[١] القرشية، (ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية[٢] القرشية.

وكان عـبد المطلب شيـخاً معظـماً فى قريش يـصدرون عن رأيه فى مشـكلاتهم، ويقدمونه فى مهماتهم.

ابن هاشم من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية[٣]، (ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مُرَّة السلمية[٤]، (ابن قصىٍّ) من زوجه حُبَىٍّ بنت حُليل الخزاعية.[٥]

وكان إلى قصىٍّ فى الجاهـلية: حجابة البيت، وسقاية الحـاج وإطعامه، المسمى بالرِّفادة، والـندوة وهى الشورى، لا يتم أمر إلا فـى بيته، واللواء: لا تعـقد راية لحرب إلا بيده، ولما أشرف على الموت جعلها فى يد أحد أولاده: عبد الدار، لكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على أن لا يتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، وكاد يفضى الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاءُ الفريقين، فأعطوا بنى عبد مناف السقاية والرِّفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده.

---

(١) من بنى زهرة بن كلاب من قريش. (م).

(٢) من بنى مخزوم من يقظة بن مرة من قريش. (م).

(٣) من بنى النـجار من الخزرج، والخزرج إحـدى القبيلتين الـلتين كانتا تـقيمان بالمديـنة، وهما الأوس والخزرج، وهما أخوان، وسمى رسول الله ﷺ كليهما أنصاراً. (م).

(٤) من بنى سليم بن منصور، إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر. (م).

(٥) من بنى خزاعة بن عمرو، إحدى قبائل قمعـة بن إلياس بن مضر، وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش. (م).

أما الحجابة فبقيت بيد بنى عبد الدار، وأقرَّها لهم الشرع، فهى فيهم إلى الآن، وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ابن عبد العزَّى بن عثمان بن عبد الدار.

وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين، يضعه فيمن يراه صالحاً له، وكذلك الندوة.

وقصى (بن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد، وهى يمانية من أزد شنوءة، (ابن مرّة) من زوجه هند بنت سرير من بنى فهر بن مالك، (ابن كعب) من زوجه وحشية بنت شيبان من بنى فهر أيضاً، ابن لؤى من زوجه أم كعب ماوية بنت كعب من قضاعة، (ابن غالب) من زوجه أم لؤى سلمى بنت عمرو الخزاعى، (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل.

وفهر هو قريش -فى قول الأكثرين- وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصى، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو تَيم بن مرَّة، وبنو عدى بن كعب، وبنو سَهْمِ بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو عامر بن لؤى، وبنو تَيم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو محارب بن فهر، والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح، والذين بضواحيها قريش الظواهر.

(ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحارث من جرهم، (ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان، ابن كنانة من زوجه برة بنت مر بن أدٍّ، (ابن خزيمة) من زوجه عُوانة بنت سعد من قيس عيلان، (ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة، (ابن إلياس) من زوجه خندف، المضروب بها المثل فى الشرف والمنعة، (ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة (بن معد)، ابن نزار من زوجه سودة بنت عكٍّ، ابن معد من زوجه مُعانة بنت جوشم من جُرهْم، (ابن عدنان).[1]

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدِّثين.

أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ﷺ ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم، أبى العرب المستعربة.

(١) انظر ما رواه البخارى (٣٨٥١) باب مبعث النبى ﷺ ، وقال البغوى فى «شرح السنة» (١٣/ ١٩٣): ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان، وانظر أيضاً «زاد المعاد» (١/ ٧١).

نسب شريف كما ترى، آباء طاهرون وأمهات طاهرات، لم يزل ﷺ ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء، حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً، فهو من صميم قريش التى لها القدمُ الأولى فى الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد فى سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مسترذل، بل كلهم سادة قادة، وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأناً، ولاشك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية[1]، بل طهَّره الله من ذلك، والحمد لله.

## زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، فزوّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وسنُّه ثمانى عشرة سنة، وهى يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً.

ولما دخل عليها حملت برسول الله ﷺ ، ولم يلبث أبوه أن توفى بعد الحمل بشهرين، ودُفن بالمدينة عند أخواله بنى عدىٍّ بن النجار، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، ولما تمت مدَّة حمل آمنة وضعت ولدها، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذى بثَّ فى أرجائه روح الآداب وتمَّمَ مكارم الأخلاق.

وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكى[2] أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من إبريل سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل.[3]

(١) **ضعيف**: رواه البيهقى (٧/ ١٩٠)، والبغوى فى شرح السنة (٣/ ١٧١)، والطبرانى (١٠/ ٣٩٩)، وانظر «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٤).

(٢) محمود باشا الفلكي: مهندس رياضى من علماء مصر، له آثار تدل على براعته فى علم الفلك والرياضيات والجغرافيا، توفى سنة ١٨٨٥ م، ١٣٠٢هـ. (م).

(٣) حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب، كعادتهم هم وكل أمة فى التأريخ بالأمور المهمة، وقد ذكر القرآن هذه الحادثة فى سورة الفيل، وحاصلها أن ملكاً من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير -واسمه أبرهة الحبشى أغار على مكة وقصد هدم كعبتها، وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله، فإكراماً للنبى المنتظر وغيرة على بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء فى تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وأراح قريشاً من عناء مقاومتهم. اهـ. (م).

وكانت ولادته فى دار أبى طالب بشِعْب بنى هاشم، وكانت قابلتَه الشِّفَاءُ أمُّ عبد الرحمن بن عوف، ولما وُلد أرسلت أمه لجدِّه تبشِّره، فأقبل مسروراً وسمَّاه محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبلُ عند العرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدَّره وذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جدَّه أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره[1]، وكانت حاضنته أمُّ أيمن بركةُ الحبشية أمَةُ أبيه عبد الله، وأول من أرضعه ثُوَيبةُ أمَةُ عَمِّه أبى لهب.

**الرضاع:**

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم فى البوادى؛ ليكون أنجب للولد، وكانوا يقولون: إن المُرَبَّى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة وهو الذى كانت قريش تَنْسُبُ له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به، فيقولون: هذا ابن أبى كبشة، يُكَلَّم من السماء. ودرَّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم، وكانت تربو عن أربع سنوات.[2]

**حادثة شق الصدر:[3،4]**

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهى شقُّ صدره، وإخراج حظ الشيطان منه، فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً، فردَّته إلى أمه وحدَّثتها قائلة: بينما هو وإخوته فى بُهْمٍ[5]

---

(١) وقد سُئل النبى ﷺ عن بداية أمره فقال: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام».
رواه أحمد (٥/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٦٠٠)، «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٢)، وقال: إسناده حسن. وله شواهد تقويه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٢) السيرة الحلبية، وتربو: تزيد. (م).

(٣) الأولى أن يقال: حادثة شق البطن، بدليل قوله فى السيرة «فشقا بطنه»، وقوله ﷺ: «**فشقا بطنى**». (م).

(٤) رواه أبو يعلى كما فى «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢١)، وقال الذهبى فى «السيرة النبوية» ص (٨): هذا حديث جيد الإسناد، وله شواهد تقويه، ولذلك فالحديث حسن لشواهده.

(٥) بَهْم: جمع بَهْمة: وهى ولد الضأن الذكر والأنثى. (م).

لنا خلف بيوتنا؛ إذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه: ذاك أخى القرشىُّ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[١]، فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه[٢]، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بنى؟ فقال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى فشقَّا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه، ولا أدرى ما هو.

## وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب
## ووفاته وكفالة أبى طالب

ثم إن أمه أخذته منها، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار، وبينما هى عائدة أدركتها منيتها فى الطريق فماتت بالأبواء،[٣] فحضنته أم أيمن، وكفَلَه جدُّه عبدُ المطلب ورقَّ له رقَّةً لم تعهد له فى ولده، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيماً فى المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام.

ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفى بعد ثمانى سنوات من عمر الرسول ﷺ، فكفله شقيق أبيه أبو طالب، فكان له رحيماً وعليه غيوراً، وكان أبو طالب مُقلاً من المال فبارك الله له فى قليله، وكان الرسول ﷺ فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى يشتغل بها الأطفال عادةً، كما روت ذلك أم أيمن حاضنته، فكان إذا أقبل وقتُ الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له.[٤]

**السفر إلى الشام:**

ولما بلغت سنُّه ﷺ اثنتى عشرة سنة أراد عمُّه وكفيلُه السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسول ﷺ فراقه، فَرَقَّ له وأخذه معه، وهذه هى الرحلة الأولى، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة -وهم بقرب بصرى بَحِيرا الراهبُ فسألهم عما رآه فى كتبهم المقدسة من بعثة نبىٍّ من العرب فى هذا الزمن، فقالوا: إنه

---

(١) يدخلان أيديهما فى بطنه. (م).

(٢) شبيهاً بالنقْع وهو التراب، أى صار لون وجهه كلون النقع الذى هو التراب. (م).

(٣) قرية بين مكة والمدينة، وهى أقرب إلى المدينة. (م).

(٤) انظر «صحيح السيرة النبوية» للعلى ص (٥٦).

لم يظهر للآن. وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٨٩).(١)

### حرب الفجار:

ولما بلغت سنُّه ﷺ عشرين سنة حضر حرب الفجار، وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش، وبين قيس، وسببها أنه كان للنعمان بن المنذر -ملك العرب بالحيرة(٢)- تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ(٣) لتباع له، وكان يرسلها فى أمان رجل ذى منْعَة وشرف فى قومه ليجيزها، فجلس يوماً وعنده البرَّاضُ بن قيس الكنانى -وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شرِّه- وعروة بن عتبة الرحَّال، فقال: من يجيز لى تجارتى هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البرَّاض: أنا أجيزها على بنى كنانة، فقال النعمان: إنما أريد من يجيزها على الناس كلهم؟ فقال عروة: أبيت اللعن(٤)، أكلبٌ خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد(٥) وتهامة(٦)، فقال البَرَّاض: أو تجيزها على كنانة يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم، فأسرَّها فى نفسه، وتربَّص له حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر، ويحذرهم قيساً قوم عروة.

وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة(٧) فاقتتلوا، ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها، وكان فيهم رسول الله ﷺ ، ثم إن قيساً قالوا لخصومهم: إنَّا لا نترك دم عروة، فموعدنا

---

(١) انظر «صحيح السيرة النبوية» ص (٥٨، ٥٩).

(٢) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس، فتحها خالد بن الوليد فى السنة الثانية عشرة (راجع إتمام الوفاء). (م).

(٣) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب، وهى أشبه فى ذلك بمعارض أوروبا الآن. (م).

(٤) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما استحق المذمة. (م).

(٥) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها. (م).

(٦) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية، والشرقى منها يسمى البحرين، والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز فى الغرب، واليمامة فى الشرق. (م).

(٧) موضع بين مكة والطائف. (م).

عكاظ العام المقبل، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً.

فلما حال الحَوْل جمعت قيس جموعها وكانت معها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش -وهم حلفاء قريش-، وكان رئيس بنى هاشم الزبيرُ بن عبد المطلب ومعه إخوته: أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبى الكريم، وكان على بنى أمية حرب بن أمية، وَلِى القيادة العامة لمكانه فى قريش شرفاً وسناً، وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، فكان يوماً من أشد أيام العرب هولاً، ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سُمى يوم الفجَار.(١)

وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها، ولكن أدركهن من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش، وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان، وهكذا انتهت هذه الحرب التى كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور، حتى ألَّف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم.

### حلف الفضول:

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفُضول، فتمَّ فى دار عبد الله ابن جدعَان التَّيمى، أحد رؤساء قريش، وكان المتحالفون: بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف، وبنى أسد بن عبد العزَّى، وبنى زهرة بن كلاب، وبنى تيم بن مرَّة، تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى تُرَدَّ إليه مظلمتهُ.

وقد حضر هذا الحلف رسولُ الله ﷺ مع أعمامه، وقال بعد أن شرَّفه الله بالرسالة: **«لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحبُّ أنَّ لى به حمر النَّعم،(٢) ولو دُعيت به فى الإسلام لأجبت»**(٣) وذلك لأنه ﷺ مبعوث بمكارم

(١) الصواب: لما استحل فيه من القتال فى الأشهر الحرم، لأن القتال لم يقع فى مكة. (م).

(٢) حمر النعم: الإبل الحمراء، وهى أنفس أموال العرب. (م).

(٣) «صحيح السيرة النبوية» ص (٥٩)، وصححه الألباني، و«السيرة النبوية الصحيحة» للعمرى (١/ ١١٢).

الأخلاق وهذا منها، وقد أقر دين الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله ﷺ : «**بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١]، وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأُنصفوا.

## رحلته ﷺ إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنُّهُ ﷺ خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية[٢] كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه فى غيره حتى سماه قومه الأمين، استأجرته ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً، وظهر للسيد الكريم فى هذه السفرة من البركات[٣] ما حببَه فى قلب ميْسرة غلام خديجة.

## زواجه ﷺ خديجة رضي الله عنها [٤]

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم، سرَّت من الأمين ﷺ ، وأرسلت إليه تخطبُهُ لنفسها، وكانت سنُّها نحو الأربعين، وهى من أوسط قريش حسبًا وأوسعهم مالاً.

فقام الأمين ﷺ مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد، فخطبها منه بواسطة عمه أبى طالب فزوَّجها عمُّها.

وقد خطب أبو طالب فى هذا اليوم فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مُضَر، وجعلنا حضنَةَ بيته، وسُوَّاس حَرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكَّام الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجلاً إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان فى المال قُلٌّ، فإن المال ظِل زائل وأمر حائل وعارية مستردة، وهو والله بعدُ هذا

---

(١) وفى الرواية المشهورة: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». (م).

(٢) من بنى أسد بن عبد العزى بن قصي. (م).

(٣) منها إظلال الغمامة لرسول الله ﷺ فى الحر. (م).

(٤) انظر «السيرة النبوية» لأبى شهبة (١/ ١٢٢-١٢٣).

نبأ عظيم وخطر جليـل، وقد خطب إليكم رغبةً فى كريمتكم خـديجة، وقد بذل لها من الصَّدَاق كذا[١] وعلى ذلك تم الأمر.

وقد كانـت متزوجة قبلـه بأبى هالة، توفى عنهـا وله منها ولد اسمـه هالة، وهو ربيب المصطفى ﷺ .

## بـنـاء البيـت

ولما بلغت سنُّه ﷺ خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدَّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبلُ، فأرادت قريش هـدمها ليرفعوها ويسقفوها، فإنها كانت رضيمة[٢] فوق القامة، فاجتمعت قبائـلهم لذلك، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها فى قلوبهم، فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، قال: إن الله لا يهلك المـصلحين، وشرع يهدم فتبـعوه وهدموا، حتى وصلوا إلى أساس إسماعـيل، وهناك وجدوا صحافاً نُقش فيها كـثير من الحِكَم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين.

ثم ابتدءوا فى البناء، وأعـدوا لذلك نفقة ليس فيها مهـر بَغِىٍّ ولا بيع ربا، وجعل الأشراف من قريش يحـملون الحجارة على أعناقهم، وكـان العباس ورسول الله ﷺ فيمن يحمل[٣]، وكان الذى يلى البناء نجار رومى اسـمه «باقوم»، وقد خصص لكل ركن جماعة من العظـماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النـفقة الطيبة[٤] عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة.

ولما تمَّ البناء ثمـانية عشر ذراعاً، بحـيث زِيد فيه عن أصله تـسعة أذرع، ورفع البـاب عن الأرض بحيـث لا يُصعـد إليه إلا بِـدرج، أرادوا وضع الحجـر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا فى ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربـع ليالٍ، وكان أسنَّ رجل فى قريش إذ ذاك

---

(١) فى السيرة الحلبية خمسمائة درهم. (م).

(٢) بناء رضيم: مبنى بالصخر. اهـ. من أساس البلاغة. (م).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (١٥٨٣) كتاب الحج.

(٤) الطيبة: الحـلال. (م).

أبو أمية ابن المغيـرة المخزومى، عمُّ خالد بن الوليد، فقال لهم: يـا قوم لا تختلفوا وحكّموا بيـنكم من ترضون بحكمـه، فقالوا: نَكِلُ الأمـر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون ﷺ .

فاطمـأن الجميع لـه، لما يعهدونـه فيه من الأمـانة وصدق الحديث، وقـالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد، لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يُدارِى ولا يُمارِى، فلما أخبروه الخبر بسط رداءه، وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعه فيه.

وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيراً ما يكون أمثالها سبباً فى انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن يمنَّ الله عليهم بعاقل مـثل أبى أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول ﷺ يقضى بينهم بما يُرضِى جميعهم.

ولا يُستغرب من قريش تنافسهم هذا، لأن البيت قـبلة العرب وكعبتهم التى يحجون إليها، فكل عمل فيه عظيم، به الفخـر والسيادة، وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكـريم، قال تعالى فى سـورة آل عمران: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

وكان يلى أمره بعد ولد إسـماعيل قبيلةُ جُرْهُم، فلما بـغوا وظلموا من دخل مكة اجتمـعت عليهم خـزاعة وأجلوهم عن الـبيت، ووليتـه خزاعة حينـاً من الدهر، ثم أخذته منهم قريشُ فى عهد قصى بن كلاب، وبـسببه أمنوا فى بلادهم، فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصنـاً أميناً من اعتداء العادين، وامتنَّ الله عليهم بذلك فى تنزيله، فقـال فى سورة العنكبوت: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ (العنكبوت: ٦٧).

## معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يَرِث ﷺ من والده شيئاً، بل وُلد يتيماً عائلاً فاستُرضع فى بنى سعد، ولما بلغ مبلغاً يمكنه أن يعمل عملاً كان يَرْعَى الغنم مع إخوته من الرضاع فى البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخارى فى «صحيحه». [١]

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢).

ووجود الأنبياء فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لابد منه، لأنهم لو وُجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشُغلوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك، فكان عيسى -عليه السلام- أزهد الناس فى الدنيا، وكذلك كان موسى وإبراهيم.

وكانت حالتهم فى صغرهم ليست سعة بل كلهم سواء، تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم فى الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها، وذلك سبب البلايا والمحن.

وكذلك رعاية الغنم، فما من نبى إلا رعاها، كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق فى حديث للبخارى، وهذا أيضاً من بالغ الحكم، فإن الإنسان إذا استرعى الغنم -وهى أضعفُ البهائم- سكن قلبه الرأفةُ واللطفُ تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخَلْق كان لما هُذِّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى، فيكون فى أعدل الأحوال.

ولما شب ﷺ كان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبى السائب، وذهب بالتجارة لخديجة رضي الله عنها إلى الشام على جُعْلٍ يأخذه، ولما شُرِّفت خديجة بزواجه وكانت ذاتَ يَسار، عمل فى مالها وكان يأكل من نتيجة عمله، وحقق الله ما امتن عليه به فى سورة الضحى بقوله -جل ذكْره-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ بالإيواء والإغناء قبل النبوة، والهداية بالنبوة، هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم -عليه السلام- ولم يكن يدرى ذلك قبلُ، قال تعالى فى سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢).

### سيرته فى قومه قبل البعثة:

كان ﷺ أحسن قومه خُلُقاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، حتى كان أفضل قومه مروءةً، وأكرمهم مخالطةً، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، فسموهُ الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة والفعال السديدة من: الحلم، والصبر،

والشكر، والعدل، والتواضـع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحيـاء، حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه: النضر بن الحارث، من بنى عبـد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غـلاماً حدثاً، أرضاكـم فيكم، وأصدقكم حـديثاً، وأعظمكم أمـانةً، حتى إذا رأيتم فى صُدْغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، قال ذلك فى معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم، حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه. ولما سأل هرقل، ملك الروم، أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تـتهمونه بـالكذب قبل أن يقـول ما قال؟ قال: لا، فـقال هرقل: ما كـان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله. ورد ذلك فى أول «صحيح البخارى».

وقد حـفظه الله فى صـغره من كـل أعمال الجـاهليـة التى جاء شـرعه الشـريف بضدها[1] وبُغضت إليه الأوثان بغضاً شديداً، حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عـبّادُها، وقال ﷺ: «لما نشأتُ بُغضت إليَّ الأوثـان وبُغض إليَّ الشعر، ولم أهمَّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعـله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته، قلت ليلةً لغلامٍ كان يرعى معى: لو أبصـرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمُر كمـا يسمُرُ الشباب، فخرجـت لذلك حتى جئت أول دار مـن مكة أسمع عزفـاً بالدفوف والمزاميـر لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا مس الشمس ولم أقضِ شيئاً، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك».

وكان ﷺ لا يأكل ما ذُبح عـلى النصب[2]، وحرَّم شرب الخمر عـلى نفسه، مع شيوعـه فى قومه شيوعـاً عظيماً، وذلك كله من الصـفات التى يُحلى الله بهـا أنبياءه ليكونوا علـى تمام الاستعداد لتلـقى وحيه، فهم مـعصومون من الأدناس قـبل النبوة وبعدهـا، أما قبل النبـوة فليتـأهلوا للأمر العظـيم الذى سيسـند إليهم، وأما بـعدها فليكونوا قدوة لأممهم، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات.[3]

---

(١) «الشفاء» للقاضى عياض. (م).

(٢) هى حجارة تنصب وتُصب عليها دماء الذبائح وتعبد. (م).

(٣) انظر «صحيح السيرة النبوية» إبراهيم العلى ص (٥٧).

**ما أكرمه الله به قبل النبوة:**

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين، فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تئوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً، ويرحم الله البوصيرى حيث يقول فى همزيته:

وإذا سخَّر الإلهُ أناساً ... لسعيدٍ فإنهم سعداءُ

ثم أعقب ذلك ما حصل من شقِّ صدره، وإخراج حظ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوة الله شيئاً، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب.

ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له فى سفره إلى الشام حتى كانت تظله فى اليوم الصائف، لا يشترك معه أحد فى القافلة، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذى كان مشاركاً له فى سفره، وهذا ما حبَّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقَّنت أن له فى المستقبل شأناً، ولذلك لما جاءته النبوة كانت أسرع الناس إيماناً به، ولم تنتظر آية أخرى زيادةً على ما علمته من مكارم الأخلاق، وما سمعته من خوارق العادات.

ومن منن الله عليه ﷺ ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار، فكان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى لا يرى ببناء، ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وقد حدَّث بذلك عن نفسه.

وليس فى ذلك كبير إشكال فقد سخَّر الله الجمادات للأنبياء قبله، فعصا موسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحولت حية تسعى، ثم رجعت كما كانت، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتى عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط بنى إسرائيل عين، وكذلك غيره من الأنبياء سخَّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم.

**تبشير التوراة به ﷺ :[1]**

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن، ونوَّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى -عليه السلام-:[2،3]

(وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامى فى فمه، ويكلِّمهم بكل شىء آمره به، ومن لم يُطع كلامه الذى يتكلم به باسمى، فأنا الذى أنتقم منه، فأما النبى الذى يجترئ علىَّ بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل، وإذا أحببت أن تميز بين النبى الصادق والكاذب، فهذه علامتك أن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدُث فهو كاذب، يريد تعظيم نفسه، ولذلك لا تخشاه).

ويقول اليهود: إن هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى -عليه السلام-، مع أنهم كانوا ينتظرون فى مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح، فإنهم[4] أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا: أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا: أنت النبى؟ فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذاً تعَمِّدُ إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبى؟ فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبى لم يأت حتى زمن المسيح ثم إن التوراة تقول فى صفة النبى: إنه مثلُ موسى، وقد نصَّت فى آخر سفر التثنية على أنه لم يقم فى بنى إسرائيل نبى مثل موسى.

وورد فى هذه البشارة أن النبى الذى يفترى على الله يُقتل، ويشبه ذلك فى القرآن قوله تعالى فى سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[5] (الحاقة: ٤٤-٤٦)، ونبينا ﷺ مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثاً وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله، ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطميناً لخاطره فى سورة المائدة: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، أكان يعجز الله

---

(١) انظر: «الجواب الصحيح» لابن تيمية (١/ ٣٤٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٧).

(٣) الإصحاح الثامن: سفر التثنية. (م).

(٤) الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا آية ٤٦ . (م).

(٥) الوتين: عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه. (م).

-وهو القادر على كل شيء- أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله وهو الذى قال فى سورة الشورى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى: ٢٤).

وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التى نَعْرِف بها صدق النبى من كذبه، وهى الإخبار بما سيأتى، وقد أخبر النبى ﷺ عن أشياء كثيرة، فحدثت كما أخبر عنها، ومنها ما لا ينفع معه الحدس والتخمين، كالإخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم، فالإخبار إذاً بأن الروم سيردُّون ما فُقِد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش، وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن، وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى.

وروى القاضى عياض فى «الشفاء»: أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فقال: أجل! والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥)، «وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صُماً وقلوباً غلفاً».

وروى مثله عن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه، وهو الذى كان رئيس اليهود فلم تُعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار، وفى بعض طرق الحديث: «ولا صخب فى الأسواق، ولا قوَّال للخنا، أسدُّده لكل جميل، وأهب له كل خُلُق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خُلُقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة، وأعلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمى به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء مشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس».

وقد أخبر ﷺ عن صفته فى التوراة فقال -وهو الصادق الأمين-: «عبدى أحمد المختار، مولده مكة، ومهاجره بالمدينة -أو قال طيبة- وأمته الحمَّادون اللهَ على كل حال».

**تبشير الإنجيل:**

بشَّر عيسى -عليه السلام- قومه فى الإنجيل بالفارقليط، ومعناه قريب من محمد أو أحمد، ويصدقه فى القرآن قول الله تعالى فى سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا، فقال: «إنه يوبِّخ العالم على خطيئته، وإنه يعلمهم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع»، وهذا ما ورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣، ٤).

وقد ورد فى إنجيل برنابا -الذى ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب الجهالة- ذكرُ اسم الرسول ﷺ صراحة.

## حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهِّل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة، فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر، فقد حدَّث عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا للإسلام -مع رحمة الله تعالى لنا- ما كنَّا نسمع من أحبار يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبى يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا وكفروا.

وإنما قال لهم اليهود: نقتلكم معه قتل عاد وإرم، لأن من صفته ﷺ فى كتبهم أن هذا النبى يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغى سيتمكّنان

من أفئدتهم، فينبذون الدين القيِّم، فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة.

وكان أمية بن أبى الصلت المتنصر العربى كثيراً ما يقول: إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا.

وحدَّث سلمان الفارسى ﵁ عن نفسه: أنه صحب قسيساً، فكان يقول له: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أن يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان.

ولما راسل ﷺ ملوك الأرض لم يُهن كتابه إلا كسرى الذى ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشى ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وفادَة رسله، ومنهم من آمن كالنجاشى، ومنهم من ردَّ رداً لطيفاً وكاد يُسْلِم لولا غلبة المُلك كقيصر، ومنهم من هادَى كالمقوقس.

ولم يكن ﷺ فى قوة يُرْهب بها هؤلاء الملوك، اللَّهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح -عليه السلام- بشَّر برسول يأتى من بعده، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم، فأجابوا بالتى هى أحسن، وأما ما سُمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر، وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر، ومع ذلك كله فالأعمال التى جاء الله بها على يديه، والأقوال التى أتانا بها أعظم مقوٍّ لحجته ومؤيد لدعوته، وسيأتى عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله تُرْشَد، هداك الله إلى الصراط السوى.

## بـدء الـوحـى

لما بلغ ﷺ سنَّ الكمال، وهى أربعون سنة، أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك فى أول فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد، كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكى، تبيَّن بعد دقة البحث أن ذلك كان فى ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة، وذلك يوافق يوليو سنة ٦١٠ .

وأول ما بُدى به الوحى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق[١]

(١) فلق الصبح: ضوء الصبح. (م).

الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله فى خلقه من التدريج فى الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال، ومن الصعب جداً على البشر تلقى الوحى من المَلَك لأول مرة، ثم حُبّب إليه ﷺ الخلاء، ليبتعد عن ظلمات هذا العالم، وينقطع عن الخَلْق إلى الله، فإن فى العزلة صفاء السريرة، وكان يخلو بغار حِرَاء، فيتعبَّد فيه الليالى ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر.

وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم -عليه السلام-[1] ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء.

فبينما هو قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة، ثم قال له: اقرأ، قال: **«ما أنا بقارئ»**، فإنه ﷺ أمى لم يتعلَّم القراءة قبلاً، فأخذه فغطَّه بالنمط الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه فغطَّه ثانية، ثم أرسله فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه فغطه الثالثة، ثم أرسله فقال: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** (العلق: ١-٥).

فرجع بها ﷺ يرجف فؤاده مما ألمَّ به من الروع الذى استلزمته مقابلة المَلَك لأول مرة، فدخل على خديجة زوجه، فقال: زمِّلونى[2] زمِّلونى، لتزول عنه هذه القشعريرة، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: **«لقد خشيت على نفسى»** -لأن الملك غطَّه حتى كاد يموت، ولم يكن له عليه السلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله- فقالت: كلا؛ والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحمَ، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدومَ، وتُقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[3]، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك.

---

(١) قال فى «السيرة الحلبية» (١/ ٣٨٣)، وقد قيل: إن إطعامه من جاء من المساكين كان تعبده فى غار حراء أى مع الانقطاع عن الناس، وقيل: كان تعبده ﷺ التفكر مع الانقطاع عن الناس، وقيل: تعبُّده ﷺ كان الذكر، وصححه فى سفر السعادة. (م).

(٢) لفونى فى ثوبى. (م).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٣).

ولتتأكـد خديجة مما ظنته أرادت أن تتـثبت ممن لهم علم بحال الـرسل ممن اطّلعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حـتى أتت ورَقة بن نوفل، ابن عم خديجة، وكان امرءًا قـد تنصَّر فى الجـاهلية، وكـان يكتب الكتـاب العبرانـى، فيكتب مـن الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخـيك، فقال: يا بن أخى ماذا تـرى؟ فأخبره ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزَّل اللهُ على موسى، لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل، ثم قال: يا ليتنى فـيها جذعاً (شاباً جلداً) إذ يخرجك قومك، من بلادك التى نشأت بها، لمعاداتـهم إيَّاك وكراهيتهم لك حينما تُطالبهم بتـغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم.

فاستغرب ﷺ ما نسب لقومه مع ما يعلمـه من حبِّهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى سمَّوه الأميـن، وقال: «أو مخرجيَّ هم؟» قال: لم يأتِ رجل قط بمثل مـا جئت به إلا عُودى، وقـد نطق بذلك القرآن الـكريم، قال تعالـى فى سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (إبراهيم: ١٣) ولتمام تصديق وَرَقة برسالة الرسول الأكرم ﷺ قال: وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معضداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفى.

### فتـرة الوحـى:

وفتر الـوحى مدة لم يتفق علـيها المؤرخون، وأرجح أقـوالهم فيها أربعـون يوماً، ليشتـد شوق الرسول ﷺ للوحى، وقد كان، فـإن الحال اشتد به ﷺ، حتى صار كلما أتـى ذروة جبل بدا له أن يرمى نـفسه منها حـذراً من قطيعـة الله له بعد أن أراه نعمتـه الكبرى، وهى اختـياره لأن يكون واسطة بينه وبيـن خلقه، فيتـبدَّى له الملك قائلاً: أنت رسول الله حقـاً، فيطمئن خاطره، ويرجع عما عـزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحى.

### عـود الوحـى:(١)

فبينما هو يمشى إذ سمع صوتاً من الـسماء فرفع إليه بصره، فإذا الملك الذى جاءه بحراء جالس بين الـسماء والأرض، فرُعب منه لتذكُّر ما فـعله فى المرة الأولى فرجع

(١) انظر: مراتب الوحى فى «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٣٣-٣٤)، وانظر «فتح البارى» (١/ ٣٦).

وقال: دثرونى دثـرونى، فأنزل الله تعالـى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، حذِّر الناس من عـذاب الله إن لم يرجعوا عن غيـهم وما كان يعـبد آباؤهم؛ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ خُصَّه بالتعظيم، ولا تشرك معه فى ذلك غيره؛ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله، إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مـستقذراً نجساً؛ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أى اهجر أسباب الرجز وهو العـذاب - بأن تطيع الله وتنفذ أمره؛ ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تـستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت، فـهذا ليس من شأن الكرام؛ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله.

## الدعــوة ســـراً

فقام ﷺ بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جُـفاة لا دين لهم، إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجة لهم إلا أنهم متَّبعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة، وهو الذى كثيراً ما كان سبباً فى الغارات والحروب وإهراق الدمـاء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونـه، فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر، كى لا تسلب منه عظمته.

وكان أول مـن سطع عليـه نور الإسلام خـديجة بـنت خويلـد زوجه[١]، وعلي بن أبى طالب ابن عـمه وكان مقيمًا عـنده يطعمه ويسقيـه ويقوم بأمره، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعـة، وكان أبو طالب مقلاً كثير الأولاد، فقال ﷺ لعمه العباس بن عبد المطلب: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بـنا إليه لنخفف من عـياله، تأخذ واحداً وأنا واحـداً، فانطلقا وعرضـا عليه الأمر، فأخذ العباس جـعفر بن أبى طالب، وأخذ ﷺ علياً، فكان فى كفـالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز[٢] الاحتلام، فكان تابعاً لـلنبى فى كل أعماله، ولم يتدنس بدنس الجاهليـة من عبادة الأوثان واتباع الهوى[٣]، وأجاب أيضاً زيد بن حارثـة بن شرحبـيل الكلبـى مولاه ﷺ، وكان يـقال له زيد ابن مـحمـد، لأنه لما

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٤).

(٢) الصواب أن سنه كان ثمانى سنين. (م).

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٤٦)، و«عيون الأثر» ابن سيد الناس (١/ ١١٥).

اشتراه[١] أعتقه وتـبنَّاه، وكان المتبنى معـتبراً كابن حقيـقى يرث ويورث، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التى زوَّجها لمولاه زيد.

وأول من أجابه من غـير أهل بيته أبو بكر ابـن أبى قحافة ابن عامـر بن عمرو بن كعب بن سـعد بن تيم بن مـرة التيمى القـرشى، كان صديقـاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة، يـعلم ما اتصف به من مكـارم الأخلاق ولم يعهد عـليه كذباً منذ اصطـحبا، فأول مـا أخبره برسالـة الله أسرع بالتصـديق، وقال: بأبى أنت وأمى، أهـل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، كان ﷺ صـدراً معظماً فى قريش على سعة من المال وكـرم الأخلاق، وكان من أعف الناس، سخياً يبذل المـال، محبباً فى قومه، حسن المجالسـة، ولذلك كله كان من رسول الله ﷺ بمنزلة الوزير، فكان يستـشيره فى أمـوره كلها، وقال فى حـقه: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة[٢] غير أبى بكر**». [٣]

وكانـت الدعوة إلى الإسـلام سراً حذراً مـن مفاجـأة العرب بأمـر شديد كـهذا، فيصعب استسلامهم، فكان ﷺ لا يدعو إلا من يثق به.

ودعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش، فأجابه جمع:

**منهم**: عثـمان بن عفـان بن أبى العاص ابن أمـية بن عبـد شمس بن عبـد مناف الأموى القرشـى، ولما علم عمه الحكم بإسـلامه أوثقه كتافاً، وقـال: ترغب عن دين آبائك إلى دين مـستحدث؟! والله لا أحلُّـك حتى تدع ما أنت عـليه، فقال عـثمان: والله لا أدعه ولا أفارقه، فلما رأى الحكمُ صلابته فى الحق تركه، وكان كهلاً[٤] يناهز الثلاثين من عمره.

**ومنهم**: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزَّى بن قصى القرشى، وأمه صفية بنـت عبد المطلب، وكان عم الزبيـر يرسل الدخان عليه وهو مقـيَّد ليرجع إلى

---

(١) فى السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٧١، أن خديجة وهبته له، وفى رواية أنه ﷺ اشتراه لها فوهبته له. (م).

(٢) كبـوة: توقُّف وتردد. (م).

(٣) **حسن**: ذكره ابن كثير فى «تفسيره» (٤/ ٢٥٠)، و«البداية والنهاية» (١/ ١٠٨).

(٤) قال فى «الإصابـة»: ولد عثمان بعـد الفيل بست سنين، علـى الصحيح، فيكـون سنه حين بعث النبى ﷺ أربعاً وثلاثين سنة، فهو كهل، لأن الكهل من ينوف عمره عن الثلاثين. (م).

دين آبائه، فقوَّاه الله بالثبات، وكان شاباً[١] لا يتجاوز سن الاحتلام.

**ومنهم:** عبد الرحمن بن عوف ابن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى، وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو، فسماه ﷺ عبد الرحمن.

**ومنهم:** سعد بن أبى وقاص مالك بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى، ولما علمت أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بإسلامه، قالت له: يا سعد بلغنى أنك قد صبأت! فوالله لا يظلُّنى سقف من الحر والبرد، وإنَّ الطعام والشراب علىَّ حرام حتى تكفر بمحمد، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه أمر أمه، فنزل فى ذلك تعليماً قول الله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (العنكبوت:٨)، وصاه -جل ذكره- بوالديه وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين، أما إذا دعواه للإشراك فالمعصية متحتمة، لأن كل حق -وإن عظم- ساقط هنا، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ثم قال عز وجل: ﴿ **إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** ﴾ مَنْ آمن منكم ومَن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم.

وفى ختام هذه الآية فائدتان:

- التنبيه على أن الجزاء إلى الله، فلا تحدِّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما.
- والحض على الثبات فى الدين؛ لئلا ينال شرَّ جزاءٍ فى الأخرى.

**ومنهم:** طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى، وقد كان عَرَفَ من الرهبان ذكر الرسول وصفته، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ﷺ ما نفعه الله به، ورأى الدين متيناً بعيداً عما عليه العرب من المثالب بادر إلى الإسلام.

**وممن سبقوا إلى الإسلام:** صُهيب الرومى[٢]، وكان من الموالى، وعمار بن ياسر العنسى، وقد قال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان

(١) قال فى «الاستيعاب»: عن عروة قال: أسلم الزبير وهو ابن اثنتى عشرة سنة، ثم روى عن عروة قال: أسلم الزبير وهو ابن ست عشرة سنة. (م).

(٢) هو صهيب بن سنان بن النمر بن قاسط، قيل له: الرومى، لأن الروم سبَوهُ صغيراً، فصار ألكن، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة. (م).

وأبو بكر، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية.

**ومن السابقين الأولين** عبد الله بن مسعود، كان يَرْعَى الغنم لبعض مشركي قريش فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه ﷺ من مكارم الأخلاق ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله ﷺ ، وكان ﷺ كثير الدخول على الرسول لا يُحجب، ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويُلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه.

**ومن السابقين الأولين:** أبو ذر الغفاري[1]، وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث، ولما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه[2]: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قول الرسول، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله، حتى إذا أدركه الليل رآه عليٌّ فعرف أنه غريب، فأضافه عنده ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء -على قاعدة الضيافة عند العرب لا يُسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث- فلمَّا أصبح احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى فعاد إلى مضجعه، فمرَّ به عليٌّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أضيف به بالأمس؟ فأقامه فذهب معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك، ثم قال له عليٌّ: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلتُ، ففعل، فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مَدْخلي، ففعل، فانطلق يتبع أثره حتى دخل عليٌّ على النبي ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبيُّ ﷺ : «**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**»، قال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣٥٢٢، ٤٦٢٣)، ومسلم (٣٥٢١).

(٢) اسم أخي أبي ذر: أنيس. (م).

لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه وقال: ويلكم، أو لستم تعلمون أنه من غفار؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه! فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه (رواه البخاري)، كان ﷺ من أصدق الناس قولاً وأزهدهم في الدنيا.

**ومن السابقين:** سعيد بن زيد العدوى القرشى، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، زوج العباس بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله، وأبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد المخزومى القرشى، ابن عمة رسول الله ﷺ وزوجه أم سلمة، وعثمان بن مظعون الجمحى القرشى، وأخواه قدامة وعبد الله، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى القرشى.

**ومن السابقين الأولين:** خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموى القرشى، كان أبوه سيد قريش[1] إذا اعتمَّ لم يعتم قرشى إجلالاً له، وكان خالد بن سعيد قد رأى فى منامه أنه سيقع فى هاوية، فأدركه رسول الله ﷺ وخلَّصه منها، فجاء إليه وقال: إلام تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وألا تقتل ولدك خشية الفقر، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألا تقتل نفساً حرَّم الله قتلها إلا بالحق، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل فى قولك، ولو حكمت على ذوى قرباك، وأن توفى لمن عاهدت»، فأسلم ﷺ.

وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت، فانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه فى ضواحى مكة، وأسلم بعده أخوه عمرو ابن سعيد.

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى دين الإسلام، ولم يكن مع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يُرْغَب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه ﷺ، كأبى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم،

---

(١) ويقال له: أبو أحيحة. (م).

والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتِّباع الرسول، بحيث لو اتَّبعوا سادتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالاً وأنعم عيشة، اللَّهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم، حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله ﷺ من الهدى.

## الجهـر بالتبـليـغ

مضت كل هذه المدة والنبى ﷺ لا يُظهِر الدعوة فى مجامع قريش العمومية، ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش، فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلى مستخفياً، ولما دخل فى الدين ما يربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن أبى الأرقم -وهو ممن ذكرنا إسلامهم- ومكث ﷺ يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى، فى سورة الحجر: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الحجر: ٩٤) فبدل بالدعوة سراً الدعوة جهراً، ممتثلاً أمر ربه واثقاً بوعده ونصره، فصعد على الصفا فجعل ينادى: «**يا بنى فهر، يا بنى عدى ...**» لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر، فجاء أبو لهب ابن عبد المطلب وقريش، فقال ﷺ: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدِّقى؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: «**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا! فأنزل الله فى شأنه: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾ [1] والقصد من حمل الحطب المشىُ بالنميمة، لأنها كانت تقول على رسول الله ﷺ الأكاذيب فى نوادى النساء.

ثم نزل عليه فى سورة الشعراء: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو نوفل، وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف، ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ**﴾ أى العشيرة الأقربون ﴿**فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾؛ فجمعهم ﷺ وقال لهم: «**إنَّ الرائدَ لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غَرَرْتُ الناس جميعاً ما غَرَرْتُكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسولُ الله إليكم**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١/ ١٩٤).

**خاصة وإلى الناس كافةً، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبُنَّ بما تعملون، ولتجزونَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنارٌ أبداً».** (١)

فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبى لهب الذى كان خصماً لدوداً، فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، فإن سلمتموه إذاً ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنهُ ما بقينا، ثم انصرف الجمع.

ولما جهر رسول الله ﷺ بالدعوة سخرت منه قريش واستهزءوا به فى مجالسهم، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون: هذا ابن أبى كبشة يُكَلَّمُ من السماء! وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء، لا يزيدون على ذلك، فلما عاب آلهتهم وسفَّه عقولهم وقال لهم: والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم. ثارت فى رءوسهم حمية الجاهلية غيرَةً على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبى طالب، سيد بنى هاشم، الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه، أو يكفه عما يقول، فردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله لما يريده لا يصدُّه عن مراده شيء، فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ ، وحثَّ بعضهم بعضاً على ذلك.

ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى، وقالوا له: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منا، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا، فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلقت له، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقال فى سورة المائدة: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ (المائدة: ١٠٤)، وقال فى سورة لقمان: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ (لقمان: ٢١)، وقال فى سورة الزخرف فى بيان حجتهم الداحضة: ﴿ **قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ (الزخرف: ٢٣).

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٣).

ولما شبَّههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢٤)، فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية، فهاج ذلك أضغانهم، وقالوا لأبى طالب: إمَّا أن تكفَّه أو ننازلَه وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا، فعَظُم على أبى طالب فراق قومه، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له: يا بن أخى إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا، فأبقِ على نفسك ولا تحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول ﷺ أن عمه خاذله، فقال: **«والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه»**، ثم بكى وولَّى، فقال أبو طالب: أقبلْ يا بن أخى، فأقبل عليه فقال: اذهب فقل ما أحببت، والله لا أسلمك.[1]

## الإيــــذاء

ورأى رسول الله ﷺ من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله ﷺ جماعة سُمُّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين:

**فأولهم وأشدهم:** أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى، قال يوماً: يا معشر قريش، إن محمداً قد أتى ما ترون من عيْب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم، إنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته رضختُ به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا ﷺ كما كان يغدو إلى صلاته، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد ﷺ احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه من الفزع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجال من قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم، فلما دنوت منه عرض لى فحلٌ من

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٣).

الإبل، والله ما رأيت مثله قط، همَّ بى أن يأكلنى! فلما ذُكر ذلك لرسول الله قال: «**ذاك جبريل، ولو دنا لأخذه**». (١)

وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسول ﷺ عن صلاته فى البيت، فقال له مرة بعد أن رآه يصلى: ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ القول وهدَّده، فقال: أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى نادياً، فأنزل الله تهديداً له فى آخر سورة العلق: ﴿**كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾. (٢)

ومن أذيته للرسول ﷺ ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى المسجد وهو يصلى، فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فَرْث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبى معيط ابن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس، وجاء بذلك الفرْث فألقاه على النبى ﷺ وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوِّهم، ولم يزل ﷺ ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته، فلما قام دعا على مَن صنع هذا الصنع القبيح فقال: «**اللَّهم عليك بالملأ من قريش**»، وسمَّى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتلوا يوم بدر. (٣)

ومما حصل لرسول الله ﷺ مع أبى جهل أن هذا ابتاع أجمالاً من رجل يقال له: الإراشى، فمطله بأثمانها، فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله، فدلوه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبى جهل، استهزاءً لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقى بالرسول، فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبى جهل، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال: «محمد»، فخرج منتقعاً لونه، فقال له الرسول ﷺ: «**أعط هذا حقه**»، فقال أبو جهل: لا تبرح حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه، فقالت قريش: ويلك يا أبا الحكم، ما رأينا مثل ما صنعت؟ قال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علىَّ بابى حتى سمعت صوتًا مُلئت منه

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٩٧).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذى (٣٣٤٩)، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذي».

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٢٤٠)، ومسلم.

رعباً، وإنَّ فوق رأسى فحلاً من الإبل ما رأيت مثله.

**ومن جماعة المستهزئين:** أبو لهب ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كان أشد عليه من الأباعد، فكان يرمى القذر على بابه، لأنه كان جاراً له، فكان الرسول ﷺ يطرحه ويقول: «**يا بنى عبد مناف أىُّ جوار هذا!!!**» وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية، فكانت كثيراً ما تسب رسول الله ﷺ وتتكلم فيه بالنمائم، وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة أبى لهب.

**ومن المستهزئين:** عقبة بن أبى مُعيط، كان الجار الثانى لرسول الله، وكان يعمل معه كأبى لهب، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش، وفيهم رسول الله، فقال ﷺ: والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله، فتشهَّد، فبلغ ذلك أبيَّ بن خلف الجمحى القرشى وكان صديقاً له، فقال: ما شىء بلغنى عنك؟ قال: لا شىء، دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له، قال أبيٌّ: وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق فى وجهه وتلطم عينه، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك، فأنزل الله فيه فى سورة الفرقان: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً**﴾ (الفرقان: ٢٧-٢٩).

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ﷺ ما رواه البخارى فى «صحيحه»[1] قال: بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى مُعيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ، وقال: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ (غافر: ٢٨).

**ومن جماعة المستهزئين:** العاص بن وائل السهمى القرشى، والد عمرو بن العاص، كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ، وكان يقول: غرَّ محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله رداً عليه فى دعواه فى سورة الجاثية:

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٤٨١٥).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤)، وكان عليه دينٌ لخبَّاب بن الأرت، أحد رجال المسلمين، فتقاضاه إياه، فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أنَّ فى الجنة ما يبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خباب: بلى! قال: فأنظرنى إلى هذا اليوم فسأوتى مالاً وولداً وأقضيك دينك، فأنزل الله فيه فى سورة مريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (مريم: ٧٧-٨٠).

**ومن جماعة المستهزئين:** الأسودُ بن عبد يغوث الزهرى القرشى، من بنى زهرة أخوال رسول الله ﷺ، كان إذا رأى أصحاب النبى مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض، استهزاءً بهم، لأنهم كانوا متقشفين: ثيابهم رثة، وعيشهم خشن، وكان يقول لرسول الله سخرية: أما كلمتَ اليوم من السماء؟

**ومنهم:** الأسود بن عبد المطلب الأسدى، ابنُ عم خديجة، كان هو وشيعته إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون، وفيهم نزل فى سورة المطفِّفين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٢).

**ومنهم:** الوليد بن المغيرة، عم أبى جهل، كان من عظماء قريش وفى سعة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ، فقال لقومه بنى مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، لتصبأنَّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فتوجه وقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال: تزعمون أنَّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه يهوس؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهَّن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذَّاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا فى كل ذلك: اللَّهم لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكَّر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فارتجَّ النادى فرحاً.

فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً لرسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (المدثر: ١١-٢٦).

وأنزل فيه أيضاً في سورة القلم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف، وكفى بهذا زجراً لمن اعتاد الحلف، ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير، وأراد به الكذاب لأنه حقير في نفسه ﴿هَمَّازٍ﴾ عَيَّاب طعَّان ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ينقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ دخيل ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم: ١٠-١٦)، كناية عن الإذلال والتحقير، لأن الوجه أكرم عضو، والأنف أشرف ما فيه، ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة كالأنفة وهي الحمية، فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

**ومن المستهزئين:** النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن قصيّ، كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب مَنْ قبلهم، قال النضر: هلموا يا معشر قريش، فإني أحسن منه حديثاً، ثم يحدِّث عن ملوك فارس، وكان يعلم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين، وفيه نزل في سورة لقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (لقمان: ٦، ٧).

وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى في التنزيل في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٩٥، ٩٦)، وقد وضع الله -جل ذكره- الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه، لأن الآية مكية، وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة، فمنهم من قُتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة.

## إسلام حمزة

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لإسلام عمِّه حمزة بن عبد المطلب، فقد أدركته الحمية عندما عيَّرته بعض الجوارى بإيذاء أبى جهل لابن أخيه، فتوجه إلى ذلك الشقى وغاضبه وسبَّه، وقال: كيف تسب محمداً وأنا على دينه؟! ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً، وأشدِّهم غيرةً على المسلمين، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين، حتى سُمِّى أسد الله.

وكما أوذى الرسول ﷺ أوذى أصحابه لاتباعهم له، خصوصاً مَنْ ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلواً فى أعينهم ما دام فيه رضا الله، فلم يُفتنوا عن دينهم، بل ثبّتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال -جل ذكره- فى صورة القصص: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ (القصص: ٥)، وقد حقق ما أراد.

ومن الذين أوذوا فى الله بلال بن رباح، كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحى القرشي، فكان يجعل فى عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول: أحدٌ أحدٌ، لم يشغلهُ ما هو فيه عن توحيد الله، وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء، وهى الرمل الشديد الحرارة، لو وضعت عليه قطعة لحم لنَضجتْ -ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحدٌ أحدٌ.

مرَّ به أبو بكر يوماً فقال: يا أميةُ، أما تتقى الله فى هذا المسكين! حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته، فأنقذه مما ترى، فاشتراه منه وأعتقه.

فأنزل الله فيه وفى أمية فى سورة الليل: ﴿ **فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى** ﴾ ﴿ **الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى** ﴾ الصدِّيق ﴿ **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ (الليل: ١٤-٢١)، بما يعطيه الله فى الأخرى جزاء أعماله.[١]

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٤).

وقد نبه الله -جل ذكره- على أن بذل الصدِّيق مـاله فى شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه، وكـفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق ﷺ وأرضـاه، وقد أعتق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليهم.

**منهم:** حَمَامَةُ أم بلال، وعـامر بن فُهيرة، كان يعذَّب حـتى لا يدرى ما يقول، وأبو فُكَيْهة، كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف.

**ومنهم:** امرأة تسـمى زنيرَةُ عُذِّبت فى الله حـتى عميت، فـلم يزدها ذلك إلا إيماناً، وكان أبو جـهل يقول: ألا تعجبـون لهؤلاء وأتباعهم، لو كـان ما أتى به محـمد خيراً مـا سبقونـا إليه، أفتـسبقنا زنيـرةُ إلى رُشْد، فأنـزل الله فى سورة الأحقاف: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾ (الأحقاف: ١١).

وممن أعتـق أبو بكر بعـد شرائه أم عنيس، كـانت أمةً لبنـى زهرة، وكان يعـذِّبها الأسود بن عبد يغوث.

وممن عُذب فى الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه، وكانوا يعذبون بالنار، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: «**صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت**».

أما أبو عمار وأمه فـماتا تحت العذاب، رحمهما الله، وأما هو فـثقل عليه العذاب فقال بـلسانه كلمـة الكفر، فإن أبا جـهل كان يجعـل له دروعاً من الحديد فـى اليوم الصائف ويلبسه إياها، فقال المـسلمون: كفر عمار، فقال ﷺ: «**عمارٌ ملئ إيماناً من فرقه إلى قدمه**»[1]، وأنزل الله فى شأنه استثناء فى حكم المرتد، فقال -جل ذكره- فى سورة النحل: ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (النحل: ١٠٦).

**وممن أوذي في الله:** خبَّاب بـن الأرتِّ، سبى فى الجاهلـية فاشتـرته أم أنمار، وكان حداداً، وكان النبى يألفه قبل النبوة، فلمـا شرَّفه الله بها أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار، فـتأتى بالحديدة المحماة فتـجعلها على ظهره ليكـفر، فلا يزيده ذلك إلا إيماناً، وجاء خبابٌ مرة إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بُردَهُ فى ظل الكعبة، فقال:

---

(١) **صحيح**: رواه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٣٩)، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع»، و«السلسلة الصحيحة» (٨٠٧).

يا رسول اللـه، ألا تدعو الله لنا؟ فقـعد ﷺ محـمراً وجهه، فـقال: «**إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه**».[1]

قال ذلك ﷺ وهو فى هذه الحال الشديدة التى لا يتصور فـيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظـرة أو سعادة مستقبلة، اللهم إلا أن ذلـك وحي يُوحَى إليه، ثم أنزل الله تعالى تثـبيتاً للمؤمنين أول سـورة العنكبوت: ﴿**الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ (العنكبوت: ١-٣).

**وممن أوذي في الله:** أبو بكر الصديق، ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة فـخرج حتى أتى برك الغماد[2] فلقيه ابن الدغُنَّة، وهو سيد قبيلة عظيمـة اسمها القارةُ، فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقـال: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الـدُّغنة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المـعدوم وتصل الرحم، وتحـمل الكلَّ، وتقـرى الضيف، وتعين عـلى نوائب الحق، فأنا لك جارٌ فارجع واعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل ابـن الدغنة معه، وطاف فى أشـراف قريش فقال لـهم: أبو بكر لا يخرج مثله، أتخرجون رجلاً يكسـب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلَّ، ويقرى الضيف، ويعين علـى نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابـن الدغنة، وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه فى داره، فليصلِّ فيها ما شاء وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعـلن، فإنا نخشى أن يفتن نسـاءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الـدغنة لأبى بكر، فلبث بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره.

ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكـان يصلى فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نـساء المشركين وأبناؤهـم وهم يعجبون مـنه وينظرون إليه، وكـان رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قـرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلـى ابن الدغنة فقدم

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٣٨٥٢).

(٢) برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلى البحر. (م).

عليهم فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرَكَ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان.

فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذى عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تُرجع إليَّ ذمتي، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أُخفرت فى رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله،[1] وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبى بكر رضي الله عنه.

**وبالجملة:** فلم يخلُ أحد من المسلمين من أذية لحقته، ولكنَّ كلَّ ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم، فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون حصوله، فيسهل إرجاعهم، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان، فرأوا كل شيء دونه سهلاً.

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يُجْدِهم نفعاً، بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي، من بنى عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيداً مطاعاً فى قومه: يا معشر قريش، ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً علَّه يقبل بعضها فنعطيه إياها، ويكف عنا؟ فقالوا: يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو يصلى فى المسجد، وقال: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال ﷺ : «**قل يا أبا الوليد أسمع**».

فقال: يا بن أخي، إن كنت تريدُ بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا؛ حتى نبرئك منه، فإنه

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٢٢٩٧، ٢٣٩٨، ٢٣٩٩، ٤٧٨١، ٥٣٧١، ٦٧٣١).

ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى، فقال ﷺ : «**لقد فرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت:

**بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾** (فصلت: ١-١٤).

فأمسك عتبةُ بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه، فقال: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها بي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ، فإن تُصبهُ العرب فقد كفُيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزُّه عزُّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيي.(١)

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركوه فى عبادته، فأنزل الله فى ذلك: **﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾** (الكافرون) فلا

---

(١) **حسن** : رواه البيهقى فى «الدلائل» (١/ ٧٥)، وأبو يعلى فى «مسنده» (٣/ ٣٤٩-٣٥١)، وفى إسناده ذيال ابن حرمة، روى عن جمع ولم يجرحه أحد فيما أعلم، ووثقه ابن حبان والهيثمى فى «المجمع» (٦/ ٢).

توهموا أنى أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله، فأيسوا منه، وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد فيأتى بقرآن غيره أو يبدله، فأنزل الله جواباً لهم فى سورة يونس: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾ (يونس: ١٥).

وقد حصل له مع كفار قريش نادرةٌ تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به، وهو أنه بينما الرسول ﷺ مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين، إذ أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى، وهو ممن أسلموا قديماً، والنبيُّ مشتغل بالقوم، ولقد لقى منهم مؤانسة حتى طمع فى إسلامهم، فقال له عبد الله: يا رسول الله علمنى مما علمك الله، وأكثر عليه القول، فشقَّ ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه، وخاف ﷺ أن يكون التفاته لذلك المسكين يُنَفِّرُ عنه قلب أولئك الأشراف فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة عبس: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾ (عبس: ١-١٠)، فما عبس رسول الله ﷺ بعدها فى وجه فقير، وكان إذا أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم يقول له: «**مرحباً بمن عاتبنى فيه ربي**».(١)

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تُقبل منهم أرادوا أن يدخلوا فى باب آخر، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا: يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آيةً نطلبها منك، وهى أن تشق لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمرُ فرقتين، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**».(٢)

وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود، وهو من السابقين الأولين، رُويت عنه من طرق كثيرة، ورواها عبد الله بن عباس وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذى (٣٣٣١)، وابن حبان (١٧٦٩)، والحاكم (٢/ ٥١٤)، وصححه ووافقه الذهبى، وقال الألبانى فى «صحيح الترمذى»: صحيح الإسناد.

(٢) **صحيح**: انظر البخارى (٤٧٦٧)، ومسلم (٢٩٥٠).

الحديث كالمتواتر، وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى فى أول سورة القمر: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ، فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبى كبشة، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر: ١، ٢).

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد، فمنها أن قالوا كما فى سورة الإسراء: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣).

ولم يجبهم الله إلا بقوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٣)، لأن الله علم ما تكنّه جوانحهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال -جلّ ذكره- فى سورة الأنعام: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٩)، وكيف يُرجى الخير ممن قالوا كما فى سورة الأنفال: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢)، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، وهذه سنة من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً، وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كى لا يحل بقومهم الهلاك، كما حصل لعاد وثمود وغيرهم، وهذا هو المراد من قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الإسراء: ٥٩).

وقد حصل للمسيح -عليه السلام- أنه لما وقف أمام هيرودس طلب منه آية فلم يجبه إلى طلبه، فلما رأى ذلك سخر منه وردّه إلى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه، وذلك مذكور فى الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا.

هذا ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحولوا إلى سياسة القوة التى اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ كما فى سورة الأنبياء (٦٨).

أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدِّهم عن اتباع الرسول ﷺ ولم يتركوا باباً إلا ولجوه، فقال ﷺ لأصحابه: تفرقوا فى الأرض، فإن الله سيجمعكم، فسألوه عن الوجه، فأشار إلى الحبشة.[١]

## هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار ﷺ، وهذه هى أول هجرة من مكة، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة، وهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبى رهم وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهل بن بيضاء، والزبير بن العوام، وجلهم من قريش، وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون، فساروا على بركة الله، ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يَلْحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبى ﷺ إلا القليل.[٢]

**إسلام عمر:**

وفى ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوى القرشى بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم.

وقالت ليلى إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا، فلما ركبتُ بعيرى أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به فقال لي: إلى أين يا أم عبد الله؟ فقلت: قد آذيتمونا فى ديننا؟ نذهب فى أرض الله حيثُ لا نؤذى، فقال: صحبكم الله، فلما جاء زوجى عامر أخبرته بما رأيت من رقَّة عمر فقال: ترجين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب؟ وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى ﷺ، فإنه قال قُبيل إسلامه: **«اللهم أعزَّ الإسلام بعمر»**.[٣]

---

(١) انظر المغازى النبوية، تحقيق سهيل زكار ص (٩٦)، والبداية والنهاية (٣/٦٦).
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٤١٣)، و«تاريخ الأمم والملوك» للطبرى (٢/٣٢٨).
(٣) **صحيح**: رواه الترمذى (٣٦٨١)، وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٦٠٣٦).

وكان إسلامه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها، وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه ﷺ، فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري: «ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمـر» فإنه طلب من رسول الله ﷺ أن يعلن صلاته فى المسجد ففعل، وقد أدرك الكفـار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلـم، وكانوا قد أرادوا قتله، حتى اجتمع جـمع حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل الـسَّهمي، وهو من بنى سهم، حلفاء بنى عدى قـوم عمر، وعليه حلة حبرة وقميص مكـفوف بحرير، فقال لعمر: ما بالك؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلوننى إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك فأنا لك جار، فأمنَ عمرُ، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادى فقال: أين تريدون؟ قـالوا: نريد هذا -ابن الخطـاب- الذى صبأ، قال: لا سـبيل إليـه، فرجع الناس من حيث أتوا.[١]

## رجـوع مهاجـرى الحبشـة:

وبعد ثلاثة أشهر من خـروج مهاجرى الحبشة رجعوا إلى مكة حـيث لا تتيسر لهم الإقامة فيهـا لأنهم قليلو العدد -وفى الكثرة بـعض الأنس-، وأضف إلى ذلك أنهم أشرافُ قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش فى دار غربة بهذه الحالة.

وقد أولع بعض المؤرخين بحكايـة يجعلونها سبباً فى رجوع مهـاجرى الحبشة وهى أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول ﷺ سورة النجم، وتكلم فيها كلاماً حسناً عـن آلهتهم، حيث قـال بعد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ (النجم:١٩، ٢٠)، تلك الـغرانيق -جـمع غرنـوق، وهى الطيـور، ويراد بها المـلائكة- العلَى، وإن شفاعتهن لترتجي، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً.

وهذا مما لا تجـوز روايته إلا من قليـلى الإدراك الذين ينقـلون كل ما وجدوه غـير متثبتين من صحته، وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر:

أما الحديث فسنده ومـتنه قلقان، فالسند قال فيه القاضى عـياض فى «الشفاء»: لم يخرجـه أحد من أهل الصحـة ولا رواه ثقة بسند سـليم، وأما المتن فليـس أصحاب رسول الله ﷺ ولا المشركـون مجانـين حتى يسـمعوا مـدحاً أثناء ذم، ويجـوز ذلك

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٣٨٦٤، ٣٨٦٥).

عليهم، فبعد ذكر الأصنام قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ (النجم:٢٣) فالكلام غيـر منتظم، ولو كان ذلك قد حصل لاتَّـخذه الكفار عليه حجة يحاجْونه بها وقت الخصام، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة، فكيف بهـذه؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الـكعبة، وهذا قالوا فيه ما قالوا: حتى سمَّاهم الله سفهاء، وأنزل فيهم فى سورة البقرة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (البقرة:١٤٢)، ولكن لم يسمع عن أى واحد من رجالاتهم والمتصدِّريـن للعناد منهم أن قال: ما لك ذممت آلهتنا بعـد أن مدحتها؟ وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مُهج الرجال!!

على أن المؤرخين الـذى ينقلون هذه العبـارة، ويجعلونها سـبباً لرجوع مـهاجرى الحبشة يقولون أثناء كلامهم: إن الـهجرة كانت فى رجب، والرجوع كان فى شوال، ونزول سورة النجم كان فـى رمضان، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهـاجرين شهر واحد، والمتأمل أدنى تـأمل يرى أن الشهر كان لا يكفى فى ذلـك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشـة والإياب منها، لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسـهل السير فى البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة، فلا غرابة بعد ذلك إن قلنا إن هذه الخرافـة من موضوعات أهل الأهـواء الذين ابتلى الله بهم هـذا الدين، ولكن الحمد لله فقد منَّ علينـا بحفظ كتابنا المجيد الذى يحكم بينـنا وبين كل مُفترٍ كذاب، ففى السورة نفسها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النجم:٣)، والذى يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى، فكيف يقول ﷺ ، أو يجرى على لسانه مما يـبث الشكوك فى الوحي؟ الأمر الذى يريده السفهاء ردَّ الله كيدهم فى نحرهم.

والذى ورد فى «الصحيح»[1] فى موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قرأ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجـد، وسجد من كان مـعه إلا رجلاً أخذ كـفًا من حصى وضعه على جبـهته وقال: يكفينى هذا، فرأيته قُتـل بعدُ كافراً، وليس فى هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذيـن سجدوا معه هم مشركون، بل الـذى يفيده قوله: فرأيته قتل بعدُ كافراً أنه كان مسلـماً ثم رأيته ارتد، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا، منهم عليّ بن أمية بن خلف.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٠٦٧، ١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٤٨٦٣)، ومسلم (٥٧٥).

هذا، ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لـم يتمكن من الدخول إليها إلا من وجد له مجيراً، فدخل أبو سلمة فى جوار خـاله أبى طالب، ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة، وقد رد عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم ير أن يكون مرتاحاً وإخوانه يعذبون.

**كتابة الصحيفة:**

ولما ضاقت الحيلُ بكفار قريش عرضوا عـلى بنى عبد مناف الذين منهم الرسول ﷺ دية مضاعفة ويسلمونه، فأبوا عليهم ذلك، ثم عرضوا على أبى طالب أن يعطوه سيداً من شبَّانهم يتبناه ويُسْلِم إليهم ابن أخيه، فقال: عجباً لكم! تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابـنى تقتلونه؟ فلـما رأوا ذلك أجمعـوا أمرهم على منابـذة بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد منـاف، وإخراجهم من مكة، والتضييق عليهم فـلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منـهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلـك صحيفة ووضعوها فى جوف الكعبة.

فانحاز بنو هاشـم -بسبب ذلك- فى شعب أبى طالب، ودخل معـهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب، فإنه كان مع قريش، وانخزل عنهم بنو عَمِّهم: عبد شمس ونوفل ابنى عبـد مناف، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم، وفى مقدمة المانعين أبو لهب.(١)

**هجرة الحبشة الثانية:**

وبعد دخول الرسول ﷺ وقومه الشعبَ أمـر جميع المسلمين أن يهاجروا لـلحبشة حتى يـساعد بعضـهم بعضاً عـلى الاغتراب، فـهاجر معظـمهم، وكانوا نحـو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمـانى عشرة امرأة، وكان من الرجال: جعـفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عُميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود، وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبـيبة بنت أبى سـفيان، وتوجَّه لهم الـذين أسلموا من جهـة اليمن وهم الأشعريون: أبو موسى وبنو عمه، ولـما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن

(١) تفاصيل القـصة وأحداثها انظر «دلائل النبوة» لـلبيهقى (٢/ ٨٠-٨٥)، و«السيرة النـبوية» لابن هشام (٢/ ٤٣-٧٢)، و«زاد المعاد» (٢/ ٤٦)، و«الكامـل فى التاريخ» (٢/ ٨٧)، و«السيـر والمغازى» لابن إسحاق ص (١٥٦-١٦٢).

العاص وعمارةَ بن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليُسْلِّم المسلمين، فرجعا شرَّ رجعة، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قومٍ لاذوا به.(١)

أما بنو هاشم فمكثوا في الشِّعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء، لا يصلهم شيء من الطعام إلا خُفية.

**نقض الصحيفة:**

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث العامري، وهو أعظمهم في ذلك بلاءً، وزهير ابن أبي أمية المخزومي، ابن عمة الرسول عاتكة، والمُطعم بن عدى النوفلي، وأبو البختري ابن هشام الأسدي، وزمعة بن الأسود الأسدي، واتفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلَّة فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هَلْكَى لا يبيعون ولا يبتاعون! والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة.

فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، وصدَّق على ما قيل هشام بن عمرو، فقام إليها المطعم بن عدى فشقَّها، وكانت الأرضةُ قد أكلتها فلم يبقَ فيها إلا ما فيه اسم الله، وقد أخبر النبي ﷺ عمه أبا طالب بذلك قبل أن يُفعل ما ذكر، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة.(٢)

**وفود نجران:**

وقد وفد على الرسول ﷺ بعد الخروج من الشِّعب وفدٌ من نصارى نجران بلغهم خبرُهُ من مهاجرى الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها في كتبهم، وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تَعْلَمون خبر هذا

---

(١) انظر «صحيح البخارى» (٣٨٧٦)، و«الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٠٧).

(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٤٣-٥٠) (٦٧-٦٩).

الرجل فصبأتم! فقالوا: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه، ولنا ما اخترناه، فأنزل الله في ذلك في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٢-٥٥)، وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة، وبالكذب أخرى، وبالجنون طوراً، وبالكهانة تارة، كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لا يستحى لمزيد عناده أن يقول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢).

**وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها:**

وبعد خروجه ﷺ من الشِّعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها، كان ﷺ كثيراً ما يذكرها ويترحَّم عليها، ولا غرابة فهى أول نفس زكية صدقت رسول الله ﷺ فيما جاء به عن ربه، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم، فمنها زينب، وهى أكبر بناته، تزوجها فى الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التى تزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة، ومنها رقية وأم كلثوم، تزوجهما عثمان، الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها إلى الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها، ومنها فاطمة، وهى أصغر بناته، تزوجها علىّ بن أبى طالب، وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً، ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة، عاشت بعده قليلاً، ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله ﷺ حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقَّة لرسول الله ﷺ، ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى أسد، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ، وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر.(١)

**زواج سودة رضي الله عنها:**

وعقد ﷺ فى الشهر الذى ماتت فيه خديجة على سودَةَ بنت زمعَةَ العامرية القرشية، بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها السَّكران بن عمرو، وقد كانت

(١) انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للعمرى (١/ ١٨٤).

آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبنى عمها، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فى المرة الثانية خوفَ الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفى عنهـا، فلم يكن ثَمَّ أجمل مما صنعـه الرسول ﷺ بزوج رجل آمن بـه، ولو تُركت لقومـها مع ما هم علـيه من الغلظة وكراهة الإسلام لفـتنوها، وكرمُ نسبها فى قومها يمنعـها من التزوج برجل أقلَّ منها نسباً وشرفاً.

**زواج عائشـة رضي الله عنها:**

وبعد ذلك بشهر عـقد على عائشة بنت صدّيقه أبى بكر، وهى لا تـتجاوز السابعة من عمرهـا، ولم يتزوج ﷺ بكراً غيـرها، ودخل عليهـا بالمدينة، أما سـودة فدخل عليها بمكة.

وبعـد وفاة خديجـة بنحو شـهر توفى عـمه أبو طالـب الذى كان يمنعـه من أذى أعدائه، ومع أنه كان لا يكذب رسول الله ﷺ فيما جاء به، بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته، وفيه نزل فى سورة القصص: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (القصص:٥٦)، ولكن لأعماله العظيمة التى عملها مع رسول الله ﷺ نرجو أن يُخفف عنه.

وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول ﷺ فيه من الحكمة ما لا يخفى، فإنهم لو بادروا باتباعه لقيل: قوم يطلبون سيادةً وفخراً ليس لهم فجاءوا بهذا الأمر المفترى، ولكن لما رأى المعانـدون أن متبعيه هم الغـرباء عنه الذين ليسوا من عشـيرته، بل من أعدائه أحياناً، كعثمان بن عفان من بنى أمـية، لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها، اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التى كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم: ساحر يُفرق بين المرء وزوجه، وكاهن يتكهن بالغيب.

وقد سَمَّى رسول الله ﷺ هذا العام الذى فقد فيه زوجه وعمه: عام الحزن.[١]

ولما مات أبو طالب نالـت قريش من رسول الله ﷺ ما لم يمكنها نـيله فى حياة أبى طالـب، واشتد الأمـر عليه حـتى كانوا يـنثرون التـراب على رأسه وهو سـائر، ويضعـون أوساخ الشـاة عليه فى صـلاته، وتعلقت بـه كفار قريـش مرة يتجـاذبونه

(١) الصحيح أن النبى ﷺ لم يُسمِّ هذه التسمية، وإنما هى من تسمية المؤرخين، والنبى ﷺ ما كان ليسمِّى هذه التسمية؛ لأن هو الذى نهى عن تجديد الأحزان، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن.

ويقولون له: أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف، إلا أبو بكر فإنه تقدم، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟!

**هجرة الطائف:**

فلما رأى ﷺ استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف[١]، يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتمم أمر ربه، لأنهم أقرب الناس إلى مكة، وله فيهم خؤولة، فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بنى سليم ابن منصور، وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثةً: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفي، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدى دعوته، فردوا عليه رداً قبيحاً، ولم ير منهم خيراً، وحينذاك طلب منهم ألا يشيعوا ذلك عنه كي لا تَعْلَم قريش فيشتد أذاهم؛ لأنه استعان عليهم بأعدائهم[٢]، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم ﷺ ، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرم واستظل بها، وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، وهما من أعدائه، وكانا فى البستان فكَرِه رسول الله ﷺ مكانهما فدعا الله قائلاً:

**«اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتي، وقلَّةَ حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكتَهُ أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالى ...».**

فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا إليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصرانى اسمه عدَّاس، فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال: **«بسم الله الرحمن الرحيم»** فقال عدَّاسُ: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له ﷺ : **«من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟»** فقال: نصرانى من نينوى[٣]، فقال له ﷺ : **«من قرية الرجل الصالح يونس**

(١) بلد فى الجنوب الشرقى من مكة. (م).

(٢) لم تكن عداوة بين ثقيف وقريش. (م).

(٣) بلد على شاطئ دجلة، وهى آخر ما ينتهى إليه العراق وأمامها مدينة الموصل. (م).

ابن متي؟» قال: وما علمك بيونس؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس، فلما سمع ذلك عداس أسلم.(١)

وأتى جبريل برسالة من الله -جل ذكره- وقال: إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك، فقال ﷺ: **«اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»**(٢) فقال جبريل: صدق من سماك الرءوف الرحيم!!

ولما كان بنخلة وفد عليه نفرٌ من الجن يستمعون القرآن، وهم ممن يتتمون إلى موسى صلوات الله عليه، فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله ﷺ وفيهم نزل في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣٢)، وقد قصَّ الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١، ٢).(٣)

### الاحتماء بالمطعم بن عدى:

ولما رجع ﷺ من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة، لما علمه كفار قريش من أنه توجَّه إلى الطائف يستنصر بأهليها عليهم، فأرسل ﷺ إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره، فأجاب إلى ذلك وتسلحَ هو وبنوه وتوجَّهوا مع رسول الله ﷺ إلى المطاف، فقال له بعض المشركين: أمجيرٌ أنت أم تابع؟ فقال: بل مُجير، قالوا: إذن لا تخفَرُ ذمَّتُكَ.(٤)

(١) «صحيح السيرة النبوية» ص (١٣٦-١٣٧).
(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٣٢٣١، ٧٣٨٩)، ومسلم (١٧٩٥).
(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩)، والنسائى (١٦٢٤)، وأحمد (٢٢٧١).
(٤) انظر «زاد المعاد» (٢/٤٧).

**وفـد دوس:**

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة: الطُّفيل بن عمرو الدَّوسي، من قبيلة دوس، عشيرة أبي هريرة رضي الله عنه الصحابي الشهير، وكان الطفيل شريفاً في قومه شاعراً نبيلاً، فلما قرأ عليه القرآن أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «**اذهب إلى قومك فادعهم إلى الإسلام**»، ودعا لهم رسول الله ﷺ فقال: «**اللَّهم اهد دوساً**»[1]، فتوجه إليهم الطفيل ودعاهم، فآمن بدعوته ﷺ كثير منهم، وستأتي وفادتُهُ على الرسول ﷺ مرة ثانية بقومه في المدينة.

## الإسـراء والمعـراج [2]

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، أما الإسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته، وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي، وقد قال جمهور أهل السنة: إن ذلك كان بجسمه الشريف، وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ﷺ ربه، وتقول: من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله.

والإسراء مذكورٌ في القرآن الكريم، قال تعالى في أول سورة الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (الإسراء: ١).

وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنة، وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان، ونقله القاضي عياض في «شفائه» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت بالبراق، وهو دابة فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة، ثم عُرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٩٣٧، ٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٨٨٦، ٣٨٨٧، ٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

ثم عُرج بنا إلــى السماء الثانيــة فاستفتح جبــريل فقيل: من أنت؟ قــال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: مــحمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعــث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابنيّ الخالة: يحيى وعيسى ابن مريم، فرحَّبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة فــذكر مثل الأول، ففتح لنا، وإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عُرج بنا إلى الســماء الرابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بــإدريس فرحَّب بى ودعا لى بخير، قال تعالى فى سورة مريم: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧).

ثم عُرج بنا إلــى السماء الخامسة فــذكر مثله، فإذا أنا بهــارون فرحَّب بى ودعا لى بخير.

ثم عُرج بنا إلــى السماء السادسة، فــذكر مثله، فإذا أنا بمــوسى فرحَّب بى ودعا لى بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذُهب بى إلى سدرة المنتــهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثــمرها كالقلال[١]، فلما غشيها من أمــر ربى ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يــستطيع أن ينعتها من حسنهــا، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففــرض عليَّ وعلى أمتى خمــسين صلاة فى كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك عــلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فسَلْه التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل قبلك وخبــرتهم، قال: فرجعت إلى ربــى وقلت له يا ربى: خففــ عن أمــتى فحط عنى خمساً فرجعت إلى موسى فقلــت: حطَّ عنى خمساً، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجــع إلى ربك فسَلْــه التخفــيف؟ قال: فلــم أزل أرجع بين ربى تعــالى وبين موسى، حتى قال ســبحانه: يا محمد إنهن خمس صلــوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فتلك خمــسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كــتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعــملها كتبت له عشراً، ومن همَّ بســيئة فلم يعملها لم تكــتب له شيئاً،

(١) القلال: جمع قلة: وعاء. (م).

ومن همَّ بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فسَلْه التخفيف، فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه».

ثم رجع ﷺ من ليلته، فلما أصبح غدا إلى نادى قريش، فجاء إليه أبو جهل ابن هشام فحدَّثه رسول الله ﷺ بما جرى له، فقال أبو جهل: يا بنى كعب بن لؤى هلمُّوا، فأقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول ﷺ الخبر، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناسٌ ممن كان آمن به من ضعاف القلوب، وسعى رجال إلى أبى بكر فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟! قال: إنى لأصدقه على أبعد من ذلك؛ فسمى من ذلك اليوم صدِّيقاً.

ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله ﷺ ، فسألوه نعتَ بيت المقدس وفيهم رجال رأوه، أما رسول الله ﷺ فلم يكن رآه قبل ذلك، فجلاه الله له، فصار يصفه لهم باباً باباً، وموضعاً موضعاً، فقالوا: أما النَّعت فقد أصاب، فأخبرنا عن عيرنا، وكانت لهم عيرٌ قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تَقْدِم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية. فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، فلم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً، حتى قالوا: هذا سحر مبين.

وفى صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلَّمَ رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها: فيصلى ركعتين إذا ظهر الفجر، وأربع ركعات إذا زالت الشمس، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء، وثلاثاً إذا غربت، وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر، وكان ﷺ قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً، ومثلهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام.

**العرض على القبائل:**

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه يجد من قريش مَنْعة من تأدية الرسالة، وتسلُّطَ الكبر

والعظمة علـى قلوبهم، أراد الله أن يُظْهِر أمـر الدين على أيدى غيـرهم من العرب، فكان ﷺ يَخْرُج فى المـواسم العربية -وهـى أسواق كانت العـرب تعقدها للـتجارة والمفاخرة- ويعرض نفسـه على القبائل ليحموه حتى يؤدى رسـالة ربه، فكان بعضهم يرد رداً جمـيلاً وآخرون رداً قـبيحـاً، وكان من أقبـح القبائـل ردًا بنو حنيـفة، رهطُ مسيلمَة الكـذَّاب، وطلب منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعـل لهم أمر الرياسة من بعده، فقال لهم: الأمر لله يضعه حيث يشاء.

وكان من الذين يحجون البيت عربُ يثـرب، وهى مدينة بين مكة والشام، يقطنها قبيلتان: إحداهما من ولد الأوس، والثـانية من ولد الخزرج، وهما أخوان، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تـضع أوزارها بين الفريقين، فكانوا دائماً فى شقاق ونـزاع، وكان يجاورهم فى المـدينة أقوام من اليهـود وهم: بنو قينـقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوى النفوذ فيـها والقوة، وكان اليهود إذا خُذلـوا يستفتحون على أعـدائهم باسم نبى يُبعث قد قَرُب زمانه، ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقَّت عصا الألفة حالفوا اليهود على أنفـسهم؛ فحالف الأوس بنى قريظة، وحالف الخزرج بـنى النضير وبنى قينقاع، وآخر الأيام بينهم يوم بُعاث، قتل فيه أكثر رؤسائهم، ولم يبقَ إلا عبد الله بن أبيّ بن سلـول من الخزرج، وأبو عـامر الراهب من الأوس، ولـذلك كانت عـائشة تقول: كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسول الله ﷺ .(١)

وقد خطر ببال رؤسـاء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخـزرج، فأرسلوا إياس بن معاذ وأبا الحـيسر أنس بن رافع مع جـماعة يلتمـسون ذلك الحلف فى قريـش، فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله ﷺ ، وقال: هل لكم فى خيرٍ مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشـركوا به شيـئاً، وقد أرسلنى الله إلى الـناس كافة، ثم تلا عـليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: يا قوم، هذا والله خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر، وقال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا، فسكت.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٧٧٧، ٣٨٤٦، ٣٩٣٠).

## بدء إسـلام الأنصـار

ولما جاء الموسم تعرَّض رسول الله ﷺ لنفر منهم يبلغون الستة، وكلهم من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، من بنى النجار، ورافع بن مالك، من بنى زريق، وقُطبة بن عامر، من بنى سلمة، وعقبة بن عامر، من بنى حرام، وجابر بن عبد الله، من بنى عبيد بن عدي، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه، فقال بعضهم لبعض: إنَّه للنبى الذى كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فآمَنوا به وصدَّقوه، وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب.(١)

**العقبة الأولى:**

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلاً: منهم عشرةٌ من الخزرج، واثنان من الأوس، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعُبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة ابن عامر، وقطبة بن عامر، وهؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثم ابن التيهان، وعويم بن ساعدة، وهما من الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء -وذلك قبل أن تفترض الحرب- على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه فى معروف، فإن وفَّوا فلهم الجنة، وإن غشُّوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله -عز وجل-، إن شاء غفر وإن شاء عذَّب(٢)، وهذه هى العقبة الأولى.

فأرسل لهم ﷺ مصعب بن عمير العبدري، وعبد الله ابن أم مكتوم -وهو ابن خال خديجة- يُقرئانهم القرآن ويُفقهانهم فى الدين، ونزل مصعبٌ على أحد المبايعين، أبى أمامة أسعد بن زرارة، وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام، وبينما هو فى

(١) انظر «البداية والنهاية» (٣/١٤٨-١٤٩)، و«السيرة النبوية الصحيحة» (١/١٩٧).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٠٩).

بستان مع أسعد بن زرارة إذ قال سعد بن معاذ، رئيس قبيلة الأوس، لأسَيْد بن حُضير، ابن عم سعد: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما، فقام لهما أسيدٌ بحربته، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا، اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فقرأ عليه مصعب القرآن، فاستحسن دين الإسلام وهداه الله له، فتشهد ورجع إلى سعد فسأله عما فعل، فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأساً، فغضب سعد وقام لهما متغيظاً، ففعل معه مصعب كسابقه، فهداه الله للإسلام، ورجع لرجال بنى عبد الأشهل -وهم بطن من الأوس- فقال لهم: ما تعدُّوننى فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، قال: كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تُسلموا، فلم يبقَ بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الإسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.(١)

**العقبة الثانية:**(٢)

ولما كان وقت الحج فى العام الذى يلى البيعة الأولى، قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج، وبينهم كثير من مشركيهم، ولما قابل وفدهم رسول الله ﷺ واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة، فأمرهم ألا ينبهوا فى ذلك الوقت نائماً ولا ينتظروا غائباً، لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كى لا يطَّلعوا على الأمر فيسعوا فى نقض ما أُبرم، شأنهم مع رسول الله ﷺ فى أول أمره، ولما فرغَ الأنصار من حجهم توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمَّن معهم من المشركين، وكان ذلك بعد مُضى ثلث الليل الأول، فكانوا يتسللون الرجل والرجلان حتى تم عددهم ثلاثةً وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان وهما: نسيبة بنت كعب، من بنى النجار، وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة» (١/ ٤٤١)، و«السيرة النبوية» لأبى شهبة (١/ ٤٤٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ١٩٩)، ورواه أيضاً الإمام أحمد فى «المسند» (٥/ ٣١٦)، بإسناد صحيح، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦١).

ووافقهم رسول الله ﷺ هناك، وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وهو على دين قومه، ولكن أراد يحضر أمر ابن أخيه ليكون متوثقاً له، فلما اجتمعوا عرَّفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في منعة من قومه، حيث لم يمكّنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء، وتحمَّلوا من ذلك أعظم الشدة، ثم قال لهم: إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإلا فدعوه بين عشيرته فإنهم لبمكانٍ عظيم، فقال كبيرهم -المتكلم عنهم البراء بن معرور-: والله لو كان لنا في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مُهجنا دون رسول الله ﷺ.

وعند ذلك قالوا لرسول الله ﷺ: خذ لنفسك ولربك ما أحببت، فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمتُ عليكم، فقال له أبو الهيثم ابن التيهان: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال عهوداً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم ﷺ، وقال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم**» أي إن طالبتم بدمٍ طالبتُ به، وإن أهدرتموه أهدرتُه.

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية، فبايعه الرجال على ما طلب، وأول من بايع أسعد بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور، ثم تخيَّر منهم اثني عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وهم: أبو الهيثم ابن التيهان، وأسعد بن زرارة، وأُسيد بن حضير، والبراء بن معرور، ورافع بن مالك، وسعد بن خيثمة، وسعد بن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله ابن عمرو، وعبادة بن الصامت، والمنذر بن عمرو، ثم قال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي.

ولأمرٍ ما أراده الله بلغ خبرُ هذه البيعة مشركي قريش، فجاءوا ودخلوا شعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج، بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تُخْرِجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا؟ فأنكروا ذلك، وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنه لم يحصل منهم شيء في ليلتهم، وعبد الله بن أبيّ، كبير الخزرج يقول: ما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بشيء من ذلك.

**هجرة المسلمين إلى المدينة:**

ولما رجع الأنصار إلى المدينة ظهر بينهم الإسلام أكثر من المرة الأولى، أما رسول الله ﷺ وأصحابه فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم، فأمر ﷺ جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسلَّلون خيفة قريش أن تمنعهم، وأوَّلُ من خرج أبو سلمة المخزومي، زوج أم سلمة ومعه زوجه، وكان قومها منعوها منه، ولكنهم أطلقوها بعدُ فلحقت به، وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم، حتى صاروا لا يعبأون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم ما دام فى ذلك رضا الله ورسوله، ولم يبقَ بمكة منهم إلا أبو بكر وعليٌّ وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكّنهم حالهم من الهجرة، وقد أراد أبو بكر الهجرة فقال له ﷺ : **«على رِسْلك، فإنى أرجو أن يؤذن لي»** فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال: **«نعم»**، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر استعداداً لذلك. (١)

**دار الندوة:**

أما قريش فكانوا كأنهم أصيبوا بمسٍّ الشيطان، حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذَّوْد عنه حتى الموت، فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة، وهى دار قصى بن كلاب، التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها، يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله ﷺ حين خافوه، فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا كى نستريح منه. فرُفض هذا الرأى لأنهم قالوا: إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه، وقال آخر: نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت، فرُفض هذا الرأى كسابقه، لأنهم قالوا: إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخل فى دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء، فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه، وربما جر هذا من الحرب علينا ما نحن فى غنًى عنه، وقال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولنمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره، نأخذ من كل

(١) انظر المرجع السابق.

قبيلة شاباً جلداً يجتمعون أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيفترق دمه فى القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، بل يرضون بالدية، فأقروا هذا الرأى.

هذا مكرهم، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الانفال: ٣٠)، فأعلم نبيه بما دبره الأعداء فى سرهم، وأمره باللحاق بدار هجرته، بدار فيها ينشر الإسلام، ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزةُ والمنعة.[١]

وهذا من الحكمة بمكانٍ عظيم، فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون: إن قريشاً أرادوا ملك العرب، فعمدوا إلى شخص منهم وأوعزوا إليه أن يدَّعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم، ولكنهم كانوا له أعداء ألدَّاء، آذوه شديد الأذى، حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم.

(١) انظر «البداية والنهاية» (٣/ ١٨١)، و«فتح البارى» (٧/ ٢٣٦).

## هـجـرة المصطفـى ﷺ

فتوجَّه ﷺ من ساعتـه إلى صديقه أبى بكر رضي الله عنه، وأعلمـه أن الله قد أذن له فى الهجرة، فسأله أبو بكر الصحبة، فقال: «نعم»، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتـا معدتين لـذلك، فجهـزهما أحث الجـهاز، وصُنعت لهـما سفـرة فى جراب، فقطعت أسماء بـنت أبى بكر نطاقها وربطت به على فم الجراب، واسـتأجرا عبد الله ابن أريقط، من بنى الدِّيـل بن بكر، وكان هادياً ماهراً، وهو على ديـن كفار قريش، فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ، ثم فارق الرسول ﷺ أبا بكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة.

وكانت هذه الليلة هـى ليلة استعداد قريش لتنفـيذ ما أقروا عليه، فاجتـمعوا حول باب الدار ورسول الله ﷺ داخله، فلما جاء ميعاد الخروج أمـر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه؛ كى لا يقع الشك فى وجوده أثناء الليل، فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده، ثم سجَّى علـياً ببردته، وخرج على القوم وهو يقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٩)، فألقى الله النوم عليهم حتـى لم يره أحد، ولم يزل ﷺ سائراً حتى تقابل مـع الصدِّيق، وسارا حتى بلغا غار ثور، فاختفيا فيه.

أما المشركـون فلما علموا بفسـاد مكرهم، وأنهم إنما باتوا يحـرسون عليَّ بن أبى طالب لا محـمد بن عبد الـله، هاجت عواطفهـم، فأرسلوا الطلب من كـل جهة، وجعلوا الجوائز لمن يـأتى بمحمد أو يدل عليه، وقد وصلوا فى طلـبهم إلى ذلك الغار الذى فيه طلبتهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما، حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له ﷺ: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)، فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يَحِنْ لأحد منهم التـفاتَةٌ إلى ذلك الغار. بل صار أعدى الأعداء أميـة بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبَيْن فى مثل هذا الغار.

فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطـع الطلب، وكان يبيتُ عندهم عبد الله بن أبى بكر، وهو شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ فَيَدَّلج من عندهما بسَحَـر، فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ بها، فلا يسمع أمرًا يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فُـهَيرة يروح عليهـما بقطعة من غنم يـرعاها حين تذهب ساعة مـن العشاء

ويغدو بها عليهما، فإذا خرج من عندهم عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كي لا يظهر لقدميه أثر، ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث، وسارا متَّبعين طريق الساحل.

وفي الطريق لحقهم طالبًا سراقةُ بن مالك المُدْلجي، وكان قد رأى رُسُلَ مشركي قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة لمن قتله أو أسره، فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال: يا سراقة، إني رأيت آنفًا أسْودة بالساحل أراها محمدًا وأصحابه، فعرف سراقة أنهم هم، ولكنه أراد أن يَثْنيَ عزم مُخْبِره عن طلبهم، فقال: إنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضَالَّةً لهم، ثم لبث في المجلس ساعة وقام وركب فرسه، ثم سار حتى دنا من الرسول ﷺ ومن معه، فعثرت به فرسه فخر عنها، ثم ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت قائمتا فرس سُراقة في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فعلم سُراقة أن عمله ضائع سُدًى، وداخلَه رعب عظيم فناداهما بالأمان، فوقف ﷺ ومن معه حتى جاءهم.

ويقول سراقة: وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرهم بما يريد بهم الناس، وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئًا، بل قالا له: أخف عنا، فسأله سراقة أن يكتب له كتابَ أمنٍ، فأمر أبا بكر فكتب[١]، وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله ﷺ.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله ﷺ وقدومه عليهم يخرجون إلى الحرة[٢] حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد أن طال انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه يزول بهم السراب، يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى، فقال اليهوديُّ بأعلى

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣٩٠٦)، وانظر «السيرة النبوية» لأبي شهبة (١/ ٤٩٥).
(٢) هي الأرض ذات الحجارة السود، والمدينة المنورة محاطة بحرتين. (م).

صوته: يا معشر العرب، هذا جَدُّكُم -أى حظكم- الذى تنتظرون، فثاروا إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

**النـزول بقبـاء:**

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقُباء.

والذى حققه المرحـوم محمود باشا الفلكى أن ذلك كان فى الـيوم الثانى من ربيع الأول الذى يوافق ٢٠ سبتمـبر سنة ٦٢٢م، وهذا أول تاريخ جديد[١] لظهور الإسلام بعد أن مـضى عليه ثـلاث عشرة سنة، وهو مُـضَيَّق عليـه من مشركـى قريش، ورسول الله ﷺ ممنوع من الجهر بعبادة ربه، أمـا الآن فقد آواه الله هو وصحابته -رضوان الله عليهم- بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس.

**هـجـرة الأنبيـاء:**

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا سُنَّةُ إخوانه من الأنـبياء من قبله، فما من نبى منهم إلا نَبَتْ به بلادُ نشأته فهـاجر عنها، من إبراهيم أبى الأنبياء وخليـل الله إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجـاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عـشائرهم فصبروا ليكونوا مِثَالاً لمن يأتى بعدهم من متبعيهم فى الثبات والصبر على المكاره، ما دام ذلك فى طاعة الله، فسلْ مصـر وتاريخها تنبئْك عن إسرائيل (يعقـوب) وبنيه أنهم هاجروا إليـها حينـما رأوا من بنيـها ترحـيبًا بـهم، وتركهم ومـا يعبـدون إكرامًا ليـوسف وحكمـته، ولما مـضت سنون نَـسِى فيـها المصـريون تدبيـر يوسف وفـضله عليـهم فاضطهدوا بنى إسرائيل وآذوهم خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه فى عبادته، وهرب المسيح، عليه السلام، من اليـهود حينما كذَّبوه فأرادوا الفتك به، حتى كان من ضـمن تعاليمه لتـلاميذه: (طوبى للمطرودين مـن أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات)، ثم قال بعد: (افرحـوا وتهلَّلوا لأن أجركم عظيم فى السموات، فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم).

---

(١) لما أراد المسلمون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بـن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفـة، ولعدم المخالفة بين مبـدأ الهجرة وبدء السنة الـهلالية قدموا مـيعاد الهجرة شهـرين وأياماً وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها. (م).

وسَلْ القـرى التى حلت بهـا نقمة الله لـكفر أهلهـا كديار لوط وعـاد وثمود تنبئك عن مُهَاجَـرة الأنبياء منها قبل حلول النقمـة، فلا غرابة أن هاجر ﷺ من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراده الله سبحانه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٦٢).

**أعمال مكة:**

هذا، ولنبـين لك مجمل مـا دعا إليـه الرسول ﷺ بمكة من أصـول الدين، وذلك أمران:

**الأول:** الاعتقاد بوحدانية الله وألا يُشرك معه فى العبادة غيره، سواء كان ذلك الغير صنمًا، كـما يفعل مشـركو مكة، أو أبًا أو زوجة أو بنتًـا، كما عليه بـعض الطوائف الأخرى كالنصارى، ولولا الاعتقاد بوحدانية الله ما كَلَّف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق، بل كان يسير فـيما تأمره به نفسه من شهواتـها وملذاتها، ما دام ذلك خافيًا عن الناس.

**الثانى:** الاعتقاد بالبعث والنشور، وأن هناك يومًـا ثانيًا للإنسان يُجازَى فيه على ما صنعه فى الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآى المكية، فـقلما نرى سورة من سوره مكية إلا مشحونة بـالاستدلال عليهما وتوبيخ مَـنْ تركهما، وكل ذلك بأساليب تـأخذ بالعقل وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى.

ونزل على رسول الله ﷺ بمكة من القرآن مـعظمه وهو ما عدا ثلاثـاً وعشرين سورة منه، وهـى: (البقرة، آل عمران، الـنساء، المائدة، الأنفال، الـتوبة، الحج، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجـرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الـطلاق، التحريم، النصر)، هذه كلها مدنية وباقى القرآن مكى.

ولما نزل ﷺ بقبـاء، نزل على شيخ بـنى عمرو كلـثوم بن الهِدم، وكـان يجلس للناس ويتحدث لهم فـى بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عـزباً، ونزل أبو بكر بالسّنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد، من بنى الحارث من الخزرج.

**مسجد قباء:**

وأقام رسول الله ﷺ بقُباء ليالى أسس فيها مسجد قُباء الذى وصفه اللهُ بأنه مسجد أُسس على التقوى من أول يوم، وصلى فيه ﷺ بمن معه من الأنصار والمهاجرين، وهم آمنون مطمئنون.

وكانت المساجد على عهد رسول الله ﷺ فى غاية من البساطة، ليس فيها شىء مما اعتاده بناة المساجد فى القرون الأخيرة، لأن الرسول ﷺ وأصحابه لم يكن جُلُّ همهم إلا منصرفًا لتزيين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مِظلة يتَّقى بها حر الشمس.

**الوصول إلى المدينة:**

ثم تحوَّل ﷺ إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدى سيوفهم، وهنا حدِّث ولا حَرَج عن سرور أهل المدينة، فكان يوم تحوّله إليهم يومًا سعيدًا لم يُروا فرحين بشىء فرحهم برسول الله ﷺ، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

| | |
|---|---|
| طلع البدر علينا | من ثنيات الوداع |
| وجب الشكر علينا | ما دعا لله داع |
| أيُها المبعوث فينا | جئت بالأمر المطاع |

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ﷺ ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون زمام ناقته، كلٌّ يريد أن يكون نزيله.

**أول جمعة:**

وأدركته ﷺ صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فنزل وصلاها، وهذه أول جمعة له ﷺ، وأول خطبة خطبها ﷺ حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

**«أما بعد أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم؛ تعْلَمُنَّ والله ليَصْعَقَنَّ أحدُكم، ثم ليَدَعَنَّ غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولنَّ له ربُّه -ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه-: ألم يأتِكَ رسولى فبلَّغك، وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك؛ فما قدَّمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يَقِيَ وَجْهَهُ من النار**

**ولو بِشِقِّ تمرةٍ فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنها تُجْزَى الحسنةُ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».** (١)

**النزول على أبى أيوب:**

ثم ساروا وكلما مرُّوا على دار من دور الأنصار يتضرَّعُ إليه أهلها بأن ينزل عندهم، ويأخذون بزمام الناقة فيقول: «**دعوها فإنها مأمورة**»، ولم تزل سائرةً حتى أتت بفِنَاء بنى عدى بن النجار، وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده، فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبى أيوب الأنصارى، واسمه خالد بن زيد وذلك مَحَلُّ مسجده الشريف، فقال ﷺ : «**ههنا المنزل إن شاء الله** ﴿**رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**﴾ (المؤمنون: ٢٩)»، فاحتمل أبو أيوب رَحْلَه ووضعه فى منزله، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده، وخرجت ولائد بنى النجار يقلن:

**نحن جوارٍ من بني النجار  يا حبذا محمد من جار**

فقال عليه السلام: أتحببننى؟ فقلن: نعم، فقال: **الله يعلم أن قلبى يحبكن**، واختار ﷺ النزول فى الدَّوْرِ الأسفل من دار أبى أيوب، ليكون أريح لزائريه، ولكن لم يرضَ رضي الله عنه ذلك كرامة لرسول الله ﷺ ؛ لما يمكن أن يصيبه من التراب الذى يحدثه وطء الأقدام أو الماء الذى يهراق، فقد اتفق أن كُسرت من زوجته جرة ماء بالليل فقام هو وهى بقطيفتهما التى ليس لهما غيرها، يمسحان الماء خوفًا على رسول الله ﷺ ، ولذلك لم يزل أبو أيوب يستعطفه حتى كان فى العلو، وكانت تأتيه الجفان كل ليلة من سَرَاة الأنصار كسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وأم زيد بن ثابت. فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد. (٢)

**نزول المهاجرين:**

ولما تحوَّل مع رسول الله ﷺ أغلب المهاجرين تنافس فيهم الأنصار، فحكَّموا القرعة بينهم: فما نزل مهاجرىّ على أنصارى إلا بقرعة.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٦٦-١٦٧)، و«سنن البيهقي» (٢/ ٥٢٤-٥٢٥)، و«السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للعمرى (١/ ٢٢٠).

**أخوة الإسلام:**

ومن يتامل إلى هذه المحبة التى يستحيل أن تكون بتأثير بشر، بل بفضل من الله ورحمته. يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العَدد والعُدد.

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، قال تعالى فى سورة الحشر: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الحشر: ٩)، وهذا أعلى درجات الأُخوة، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم، فإن رسول الله ﷺ ليُمكِّنَ بينهم الإخاء آخى بين المهاجرين والأنصار. فكان كلُّ أنصارى ونزيلُه أخوينِ فى الله، ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضِّح للقارئ أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية، بل نَكِل ذلك للإحساس الإسلامى فإنه أفصحُ منطقًا من القلم.

**وعلى الإجمال:** فتلك قلوبٌ ألَّفَ الله بينها حتى صارتْ شيئًا واحدًا فى أجسام متفرقة، وعسى الله أن يوفق مسلمى عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون، وكان هذا الإخاء على المواساة والحق، وأن يتوارثوا بعد الموت، دون ذوى الأرحام، وكان ﷺ يقول لكل اثنين: «**تآخيا فى الله أخوين أخوين**»، ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله فى سورة الأحزاب: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ (الأحزاب: ٦).

**هجرة أهل البيت:**

ولما استقر ﷺ بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن خلَّف من أهله، وأرسل معهما عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق، فقدما بفاطمة وأمِّ كُلثوم بنتيه ﷺ، وسَوْدة زوجه، وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة، أما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع، وخرج مع الجميع عبد الله بن أبى بكر بأم رومان زوج أبيه، وعائشة أخته، وأسماء زوج الزبير بن العوام؛ وكانت حاملاً بابنها عبد الله، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة.

## حمَّى المدينة:

ولم يكن هواء المدينة فى البدء موافقًا للمهاجرين من أهل مكة، فأصاب كثيرًا منهم الحُمَّى، وكان رسولُ الله ﷺ يعودهم، فلما شكوا إليه الأمر قال: **«اللهم حبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبْتَ إلينا مكةَ وأشد، وبارِكْ لنا فى مُدِّها وفى صاعِها، وانقل وباءَها إلى الجُحْفَةِ»**[١] فاستجاب الله -جَلَّ وعلا- دعوته، وعاش المهاجرون فى المدينة بسلام.

## منع المستضعفين من الهجرة:

ومنع مشركو مكة بعضًا من المسلمين من الهجرة وحبسوهم وعذبوهم، منهم: الوليد بن الوليد، وعيَّاش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص، فكان ﷺ يدعو لهم فى صلاته، وهذا أصل القنوت، وقد حصل فى أوقات مختلفة ومَحَالَّ فى الصلاة مختلفة، فكان فى وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله، فروى كلٌّ صحابى ما رآه، وهذا سبب اختلاف الأئمة فى مكان القنوت.[٢]

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (١٨٨٩، ٣٩٢٦، ٥٦٥٤، ٥٦٧٧، ٦٣٧٢)، ومسلم (١٣٧٦).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٧٩٧، ٨٠٤، ١٠٠٦، ٢٩٣٢) ومواضع أخر، ومسلم (٦٧٦).

## السنة الأولى:

### بناء المسجد

ثم شرع ﷺ فى بناء مسجده فى مَبْرَك ناقته أمام مَحَلَّة بنى مالك بن النجار، وكان محله مِربدًا للتمر يملكه غلامان يتيمان فى حجْر أسعد بن زرارة، فدعا الغلامين وساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، بل ابتاعه منهما، وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل، فأمر بالقبور فنُبشت وبالحفر فسُوِّيتْ وبالنخل فقُطع، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتُّخذ وشرعوا فى البناء به، وجعلوا عضادتى الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد وجُعلت عَمَدُهُ من جذوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً، وقد عمل فيه رسول الله ﷺ بنفسه ليرغِّب المسلمين فى العمل، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم:

**اللهم لا خير إلاَّ خيرُ الآخره فارحم الأنصار والمهاجره**[1]

وجُعلت قبلة المسجد فى شماله إلى بيت المقدس، وجُعل له ثلاثة أبواب، ثم حصبت أرضه؛ لأن المطر كان قد أثَّر فيه، فأمر ﷺ بحصبه، ولم يزين المسجد بفُرُشٍ، حتى ولا بالحصر، وبنى بجانبه حجرتان: إحداهما لسودة بنت زمعة، والأخرى لعائشة، ولم يكن ﷺ متزوجاً غيرهما إذ ذاك، وكانت الحجرتان متجاورتين، وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، وصارت الحجرات تُبنى كلما جاءت زوج.

**بدء الأذان:**

أوجب الله الصلاة على المؤمنين ليكونوا دائمًا متذكرين عظمة العلى الأعلى، فيتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه، ولذلك قال فى محكم كتابه فى سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضًا فى شئونهم واحتياجاتهم، ويقووا روابط الألفة والاتحاد بينهم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤)، وأبو داود (٤٥٣، ٤٥٤)، والنسائى (٢/ ٣٩)، وابن ماجه (٧٤٢).

ومتى حان وقت الصلاة فلابد من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهى، حتى يكون الاجتماع عامًا، فائتمر النبى ﷺ مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال الآخرون: نشعل نارًا على مرتفع من الهضاب، فلم يقبل أيضًا، وأشار آخرون ببوق، وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه رسول الله ﷺ ؛ لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود فى عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول ﷺ أيضًا، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادى بها فقُبل هذا الرأى.

وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصارى، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهَّد مرتين، ثم قل حيَّ على الصلاة مرتين، ثم قل: حيَّ على الفلاح مرتين، ثم كبِّر ربك مرتين، ثم قل لا إله إلا الله، فلما استيقظ توجَّه إلى النبى ﷺ وأخبره خبر رؤياه، فقال: «**إنها لرؤيا حق**»، ثم قال له: «**لقِّن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتًا منك**»، وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله.(١)

وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبد الله ابن أم مكتوم، وكان بلال يقول فى أذان الصبح بعد حى على الفلاح: «الصلاة خير من النوم» مرتين، وأقره الرسول ﷺ على ذلك.(٢)

وكان ﷺ يأمر فى فجر رمضان بأذانين: أولهما يوقَظ به الغافلون حتى ينتبهوا للسحور، والثانى للصلاة.(٣)

أمّا الأذان للجمعة فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداءً آخر على الزوراء،(٤) ولما تولى

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٣٤٥٧)، ومسلم (٣٧٧، ٣٧٨).
(٢) **ضعيف**: رواه الترمذى (١٩٨)، وابن ماجه (٧١٥)، وضعفه الألبانى فى «الإرواء» (٢٣٥)، وثبت من طريق آخر عند ابن ماجه (٧١٦)، وصححه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه».
(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٦٢٠، ٥٢٩٨، ٧٢٤٧)، ومسلم (١٠٩٣).
(٤) **صحيح**: رواه البخارى (٩١٢، ٩١٣، ٩١٥، ٩١٦).

هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذى زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار، ثم نقل الأذان الذى كان على المنار حين صعود الإمام على المنبر فى العهد الأول بين يديه.

فعُلم بذلك أن الأذان فى المسجد بين يدى الخطيب «بدعة» أحدثها هشام بن عبد الملك، ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء إلى الصلاة، ومن هو فى المسجد لا معنى لندائه، ومَنْ هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء فى المسجد، ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج فى «المدخل».

قال الحافظ فى «فتح البارى»: وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبى ﷺ فهو فى بعض البلاد دون بعض، واتباع السلف الصالح أولى. اهـ.(١)

فعُلم من ذلك كله أنَّ سُنَّة رسول الله ﷺ فى أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار، فإذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة، وما عدا ذلك فكله ابتداع.

أما الإقامة وهى الدعوة للصلاة فى المسجد فقد اختلفت الروايات فى نصها، فرواها محمد بن إدريس الشافعى مفردة إلا لفظ (قد قامت الصلاة) فَمَثْنَى، ورواها مالك بن أنس مفردة كلها، ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها.(٢)

**يهود المدينة:**

هذا، وكما ابتلى الله المسلمين فى مكة بمشركى قريش ابتلاهم فى المدينة بيهودها، وهم: بنو قينقاع، وقريظة، والنضير، فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وكانوا قبل مجىء الرسول ﷺ يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبت الحرب بين الفريقين بنبى يُبعث قد قَرُب زمانه، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوة فى ولد إسماعيل، فكفروا بما أنزل الله بغيًا، مع أنهم يرون أن رسول الله محمدًا لم يأتِ إلا مصدِّقًا لما بين يديه من كتب

---

(١) صدق -رحمه الله- وإن مما أحدثه الناس قراءة سورة الكهف قبل الصلاة فى المساجد من خلال المذياع أو قارئ يجلس يقرأ للناس قبل الجمعة، وخير الهَدْى هَدْى النبى ﷺ .

(٢) وهذا الذى عليه جمهور العلماء.

الله التى أنزلها على مَنْ سبقه من المرسلين، مبينًا ما أفسده التأويل منها، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان أكثر منهم، فإنه ميال بطبعه للترقى، والرسول ﷺ وُجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية. فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج، لأنه لو حرَّم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهى التى جاء بها الشرع الإسلامى لما أجابه أحدٌ من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين فى كثير من الأضاليل، فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئًا فشيئًا حتى رُوّضت عقولهم وهذبت نفوسهم، وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التى تقتضيها ليكون التأثير فى النفوس أشد، ولكن اليهود أرادوا غَلَّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون.

وقد حجَّهم القرآن الشريف، بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق، فقال فى سورة البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤)، ثم حتَّم -جل ذكره- عدم إجابتهم بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طُلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين، ولم يُنقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نُطْقًا باللسان، وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بنى قينقاع، وهو عبد الله بن سَلاَم، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن، وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم عدّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه، ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (البقرة: ٩٠).

ولما استحكمت فى قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يُجهدون أنفسهم فى إطفاء نوره ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

**المنافقون:**

وكان يُساعِدُهُم على مقاصدهم جماعةٌ من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم فأخفوا

كفرهم خوفًا على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة عبدُ الله بن أُبَيّ ابن سلول الخزرجى الذى كان مرشَّحًا لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ، ولاشكَّ أن ضررَ المنافقين أشدّ على المسلمين من ضرر الكفار، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم، ويُشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم، كما حصل ذلك مرارًا، والأساس الذى كان عليه رسول الله ﷺ أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن، ولكنه ﷺ مع ذلك كان لا يأمنهم فى عمل ما، فكثيرًا ما كان يتغيب عن المدينة ويولِّى عليها بعض الأنصار، ولكن لم يعهد أنه ولَّى رجلاً ممن عُهِدَ عليه النفاق، لأنه ﷺ يعلم ما يكون منهم لو وُلُّوا عملاً، فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين، وهذا درسٌ مهم لرؤساء الإسلام يعلِّمهم أنهم لا يثقون فى الأعمال المهمة إلا بمَن لم تظهر عليهم شبهة النفاق، أو إظهار ما يخالف ما فى الفؤاد.

**معاهدة اليهود:**

هذا، وقد علمتَ أنه كان يضاد المسلمين فى المدينة فئتان: اليهود والمنافقون، ولكن الرسول ﷺ قَبِل من هؤلاء ظواهرهم، وعقد مع أولئك عهدًا مقتضاه ترك الحرب والأذى، فلا يحاربهم ولا يؤذيهم، ولا يعينون عليه أحدًا، وإن دَهِمَهُ بالمدينة عدو ينصرونه، وأقرَّهم على دينهم.

**مشروعية القتال:**

قد عُلم مما تقدم أن رسول الله ﷺ لم يقاتل أحدًا على الدخول فى الدين؛ بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار، وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآى ما يقويه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش، ومن ذلك قوله فى سورة الأحقاف: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وكان كثيرًا ما يقص الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله ليثبِّت به فؤاده.

ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجأوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله، فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق، فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠).

ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٣).

وبذلك لم يكن الرسول ﷺ يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب، فلما تمالأ على المسلمين غيرُ أهل مكة من مشركي العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء، أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله في سورة التوبة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: ٣٦).

وبذلك صار الجهاد عامًا لكل من ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**». (١)

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨)، وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم.

وصار قتال رسول الله ﷺ للأعداء على هذه المبادئ الآتية:

١- اعتبار مشركي قريش محاربين؛ لأنهم بدأوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم، حتى يأذن الله بفتح مكة أو تُعْقَدَ هدنَةٌ وقتية بين الطرفين.

٢- متى رُئي من اليهود خيانةٌ وتحيزٌ للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل.

٣- متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشًا قوتلت حتى تدين بالإسلام.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠، ٢١).

٤- كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قُوتل حتى يذعن بالإسلام أو يعطى الجزية عن يد وهو صاغر.

٥- كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه، والإسلام يقطع ما قبله.

وقد أنزل الله فى القرآن الكريم كثيرًا من الآى تحريضًا على الإقدام فى قتال الأعداء وتبعيدًا عن الفرار من الزحف، فقال فى الموضوع الأول فى سورة النساء: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء: ٧٤)، وقال فى الموضوع الثانى فى سورة الأنفال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ (الأنفال: ١٥، ١٦).

**بدء القتال:**

كانت عادة قريش أن تذهبَ بتجارتها إلى الشام لتبيعَ وتبتاع، ويُسمى الركبُ السائر بهذه التجارة عيرًا، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسرَاتهم، ولابد لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة، فرأى رسول الله ﷺ أن يُصَادرَ تجارتهم ذاهبةً وآيبةً ليكون فى ذلك عقاب لمشركى مكة حتى تضعفَ قوتهم المالية، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم فى ميدان القتال الذى لابد أن يكون، لأن قريشًا لم تكن لتسكت عمن سفَّه أحلامهم وعاب عبادتهم؛ خصوصًا وهم قدوة العرب فى الدين.

**سرية:**[١]

**ففى شهر رمضان:** أرسل عمَّه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقدَ له لواء أبيض حمله أبو مرثد حليف حمزة ليعترض عيراً لقريش آيبةً من الشام، فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين، فسار حمزةُ حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص[٢] فصادف العير هناك، فلما تصافّوا للقتال حجز بين الفريقين مَجْدِىُّ بن عمرو الجهنى فأطاعوه وانصرفوا، وشكر ﷺ مَجْدِيًا على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم.

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٤-٥).
(٢) عرض من أعراض المدينة، أى ناحية منها. (م).

**وفى شوال:** أرسل عبيدةَ بن الحارث ابن عم حمزة فى ثمانين راكبًا من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثة ليعترض عيرًا لقريش فيها مائتا رجل، فوافوا العير ببطن رابغ، فكان بينهم الرمى بالنبل، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين، فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غَزْوان، وكانا قد أسلما، وخرجا ليلحقا بالمسلمين.

**وفيات:**

وفى هذه السنة: تُوفِّى من المهاجرين عثمانُ بن مظعون، أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أسلم قديماً وهاجر الهجرتين، ولما دُفن أمر ﷺ بأن يُرَشَّ قبرُه بالماء، ووضعَ على قبره حجرًا، وقال: أتعلَّم به قبر أخى، وأدفن إليه مَنْ مات من أهلى، وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصُوَر تُرى فى عين الناظر كالأصنام، ليأتى أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيراً ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم، ومن العبث فعلُ شيء لم يفعله رسول الله ﷺ مما يتعلق بأمور الآخرة.

ومات من الأنصار أَسعدُ بن زُرارة أحد النقباء الاثنى عشر، كان ﷺ نقيبَ بنى النجار، ولما مات اختار رسول الله ﷺ نفسه للنقابة عليهم؛ لأن ابن أخت القوم منهم.

ومات أيضًا البراء بن معرور، أحد النقباء، وهو الذى كان يتكلم عن القوم فى العقبة الثانية.

ومات من مشركى مكة فى هذه السنة الوليد بن المغيرة، ولما احتُضر جزع، فقال له أبو جهل: ما جزعُك يا عم؟ فقال: والله ما بى من جزع من الموت، ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبى كبشة بمكة، فقال أبو سفيان: لا تخفْ إنى ضامنٌ ألاَّ يظهر.

وفيها أيضًا: مات العاص بن وائل السهمى، وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين.

## السنة الثانية:

**غزوة وَدّان:** (١)

ولاثنتَىْ عشرةَ ليلةً خلَت من السنة الثانية خرجَ رسول الله ﷺ من المدينة، بعد أن استخلف عليها سعدَ بن عبادة ليعترض عيرًا لقريش، فسار حتى بلغ وَدّان(٢) وكان يحمل لواءه عمّه حمزة، ولم يلقَ هناك حربًا لأن العير كانت قد سبقته، وفى هذه الغزوة صالحَ بنى ضَمرَةَ على أنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصر على من رامهم، وأن عليهم نُصْرَةَ المسلمين إذا دُعوا، ثم رجع إلى المدينة بعد مضىٍّ خمسَ عشرةَ ليلةً.

**غزوة بواط:** (٣)

ولم يمضِ على رجوعه غيرُ قليل حتى بلغَه أن عيرًا لقريش آيبةٌ من الشام فيها أمية ابن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فسار إليها فى مائتين من المهاجرين، وذلك فى ربيع الأول، وكان يحمل لواءه سعْدُ بن أبى وقاص، فسار حتى بلغ بُواط(٤) فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلقَ كيداً، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد فى تعمية أخبارهم عن أهل المدينة.

**غزوة العشيرة:** (٥)

وأعقب رجوعَه ﷺ خروجُ قريش بأعظم عير لها، فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبقَ بمكة قرشى أو قرشية لها مثقالٌ فصاعدًا إلا بعث به فى تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان ابن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً، فخرج لها الرسول ﷺ فى جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمةَ

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٤٥)، و«السيرة النبوية» للدمياطى ص (١٨٥).

(٢) قرية بين مكة والمدينة بينهما وبين الأبواء ستة أميال. (م).

(٣) «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٤٦)، و«السيرة النبوية» للدمياطى ص (١٨٥-١٨٦).

(٤) جبل لجهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع. (م).

(٥) «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٥٤)، و«السيرة النبوية» للحافظ الدمياطى (١٨٦-١٨٧).

ابن عبد الأسد، وحمل لواءه عمّه حمزة، ولم يزل سائرًا حتى بلغ العُشَيْرةَ فوجد العيرَ قد مضتْ، وحالف ﷺ فى هذه الغزوة بنى مُدْلج وحلفاءهم ثم رجع ﷺ إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع.

**غزوة بدر الأولى:** (١)

وبعد رجوعه ﷺ بقليل جاء كُرْز بن جابر الفهرى، وأغار على سَرْح المدينة وهرب، فخرج الرسول ﷺ فى طلبه واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة الأنصارى، وحمل لواءه علىٌّ بن أبى طالب، فسار حتى بلغ سَفَوَان(٢)، وفاته كرزٌ فلم يلقَ حربًا، وتُسمى هذه الغزوة بدراً الأولى.

**سرية:** (٣)

**وفى رجب من هذه السنة:** أرسل سرية عدتها ثمانية رجال، يرأسها عبد الله بن جحش، وأعطاه كتابًا مختومًا لا يَفُضُّهُ إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظرَ فيه، فسار عبدُ الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت كتابى هذا فامضِ حتى تنزل نَخْلَةَ فترَصَّدْ بها قريشًا وتعلَّم لنا من أخبارهم» وإنما لم يخبرهم ﷺ بمقصدهم وهم بالمدينة حذرًا من شيوع الخبر، فيدل عليهم أحدُ الأعداء من المنافقين أو اليهود فتترصَّدُ لهم قريش، ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة.

ثم سار عبد الله ﷺ، وفى أثناء السير تخلَّف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غَزْوان لأنهما أضَلاَّ بعيرَهما الذى كانا يعتقبانه، وسار الباقون حتى وصلوا نخلة، فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بنُ الحضرمىِّ وعثمانُ بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفلُ والحكمُ بن كَيسان، فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم، فحملوا عليهم فى آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بنَ الحضرمىِّ وأسروا عثمانَ والحكمَ، وهرب نوفلُ، واستاقوا العير، وهى أولُ غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش، ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم، فلما

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٩)، و«السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٤٦).

(٢) سَفَوان: وادٍ من ناحية بدر. (م).

(٣) «المغازى» لموسى بن عقبة ص (١٢٠-١٢٢).

قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا فى الأشهر الحرم، وعابتهم قريش واليهود بذلك عنَّفهم المسلمون، وقال لهم ﷺ : **«ما أمرتُكم بقتال فى الأشهر الحرُم»**، فندموا، فأنزل الله فى سورة البقرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ (البقرة:٢١٧)، فَسُرِّيَ عنهم.

وقد طلب المشركون فداءَ أسيرَيْهما فقال ﷺ : **«حتى يرجعَ سعدٌ وعتبةُ»**، فلما رجعا قَبَل ﷺ الفدية فى الأسيرين، فأما الحكم بن كَيْسان فأسلم وحَسُن إسلامه مع المسلمين، وأما عثمان فلحق بمكة كافرًا.

### تحويل القبلة:(١)

مكث ﷺ بالمدينة ستةَ عشرَ شهرًا يستقبل بيت المقدس فى صلاته، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة، ويقلِّبُ وجهه فى السماء داعيًا الله بذلك، فبينما هو فى صلاته إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحوَّل وتحوَّلْ من وراءَه، وكانت هذه الحادثة سببًا لافتتان بعض المسلمين الذين ضَعُفَتْ قلوبهم فارتدوا على أعقابهم، وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل، وما دروْا أن لله المشرق والمغرب، يهدى مَنْ يشاءُ إلى صراط مستقيم.

### صوم رمضان:

**وفى شعبان من هذه السنة:** أوجب الله صومَ شهرِ رمضانَ على الأمة الإسلامية، وكان ﷺ قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر.

والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التى بها يتم النظام، فإن الإنسان مجبول على حب نفسه والسعى فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركًا ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلابد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش، إذ بهما تلين نفسه ويتهذب خُلُقه فيسهلُ عليه بذلُ الصدقات.

---

(١) انظر: «صحيح البخارى» (٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣)، ومسلم (٥٧٢).

**صدقة الفطر:**

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقبَ الصوم زكاةَ الفطر، فترى الإنسانَ يبذلها بسخاء نفسٍ ومحبة خالصة.

**زكاة المال:**

**وفى هذا العام:** فُرضت زكاةُ الأموال، وهذه هى النظام الوحيد الذى به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغتْ الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين، وحال عليها الحول، وجب عليك أن تؤدى رُبْعَ عُشْرِها، أى اثنين ونصفًا فى كل مائة، وما زاد فبحسابه، وإذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمسًا، وحال عليها الحول، وجب عليك كذلك أن تؤدى منها جزءًا مخصوصًا حَدَّدَه الشارعُ، ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة، كل هذا يقْبِضُهُ الإمام، ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين فى آية الصدقة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام، مع عدم إضراره بالأغنياء مُقَلِّلٌ لمصائب الفقر التى ألجأت كثيرًا من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام دولهم، ويؤسسوا مبادئ تقويض العمران، وتداعى الأمن، كما يفعله الاشتراكيون وغيرهم.

## غزوة بدر الكبرى [1]

لم يَطُلِ العهدُ بتلك العير العظيمة التى خرج لها ﷺ وهى متوجهة إلى الشام، فلم يدركها، ولم يزل مترقبًا رجوعها، فلما سمع برجوعها نَدَبَ إليها أصحابَهُ، وقال: هذه عيرُ قريش فاخرجوا إليها، لعلَّ الله أن يُنْفِلكُموها. فأجاب قومٌ وثَقُلَ آخرون لظنهم أن الرسول ﷺ لم يُرِدْ حربًا، فإنه لم يحتفل بها، بل قال: من كان ظهرُه حاضرًا فليركبْ معنا، ولم ينتظر مَنْ كان ظهرُه غائبًا، فخرج لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ

(١) انظر: «السيرة النبوية» للحافظ الدمياطى (ص ١٨٧).

من رمضان بعد أن ولّى على المدينة عبدَ الله ابن أم مكتوم، وكان معه ثلاثُمائة وثلاثةَ عشرَ رجلاً: مائتان ونيف وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فَرَسان وسبعون بعيرًا يعتقبونها، والحامل للّواء مصعب بن عمير العَبْدرى.

ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر راكبًا ليأتى قريشًا ويخبرَهم الخبرَ؛ فلما علموا بذلك أدركتهم حميَّتُهم وخافوا على تجارتهم، فنفروا سراعًا ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب ابن عبد المطلب، فإنه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة، وأراد أمية بن خلف أن يتخلَّف لحديث حدَّثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمرًا بعد الهجرة بقليل حيث قال - كما رواه البخارى-[1]: سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك». قال: بمكة؟ قال: لا أدرى، ففزع لذلك وحلف ألاَّ يخرج، فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصدًا الرجوع بعد قليل، ولكن إرادة الله فوقَ كل إرادة، فإن منيَّتَه ساقَتْه إلى حَتْفه رغمَ أنفه، وكذلك عزم جماعة من الأشراف على القعود فَعيبَ عليهم ذلك.

وبهذا أجمعت رجالُ قريش على الخروج، فخرجوا على الصعب والذلول، أمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨)، وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأى من بعدهم فقال فى سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦)، وهكذا كان عمله فى هذه الواقعة: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٤٨)، وكان عدة مَنْ خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير.

أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئًا مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للعير، فعسكر ببيوت السقْيا خارج المدينة واستعرض الجيشَ فردَّ من ليس له قدرة على الحرب، ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير.

ولما بلغ الرَّوْحاء[2] جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم، وجاءه مخبراه بأن العير

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٣٢، ٣٩٥٠).

(٢) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوب المدينة الغربى. (م).

ستصل بدراً غدًا أو بعد غد، فجمع ﷺ كبراء الجيش وقال لهم: «أيها الناس، إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم: العير، أو النفير»، فتبين له ﷺ أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة، وهي العير، ليستعينوا بما فيها من الأموال، فقد قالوا: هلاَّ ذكرت لنا القتال فنستعدَّ؟ وجاء مصداق ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٧).

ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو سرت بنا إلى برْكِ الغِمَاد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له بخير.

ثم قال ﷺ: «أشيروا عليَّ أيُّها الناس» -وهو يريدُ الأنصار؛ لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجبُ عليهم نصرتُه إلا ما دام بين أظهرهم، فإن فيها: (يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصَلَ إلى دارنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمَّتنا نمنعُك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا)، فقال سعد بن معاذ سيد الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «أجل»، فقال سعد: قد آمنا بك وصدَّقناك وأعطيناك على ذلك عهودَنا، فامضِ لما أمرَك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَه لَنَخوضَنَّه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدوَّ بنا غدًا؛ إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عَيْنُك، فَسِرْ على بركة الله.

فأشرق وجهه ﷺ وسُر بذلك، وقال -كما في رواية البخاري-: «أبشروا، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[1] فعَلَمَ القومُ من هذه الجملة أن الحربَ لابد حاصلةٌ، وحقيقةً حصلت، فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسار متبعًا ساحل البحر فنجا، وأرسل إلى قريش يُعْلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نحضر بدراً[2] فنقيم فيه ثلاثاً، ننحر الجزور، ونطعم الطعامَ، ونُسقى الخمرَ، وتسمعَ بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٩٥٢، ٤٦٠٩).

(٢) محل بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها على الطريق السلطاني، وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية أيام. (م).

فقال الأخنس بن شريق الثقفي لبني زهرة -وكان حليفًا لهم-: ارجعوا يا قوم فقد نجَّى الله أموالكم. فرجعوا، ولم يشهدْ بدرًا زهريٌّ ولا عدويّ، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر، فنزلوا عُدوتَه القصوى[1] عن المدينة في أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين فإنه لما قارب بدرًا أرسل ﷺ عليَّ بن أبي طالب والزبيرَ بن العوام ليعرفا الأخبار، فصادفا سقاةً لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص السهميين فأتيا بهما، والرسول ﷺ قائم يصلي، ثم سألاهما عن أنفسهما فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما؛ لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان، فقال الغلامان: نحن لأبي سفيان، فتركاهما، ولما أتمَّ الرسول ﷺ صلاته قال: **«إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟! صدقا والله، إنهما لقريش»**، ثم قال لهما: **«أخبراني عن قريش؟»** قالا: هم وراء هذا الكثيب، فقال لهما: **«كم هم؟»** فقالا: لا ندري، قال: **«كم ينحرون كل يوم؟»** قالا: يومًا تسعًا ويومًا عَشْرًا، قال: **«القوم ما بين التسعمائة والألف»**، ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عددًا عظيماً، فقال ﷺ لأصحابه: **«هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذَ كَبِدِها»**.

ثم ساروا حتى نزلوا بعُدْوَة الوادي الدنيا من المدينة بعيدًا عن الماء في أرض سبخة فأصبح المسلمون عطاشًا، بعضهم جُنب وبعضهم مُحْدِثٌ، فحدَّثهم الشيطان بوسوسته، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمُهم، فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاءوا.

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي، فشربوا واتخذوا الحياض على عُدْوَة الوادي، واغتسلوا وتوضأوا، وملأوا الأسقية، ولَبَّدت الأرض، حتى ثبتت عليها الأقدام، على حين أن كان المطرُ مصيبةً على المشركين فإنه وَحَّلَ الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال، ومصداق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾ (الأنفال: ١١).

---

(١) عُدوة الوادي: شاطئه. (م).

وقد أرى الله رسولَه ﷺ فى منامه الأعداءَ، كَما أراهموه وقت اللقاء قليلى العدة؛ كى لا يفشل المسلمون وليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، قال تعالى فى سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (الأنفال: ٤٣، ٤٤).

ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر، فقال له الحُباب بن المنذر الأنصارى -وكان مشهورًا بجودة الرأى-: يا رسول الله، هذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال: **«بل هو الرأى والحرب والمكيدة»**، فقال: يا رسول الله، ليس لك هذا بمنزل، فانهضْ بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغوِّر ما عداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماءً فنشرب ولا يشربون، فقال الرسول ﷺ: **«لقد أشرت بالرأى»**، ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم، ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغُوِّرت لينقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين، وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه.

ثم قال له سعد بن معاذ، سيد الأوس: يا نبىَّ الله، ألا نبنى لك عريشًا، تكون فيه ونُعدّ عندك ركائبك ثم نَلْقَى عدونا؛ فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا (من قومنا) فقد تخلف عنك أقوام يا نبىَّ الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولا أطوع لك منهم لهم رغبة فى الجهاد ونية، ولو ظنوا أنك تَلْقَى حربًا ما تخلفوا عنك، إنما ظنوا أنها العير، يمنعك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك، فقال ﷺ: **«أو يقضى الله خيرًا من ذلك»**، ثم بُنى للرسول ﷺ عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب.

ولما اجتمعوا عدَّل ﷺ صفوفهم، مناكبهم متلاصقة، فصاروا كأنهم بنيان مرصوص، ثم نظر لقريش فقال: **«اللَّهم هذه قريش قد أقبلت بِخُيَلائها وفخرها تُحادّك وتُكذِّبُ رسولَكَ، اللَّهم فنصرُكَ الذى وعدتَنى به»**.

وفى هذا الوقت وقع خُلْفٌ بين رؤساء عسكر المشركين، فإن عتبة بن ربيعة أراد أن يمنعَ الناسَ من الحرب ويحمل دمَ حليفِهِ عمرو بن الحضرمىِّ، الذى قُتل فى سرية

عبد الله بن جحش، ويحملَ ما أصيب من عِيره، ودعا الناسَ إلى ذلك، فلما بلغ أبا جهل الخبرُ وسَمَهَ بالجبن، وقال: والله لا نرجع حتى يحكمَ الله بيننا وبين محمد.

وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الأسودُ بن عبد الأسد المخزومي وقال: أعاهدُ اللهَ لأشرَبَنَّ من حَوْضِهم، أو لأهْدِمَنَّه، أو لأمُوتَنَّ دونه، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه، فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه لِيَبَرَّ قَسَمَه، فأتبعه حمزة فقتله، ثم وقف ﷺ يحرِّض الناس على الثبات والصبر، وكان فيما قال: **«وإن الصبرَ فى مواطنِ البأسِ مما يفرِّج الله به الهمَّ، وينجِّى به من الغم»**.

ثم ابتدأ القتالُ بالمبارزة، فخرج من صفوف المشركين ثلاثةُ نفر: عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فطلبوا أكفاءهم فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: لا حاجة لنا بكم، إنما نريد أكفاءنا من بنى عمنا، فأخرجَ لهم ﷺ عبيدةَ بن الحارث ابن المطلب للأول، وحمزةَ بن عبد المطلب للثانى، وعليَّ بن أبى طالب للثالث، فأما حمزة وعليٌّ فقتلا صاحبيهما، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين، كلاهما جرح صاحبَه، فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه، وحُمل عبيدةُ بين الصفوف جريحًا يسيل مخ ساقه، وأضجعوه إلى جانب موقفه ﷺ، فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريف، فوضع خده عليها وبشَّره ﷺ بالشهادة، فقال: وددت -والله- أن أبا طالب كان حيًّا ليعلم أننا أحق منه بقوله:

**ونسلمه حتى نصرَّع حوله ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائل**(١)

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف ﷺ بين الصفوف يعدِّلها بقضيب فى يده، فمرَّ بِسَوَاد بن غَزِيَّة، حليف بنى النجار، وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال: «استقم يا سَوَاد»، فقال: أوجعتنى يا رسول الله، وقد بُعثت بالحق والعدل فأقدْنى من نفسك، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال: **«استَقِد يا سواد»**، فاعتنقه سَوَاد وقبَّل بطنه، فقال ﷺ: **«ما حملك على ذلك؟»**، فقال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك، فدعا له بخير.(٢)

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٧٤٣، ٤٧٤٤).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» ص (٢٣٦).

ثم ابتدأ ﷺ يوصي الجيش فقال: «**لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتنفكم القومُ فانضحوهم بالنبل، ولا تسلّوا السيوف حتى يَغْشَوْكم**»، ثم حضهم على الصبر والثبات، ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقفٌ على باب العريش متوشحٌ سيفَه.

وكان من دعاء الرسول ﷺ ذاك الوقت، كما جاء فى «صحيح البخارى»: «**اللهم أنشدُك عهدَك ووعدَك، اللهم إن شئتَ لم تُعبَد**»[1] فقال أبو بكر: حَسْبُك، فإن الله سينجز لك وعده، فخرج ﷺ من العريش، وهو يقول: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ (القمر: ٤٥)، ثم قال ﷺ، يحرض الجيش: «والذى نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رجلُ فَيُقْتَلَ صابرًا محتسبًا، مقبلاً غيرَ مُدْبر إلا أدخلَه اللهُ الجنةَ، ومَن قَتلَ قتيلاً فَلَهُ سلبه». فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها: بَخٍ بَخٍ! ما بينى وبين أن أدخلَ الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء، ثم قذفَ التمرات من يده وأخذَ سيفه وقاتل حتى قُتلَ.[2]

واشتدَّ القتالُ وحميَ الوطيسُ، وأيَّد اللهُ المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئنَّ به قلوبُهم، فلم تكنْ إلاّ ساعةٌ حتى هُزم الجمع وَوَلَّوا الدّبرَ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسِرون، فقُتل من المشركين نحوُ السبعين، منهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبةَ، قُتلوا مبارزة، أول القتال، وأبو البَخْترى ابن هشام، والجراح والد أبى عبيدة، قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر، وقُتل أمية بن خلف وابنه علىّ، اشترك فى قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر، وقد سَعَيا فى ذلك لما كان يفعله بهما أمية فى مكة، ومن القتلى حنظلة بن أبى سفيان، وأبو جهل ابن هشام؛ أثخنه فَتَيان صغيران من الأنصار، لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله ﷺ، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود.

وقُتل نوفل بن خويلد، قتله علىٌّ بن أبى طالب، وقُتل عبيدة والعاص، ولدا أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، وقُتل كثيرون غيرهم.

أما الأسرى فكانوا سبعين أيضًا، قتل منه ﷺ وهو راجعٌ عقبةَ بن أبى معيط، والنضرَ بن الحارث، اللذيْن كانا بمكة من أشد المستهزئين.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٥٣).
(٢) صحيح: رواه مسلم (١١٥٧).

وكانت هذ الواقعة فى ١٧ رمضان، وهو اليوم الذى ابتدأ فيه نزول القرآن، وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة.

وقد أمر ﷺ بالقتلى فنُقلوا من مصارعهم التى كان الرسول ﷺ أخبر بها قبل حصول الموقعة إلى قليب بدر، لأنه ﷺ كان من سننه فى مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بها فدُفنت، لا يسأل عنه مؤمنًا أو كافرًا، ولما ألقى عتبةُ والد أبى حذيفة -أحد السابقين إلى الإسلام- تغيَّر وجه ابنه، ففطن الرسول ﷺ لذلك فقال: **«لعلك دخلك من شأن أبيك شىء؟»** فقال: لا والله، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلاً، فكنتُ أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أحزننى ذلك، فدعا له الرسول ﷺ بخير.

ثم أمر ﷺ براحلَته فشُدَّ عليها حتى قام على شَفَةِ القليب الذى رُمى فيه المشركون، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: **«يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًا؟»**، فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلّم من أجساد لا أرواح فيها!! فقال: **«والذى نفسُ محمد بيده ما أنتم بأسمَعَ لما أقول منهم»**.

وتقول عائشة ﵂: إنما قال: **«إنهم الآن ليعلمون أن ما كنتُ أقول لهم حق»**، ثم قرأت: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (الروم: ٥٢)، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢)، تقول: يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار. (رواه البخاري). [١]

ثم أرسل ﷺ المبشرين، فأرسل عبد الله بن رَواحة لأهل العالية[٢]، وأرسل زيدَ ابن حارثة لأهل السافلة راكبًا على ناقة رسول الله، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول ﷺ والمسلمين -عادة الأعداء فى إذاعة الضراء، يقصدون بذلك فتنة المسلمين- فجاء أولئك المبشرون بما سرَّ أهل المدينة، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله ﷺ وزوج عثمان.

ثم قفل رسول الله ﷺ راجعًا، وهنا وقع خُلْف بين بعض المسلمين فى قسمة

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٧٩)، ومسلم (٢٨٧٥).

(٢) قرى بظاهر المدينة وهى العوالى. (م).

الغنائم؛ فالشبان يقولون: باشرنا القتال فهى لنا خالصة، والشيوخ يقولون: كنا رِدْءًا لكم فنشارككم.

ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو إلى الضعف ويزرع فى القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل؛ أنزل الله حسمًا لهذا الخلاف، أول سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)، فسطع على أفئدتهم نور القرآن فتألفت بعد أن كادت تفترق، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله ﷺ يضعها كيف شاء -كما حكم القرآن- فقسمها ﷺ على السواء: الراجل مع الراجل، والفارس مع الفارس، وأدخل فى الإسهام بعض من لم يحضر لأمر كُلِّف به، وهم: أبو لُبابة الأنصارى؛ لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة، والحارث بن حاطب، لأن الرسول ﷺ خلَّفه على بنى عمرو بن عوف ليحقق أمرًا بلغه، والحارث بن الصِّمة، وخَوَّات بن جبير، لأنهما كُسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد ابن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب[١]، وعثمان بن عفان لأن الرسول ﷺ خلَّفه على ابنته رقية يمرِّضها[٢]، وعاصم بن عدى لأنه خلَّفه على أهل قباء والعالية، وكذلك أسْهَمَ لمن قُتل ببدر وهم أربعة عشر، منهم: عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن هاشم الذى جُرح فى المبارزة الأولى، فإنه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء، ولما قارب ﷺ المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيُّها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

**أسرى بدر:**

ولما دخلوا المدينة استشار ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال عمر بن

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٨٣)، و«المسند» للإمام أحمد (٥/ ٣٢٤).

(٢) صحيح: انظر البخارى (٣٦٩٩)، وقوله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه...».

الخطاب: يا رسول الله، قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، فأرى أن تمكننى من فلان - لقريب له- فأضرب عنقه، وتمكّن حمزة من أخيه العباس، وعليًا من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم؛ هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم؛ ووافقه على ذلك سعد ابن معاذ وعبد الله بن رواحة، وقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضدًا، فقال ﷺ: «**إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال:** ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، **وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال:** ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦)»، ورأى ﷺ رأى أبى بكر[1] بعد أن مدح كلاً من الصاحبين، لأن الوجهة واحدة، وهى إعزاز الدين وخذلان المشركين، ثم قال لأصحابه: «**أنتم اليوم عالة، فلا يفلتنَّ أحد من أسراكم إلا بفداء**».

وقد بلغ قريشًا ما عزم عليه الرسول ﷺ فى أمر الأسرى، فناحت على القتلى شهرًا، ثم أشير عليهم من كبارهم ألا يفعلوا، كي لا يبلغ محمدًا وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم، فسكتوا، وصمموا على أن لا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم وتواصوا فيما بينهم ألا يعجّلوا فى طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه.

**الفداء:**

فلم يلتفت إلى ذلك المطّلب بن أبى وَداعة السَّهْمى، وكان أبوه من الأسرى، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك بعثت قريش فى فداء أسراها وكان أربعة آلاف درهم، ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم، وكان ذلك فداءَه.

**ومن الأسرى:** عمرو بن أبى سفيان، ولما طُلب من أبيه فداؤه أَبَى، وقال: والله لا يجمع محمد بين ابنى ومالى، دعوه يمسكوه فى أيديهم ما بدا لهم، فبينما أبو سفيان

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٦٣).

بمكة إذ وجد سعدَ بن النعمان الأنصارى معتمرًا، فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو، فمضى قوم سعد إلى رسول الله ﷺ وأخبروه، فأعطاهم عَمْرًا ففكوا به سعدًا.

**أبو العاص ابن الربيع:** زوج زينب بنت الرسول ﷺ ، وكان ﷺ قد أثنى عليه خيرًا فى مصاهرته، فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله ﷺ بمكة طلبوا من أبى العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبى لهب بابنتى الرسول فامتنع، وقال: والله لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن لى بها امرأة من قريش، ولما أُسر أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلَّتها بها أمُّها خديجة ليلة عرسها، فلما رأى ﷺ تلك القلادة رَقَّ لها رقَّة شديدة، وقال لأصحابه: **«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا لها قلادتها فافعلوا»**، فرضى الأصحاب بذلك، فأطلقه ﷺ بشرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة، فلما وصل إلى مكة أمرها باللَّحاق بأبيها، وكان الرسول ﷺ أرسل لها من يأتى بها فاحتملوها، هذا، ولما أسلم أبو العاص ابن الربيع قبيل الفتح رد عليه امرأته بالنكاح الأول.(١)

**ومن الأسرى:** سهيل بن عمرو، وكان من خطباء قريش وفصحائها، وطالما آذى المسلمين بلسانه، فقال عمر بن الخطاب: دَعْنى يا رسول الله أنْزِعْ ثُنْيَتَى سهيل، يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا، فقال ﷺ : **«لا أمثّل فيمثل الله بى، وإن كنتُ نبيًا، وعسى أن يقوم مقامًا لا تَذُمُّه»**(٢) وقدم بفدائه مُكْرزُ بن حفص، ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء.

هذا، وقد حقق الله خبر الرسول ﷺ فى سهيل، فإنه لما مات ﷺ أراد أهل مكة الارتداد، كما فعل غيرهم من الأعراب، فقام سهيل هذا خطيبًا، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ : أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ثم قال: والله إنى أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها فلا يغرنّكم هذا (يريد أبا سفيان) من

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٩٢).
(٢) انظر «البداية والنهاية» (٣/ ٣١١).

أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بنى هاشم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومقوٍّ دينه، وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر)، وإن ذلك لم يُزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه.

فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا ﷺ.

**ومن الأسرى:** الوليد بن الوليد افتكَّه أخواه خالد وهشام، فلما افتُدى ورجع إلى مكة أسلم فقيل له: هلاَّ أسلمت قبل الفداء؟ فقال: خفت أن يعدوا إسلامى خوفًا، ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففر إلى النبى ﷺ فى عمرة القضاء.

**ومن الأسرى:** السائب بن يزيد، وكان صاحب الراية فى تلك الحرب، فَدَى نفسه، وهو الجد الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعى.

**ومنهم:** وَهْب بن عمير الجمحى، كان أبوه عُمير شيطانًا من شياطين قريش، كثير الإيذاء لرسول الله ﷺ، جلس يومًا بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر، فقال عُمير: والله لولا دَيْنٌ علىَّ ليس عندى قضاؤه وعيالٌ أخشى عليهم الفقر بعدى كنت آتى محمدًا فأقتله، فإن ابنى أسير فى أيديهم، فقال صفوان: دَيْنك علىَّ وعيالك مع عيالى، فأخذ عُمير سيفه وشحذه وسمَّه، وانطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عُمير متوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا بشرُ. ثمَّ قال للنبى ﷺ: هذا عدو الله عُمير جاء متوشحًا سيفه، فقال: «**أدخله علىَّ**»؛ فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله، فلما رآه ﷺ قال: «**أطلقه يا عمر، ادنُ يا عُمير**»، فدنا وقال: أنعموا صباحًا، فقال ﷺ: «**قد أبدلنا الله تحيةً خيراً من تحيتك وهى السلام**»، ثم قال: «**ما جاء بك يا عمير**»؟ قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «**فما بالُ السَّيف؟**» قال: قَبَّحَهَا اللهُ من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً. قال ﷺ: «**اصدقنى، ما الذى جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك، قال ﷺ: «**كلا، بل قعدت أنت وصفوان فى الحِجر، وقلتما كيت وكيت**»، فأسلم عُميرٌ وقال: كنا نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان! فقال ﷺ: «**فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره**»، فعاد عُمير إلى مكة وأظهر إسلامه.

**ومن الأسرى:** أبو عزيز ابن عمير، أخو مصعب بن عمير، مَرَّ به أخوه، فقال للذى أسره: شُدَّ يدك به، فإن أمه ذاتُ متاع لعلهــا تفديه. فقال له: يا أخى هذه وصايتك بى! ثم بعثتْ أمّه بفدائه أربعة آلاف درهم.

**ومن الأسرى العباس** بنُ عبد المطلب عَمُّ رسول الله ﷺ، كان قد خــرج لهذه الحرب مُكرهًا، ولما وقع فى الأسر طُلب منه فداءُ نفسه وابن أخيه عقيل بن أبى طالب، فقال: عــلام ندفع وقد استُكرهنا على الخروج؟ فـقال ﷺ: «**لقد كنت فى الظاهر علينا**»، فأخذت منه فدية نفســه وابن أخيه، ثم قال للرسول ﷺ: لقد تركتنى فقير قريش ما بقيت، قال: «**كيف وقد تركت لأم الفضل أموالاً، وقلتَ لها: إن متّ فقد تركتك غنية**»، فقال العباس: والله ما اطّلع على ذلك أحد.(١)

وهذا العلم غــاية ما يُفعل من العدل والمساواة، فإنه ﷺ لم يُعْفِ عمَّــهُ مع علمه بأنه إنما خرج مُكْــرهًا، وقد أعفى غيره جمــاعة تحقق له فقرهم، فــهكذا العدل، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥).

**ومن الأسرى أبو عَزَّة الجُمحى الشاعر:** كان شديد الإيذاء لرسول الله ﷺ بمكة، فلما أُسِرَ قال: يا محمد إنى فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن؛ فمنَّ عليه فضلاً منه.

**العتاب فى الفداء:**(٢)

ولما تَمَّ الفداءُ أنزلَ اللهُ فى شأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧، ٦٨)، نهى سبحانه عن اتخــاذ الأسرى قبل الإثخان فى قتــل الذين يصــدّون عن سبــيل الله، ويمنعــون دين الله من الانتــشار، وعــاب بعض المسلمين على إرادة عَــرَضِ الدنيا، وهو الفدية، ولولا حكم ســابق من الله ألا يُعاقَبَ مجتهدًا على اجتهاده ما دام المقــصد خيراً لكان العذاب، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٠١٨).

(٢) انظر: «صحيح السيرة النبوية» ص (٢٦١).

وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا ﷺ فيما جاء به، لأنه لو كان عنده ما كان يعاتب نفسه على عملٍ بناءً على رأى كثير من الصحابة.

وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم فى قلوبهم خيرًا بأن يؤتيهم خيرًا مما أُخذَ منهم ويغفر لهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠).

وهذه الغزوة هى التى أعزَّ الله بها الإسلام وقوَّى أهله، ودمغ فيها الشرك وخرَّب محله، مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم، فهى آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله، مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والخيلاء الزائدة، ولذلك قال الله ممتنًا على عباده بهذا النصر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، أى قليلٌ عددُكم؛ لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، فهى أعظم غزوات الإسلام، إذ بها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره، فقد قتل فيها من صناديد قريش مَنْ كانوا الأعداء الألداء للإسلام، ودخل الرعب فى قلوب العرب الآخرين، فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال؛ فلا جَرَمَ أن شكرنا العليَّ الأعلى على هذه العناية، واتخذنا يوم النصر فى بدر، وهو السابع عشر من رمضان، عيدًا نتذكر فيه نعمة الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين.

## غزوة بنى قينقاع (١)

هذا، وإذا كان للشخص عدوَّان فانتصر على أحدهما حَرَّك ذلك شجو الآخر وهاج فؤادَه، فتبدو بغضاؤه غير مُكْتَرث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بنى قينقاع عند تمام الظفر فى بدر، فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه، وأظهروا مكنون ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار، وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم فى المستقبل إذا شبت الحرب فى المدينة بين المسلمين وغيرهم، فأنزل الله فى سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨)، فدعا ﷺ رؤساءهم وحذَّرهم

(١) انظر: «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٢٨-٢٩).

عاقبة البغى ونكث العهد، فقالوا: يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك، فإنهم لا عِلْم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس، وكانوا أشجع يهود.

فأنزل الله فى سورة آل عمران: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٢، ١٣)، وعند ذلك تبرأ من حلْفهم عبادةُ بن الصامت، أحد رؤساء الخزرج، وتشبَّث بالحلف عبد الله ابنُ أبى، وقال: إنى رجل أخشى الدوائر، فأنزل الله تعليمًا للمسلمين فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١، ٥٢)، وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار إليهم ﷺ فى نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمّه الحمزة، وخلَّف على المدينة أبا لبابة الأنصارى، فحاصرهم خمس عشرة ليلة.

### جلاء بنى قينقاع:

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب، سألوا رسول الله ﷺ أن يخلىَ سبيلهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال، فقبل ذلك ﷺ ووكَّل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال، فذهبوا إلى أذرعات، ولم يَحُلْ عليهم الحول حتى هلكوا، وخمَّس ﷺ أموالهم وأعطى سهم ذوى القربى لبنى هاشم ولبنى المطَّلب دون بنى أخويهما عبد شمس ونوفل، ولما سُئل عن ذلك قال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد فى الجاهلية والإسلام هكذا»، وشبَّك بين أصابعه.

## غزوة السويق

كان أبو سفيان متهيجًا؛ لأنه لم يشهدْ بدراً التى قُتل فيها ابنه وذوو قرباه، فحلف ألا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمدًا، وليبر بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بنى النضير ليهيجهم ويستعين بهم على

حرب المسلمين، فأتى سيدهم حيى بن أخطب فلم يرضَ مقابلته، فأتى سَلاَّم بنَ مشكم فأذن له واجتمع به، ثم خرج من عنده وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة فحرَّقوا فى بعض نخلها ووجدوا أنصاريًا فقتلوه.

ولما عَلِم رسول الله ﷺ خرج فى أثرهم فى مائتين من أصحابه لخمس خلون من ذى الحجة بعد أن ولَّى على المدينة بشير بن عبد المنذر، ولكن لم يلحقهم؛ لأنهم هربوا[1]، وجعلوا يخففون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسراع، فألقوا ما معهم من جُرُبِ السويق فأخذه المسلمون، ولذلك سُميت هذه الغزوة بغزوة السويق.

**صلاة العيد:**

**وفى هذا العام:** سنَّ الله للعالم الإسلامى سنة عظيمة، بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء ويقوّوا عروة الدين الوثقى، وهى الاجتماع فى يومى عيد الفطر وعيد الأضحى، وكان ﷺ يجمع المسلمين فى صعيد واحد، ويصلِّى بهم ركعتين تضرعًا إلى الله ألا يَفْصِم عروتهم، وأن ينصرهم على عدوِّهم، ثم يخطبهم حاضًا لهم على الائتلاف ومذكرًا لهم ما يجب عليهم لأنفسهم، ثم يصافح المسلمون بعضُهم بعضًا، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عامًا لجميع المسلمين، فبعد الفطر زكاته وبعد الأضحى تضحيته، نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويوفقنا لأعمال سلفنا.

**زواج علىّ بفاطمة ﷺ:**

**وفى هذه السنة:** تزوج علىّ بن أبى طالب، وعمره إحدى وعشرون سنة، بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وسنها خمس عشرة سنة، وكان منها عقب رسول الله ﷺ بنوه: الحسن والحسين وزينب.

**وفيها:** دخل ﷺ بعائشة بنت أبى بكر، وسِنُّها إذ ذاك تسع سنوات.

---

(١) وهم الذين انطبق عليهم الحديث النبوى «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» رواه البخارى (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

## السنة الثالثة:

يا لله! يُقضى على الشقى بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر، فيتخذ الغدر رداء، والخيانة شعاراً، فلا ينجح معه إلا إراحة العالم من شره، هذا كعب بن الأشرف اليهودى عظيم بنى النضير، أعمته عداوة المسلمين حتى خلعَ بُرْقُعَ الحياء، وسار يحرِّضُ قُريشًا على حرب رسول الله ﷺ، ويهجوه بالشعر، ويجتهد فى إثارة الشحناء بين المسلمين، فكلما جبر ﷺ كسرًا هاضه هذا الشقىّ بما ينفثه من سموم لسانه.

### قتل كعب بن الأشرف:

ولما انتصر المسلمون ببدر، ورأى الأسرى مقرَّنينَ فى الحبال، خرج إلى قريش يبكى قتلاهم ويحرِّضُهم على حرب المسلمين، فقال ﷺ: «مَن لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسولَه؟» فقال محمد بن مسلمة الأنصارى الأوسى: أتُحبُّ أنْ أقتله؟ قال: «نعم»، قال: أنا لك به، وائذن لى أن أقول شيئًا أتمكن به، فأذن له، ثم خرج ومعه أربعةٌ من قومه حتى أتى كعبًا فقال له: إن هذا الرجل (يريد رسول الله ﷺ) قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإنى قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضًا والله لَتَمَلّنَه، قال: إنا قد اتبعناه فلا نحبُّ أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلِّفنا وَسْقًا أو وَسْقين، قال: نعم، ولكن ارهنوني، قالوا: أى شىء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا، وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنونى أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فَيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهن بوسق أو وسقين، هذا عارٌ علينا، ولكن نرهنك اللأمة (يعنى السلاح) فرضى، فواعده ليلاً أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع، وعبَّاد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبو عبس ابن جبر، وكلهم أوسيون، فناداه محمد بن مسلمة، فأراد أن ينزل، فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة؟! إنك امرؤٌ تحارب؟ فقال: إنما هو ابن أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دُعى إلى طعنة بليلٍ لأجاب.

ثم قال محمد لمن معه: إذا جاءنى فإنى آخذ بشعره فأشُمَّهُ، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فاضربوه، فنزل إليهم كعب متوشّحًا سيفَه، وهو يَنْفَحُ منه ريح المسك، فقال محمد: ما رأيتُ كاليوم ريحًا أطيب، أتأذن لى أن أشَمَّ رأسك؟ قال: نعم، فشمَّه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه، ففعلوا، وأراح الله المسلمين من

شر أعماله التى كان يقصدها بهم، ثم أتوا النبىَّ ﷺ فأخبروه[1]، وكان قتل هذا الشقى فى ربيع الأول من هذا العام، وكان ﷺ إذا رأى من رئيس غدرًا ومقاصد سوء ومحبة لإثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره، وقد فعل كذلك مع أبى عَفَك اليهودى، وكان مثل كعب فى الشر.

## غزوة غطفان [2]

بلغ رسولَ الله ﷺ أن بنى ثعلبة ومحارب من غَطَفَان تجمَّعوا برياسة رئيس منهم اسمه دُعْثُور، يُريدون الغارة على المدينة، فأراد ﷺ أن يَغُلَّ أيديهم؛ كى لا يتمكنوا من هذا الاعتداء، فخرج إليهم من المدينة فى أربعمائة وخمسين رجلاً لثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وخلَّف على المدينة عثمانَ بن عفان، ولمَّا سمعوا بسَيْر رسول الله ﷺ هربوا إلى رءوس الجبال، ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أمَر فعسكروا به، وحدث أنه ﷺ نزع ثوبه يجففه من مطر بلَّله، وارتاح تحت شجرة، والمسلمون متفرقون، فأبصره دُعثور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه، وقال: مَن يمنعك منى يا محمد؟ فقال: «الله»، فأدركت الرجل هيبة ورعب أسْقَطَا السيفَ من يده، فتناوله ﷺ ، وقال لدعثور: «مَن يمنعك منى؟» قال: لا أحد، فعفا عنه، فأسلم الرجل ودعا قومه للإسلام، وحوَّل الله قلبه من عداوة رسول الله ﷺ وجَمْع الناس لحربه، إلى محبته وجمع الناس له؛ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٥٤)[3]، وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

## غزوة بحران [4]

بلغه ﷺ أن جَمْعًا من بنى سُليم يريدون الغارة على المدينة، فسار إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه لست خلَون من جمادى الأولى، وخلَّف على المدينة ابن أم مكتوم[5] ولما وصل إلى بُحران تفرقوا ولم يلقَ كيدًا فرجع.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٠٣٧).

(٢) انظر «البداية والنهاية» (٤/ ٣).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

(٤) انظر «زاد المعاد» (٣/ ١٩٠) و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٥٥).

(٥) كان الرسول ﷺ يخلف ابن أم مكتوم للصلاة بالناس فى المسجد. (م).

**سـريـة:**

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق في وجه تجارتهم، ولا يمكنهم الصبر عنها؛ لأن بها حياتهم، أرسلوا عيرًا إلى الشام من طريق العراق، وكان فيها جَمْع من قريش، منهم: أبو سفيان ابن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، فجاءت أخبارهم لرسول الله ﷺ ، فأرسل لهم زيدَ بن حارثة في مائة راكب يترقبونهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة، فسارت السريةُ حتى لقيت العير على ماء اسمه (القَرْدَة) بناحية نجد، فأخذت العير وما فيها، وهربَ الرجال، وقد خمّس الرسولُ ﷺ هذه حينما وصلت له.

## غـزوة أحـد

لما أصاب قريشًا ما أصابها ببدر، وأُغلقتْ في وجوههم طرقُ التجارة؛ اجتمع مَن بقي من أشرافهم إلى أبي سفيان، رئيس تلك العير التي جلبت عليهم المصائب -وكانت موقوفة بدار الندوة، ولم تكن سُلّمت لأصحابها بعدُ- فقالوا: إن محمدًا قد وَتَرنا، وقتل خيارنا، وإنا رضينا أن نتركَ ربح أموالنا فيها، استعدادًا لحرب محمد وأصحابه، وقد رضي بذلك كلُّ مَن له فيها نصيب، وكان رِبْحُها نحواً من خمسين ألف دينار، فجمعوا لذلك الرجال، فاجتمع من قريش ثلاثةُ آلاف رجل، ومعهم الأحابيش، وهم حلفاؤهم من بني المصْطَلِق وبني الهُون بن خزيمة، ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ومعه عدد ممن هم على شاكلته، وخرج معهم جماعات من أعراب كِنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الشاعر -الذي لا ينسى القارئ أن الرسول مَنَّ عليه ببدر وأطلقه من غير فداء- إنك رجلٌ شاعر فأعِنَّا بلسانك، فقال: إني عاهدت محمدًا أن لا أعينَ عليه، وأخاف إن وقعتُ في يده مرة ثانية ألا أنجو، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه، وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين، ودعا جُبيرُ بن مطعِم غلاماً حبشيًا له اسمه وحشيٌّ، وكان راميًا قلما يخطئ، فقال له: اخرجْ مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة بعمِّي طُعَيمة فأنت حرٌّ، ثم خرج الجيش ومعهم القيانُ والدفوف والمعازف والخمور، واصطحب الأشراف منهم نساءهم كي لا ينهزموا، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحُلَيفة.

أما رسول الله ﷺ فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمه العباسُ بن عبد المطلب الذى لم يخرج مع المشركين فى هذه الحرب محتجًا بما أصابه يوم بدر، ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع ﷺ أصحابه وأخبرهم الخبر، وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن هم أقاموا أقاموا بشرِّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم»، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار، ورأى ذلك أيضًا عبد الله بن أُبيٍّ.

أما الأحداث وخصوصًا مَن لم يشهد بدرًا منهم فأشاروا عليه بالخروج، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب، وما زال هؤلاء بالرسول ﷺ حتى تبع رأيهم؛ لأنهم الأكثرون عددًا والأقوون جلدًا، فصلى الجمعة بالناس فى يومها لعشر خَلَوْنَ من شوال، وحضَّهم فى خطبتها على الثبات والصبر، وقال لهم: **«لكم النصر ما صبرتم»** ثم دخل حجرته ولبس عدته، فظاهر بين درعين وتقلد السيف، وألقى الترس وراء ظهره، ولما رأى ذوو الرأى من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول ﷺ على الخروج لاموهم، وقالوا: رُدوا الأمر لرسول الله ﷺ فما أمَرَ ائتمرنا، فلما خرجَ ﷺ قالوا: يا رسول الله نَتَّبِع رأيك، فقال: **«ما كان لنبى لَبِسَ سلاحَه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه»**.(1)

ثم عقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحُباب ابن المنذر، ولواء الأوس لأُسَيد بن الحضير، وخرج من المدينة بألف رجل، فلما وصلوا رأس الثنية نظر ﷺ كتيبة كبيرة، فسأل عنها، فقيل: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبى من اليهود، فقال: **«إنا لا نستعين بكافر على مشرك»**، وأمر بردهم، لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى فى الخيانة، ثم استعرض الجيش فردَّ مَن استصغر، وكان فيمن ردَّ: رافع بن خديج وسمرة بن جندب، ثم أجاز رَافعًا لما قيل له إنه رام، فبكى سمرة، وقال لزوج أمه: أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردَّنى مع أنى أصرعه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرةُ فأجازه، ثم بات ﷺ

---

(1) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٧١)، و«السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٣٨٠)، و«المغازى للواقدى» (١/ ٢١٧).

محله ليلة السبت، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس.

وفى السَّحَر سار الجيشُ حتى إذا كان بالشوط، وهو بستان بين أُحدُ والمدينة، رجع عبد الله بن أُبى بثلاثمائة من أصحابه، وقال: عصانى وأطاع الوِلْدان، فعلام نقتل أنفسنا؟! فتبعهم عبد الله بن عمرو، والد جابر، وقال يا قوم: أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لأَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٧)، فقال له: أبعدكم الله فسيغنى الله عنكم نبيه، ولما فعل ذلك عبد الله بن أُبىّ همَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الأوس، وبنو سَلِمة من الخزرج، فعصمهما الله.

وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين، فقوم يقولون: نقاتلهم، وقوم يقولون: نتركهم، فأنزل الله في سورة النساء: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ (النساء:٨٨).[1]

ثم سار الجيش حتى نزل الشِّعب من أُحُد[2]، وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة.

أما المشركون فنزلوا ببطن الوادى من قِبل أحُد، وكان على ميمنتهم[3] خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، فجعل ﷺ الزبير بن العوام بإزاء خالد، وجعل آخرين أمام الباقين، واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً، يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصارى، فأوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل، وقال: **«لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا»**.

ثم عدَّل ﷺ الصفوف، وخطب المسلمين، وكان فيما قال: **«ألقى فى قلبى الروحُ الأمين أنه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفى أقصى رزقها، لا ينقص منه شىء، وإن أبطأ عنها، فاتَّقوا الله ربَّكم وأجْمِلوا فى طلب الرزق، لا يحملنَّكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده»**.

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرجَ رجلٌ من صفوف المشركين، فبرزَ له الزبيرُ فقتله، ثم

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٤/ ١٤)، و«صحيح السيرة النبوية» ص (٢٧٧).
(٢) جبل شمالى المدينة الشرقى. (م).
(٣) على ميمنة خيل المشركين وعلى ميسرتها. (م).

حمل اللواء طلحة بن أبى طلحة فقتله عليٌّ، فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة، فحمله أخ لهما اسمه أبو سعد فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم قضى عليه، فتناوب اللواء بعده أربعةٌ من أولاد طلحة بن أبى طلحة، وكلُّهم يُقتلون.

وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبى بكر يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له، فقال ﷺ : **«مَتِّعْنا بنفسك يا أبا بكر»**.

ثم حملتْ خَيّالةُ المشركين على المسلمين ثلاثَ مرات وفى كلِّها ينضحُهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون، ولما التقت الصفوف وحميت الحربُ ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف ويُنشدن الأشعار تهييجًا لعواطف الرجال، وكان ﷺ كلما سمع نشيد النساء يقول: **«اللَّهم بك أحول**(١)**، وبكَ أصولُ، وفيك أقاتلُ، حَسْبى الله ونعمَ الوكيلُ»**.

وفى هذه المعمعة قُتل حمزة بنُ عبد المطلب عَمُّ رسول الله ﷺ ، وسيدُ الشهداء، غافَله وحشىٌّ وهو يجول فى الصفوف، وضربه بحربة لم تخطئ ثنايا(٢) بطنه.

هذا، ولما قُتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر أحدٌ على الدنوِّ منه ولَّوا الأدبار، ونساؤهم يبكين ويُولولن، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب، فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا: ما لنا فى الوقوف من حاجة، ونسُوا أمر السيد الحكيم ﷺ ، فذكَّرهم رئيسُهم به، فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون، أما رئيسُهم فثبتَ وثبتَ معه قليلٌ منهم.(٣)

فلما رأى خالد بن الوليد أحدُ رؤساء المشركين خُلُوَّ الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش فقتل مَنْ ثبت من الرماة، وأتى المسلمين من ورائهم، وهم مشتغلون بدنياهم، فلما رأوا ذلك البلاء دُهشوا وتركوا ما بأيديهم، وانتقضتْ صفوفهم واختلطوا من غير شعار، حتى صارَ يضرب بعضُهم بعضًا، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله، وكان من المشركين رجل يقال له: ابن قمئة، قتل مصعبَ بن عمير

---

(١) أحُول: بالحاء المهملة أمنع. (م).

(٢) فى «السيرة النبوية» لأحمد زينى دحلان: فوقعت الحربة فى ثنيته وهو موضع تحت السرة وفوق العانة، وكذا فى «السيرة الحلبية» (جـ٢، ص ٢٦). (م).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٣٠٣٩).

صاحبَ اللواء، وأشاع أن محمدًا قد قُتل، فدخل الفشلُ في المسلمين حتى قال بعضُهم: علامَ نُقَاتِلُ إذا كان محمدٌ قد قُتل فارجعوا إلى قومكم يؤمِّنُوكم وقال جماعة: إذا كان محمد قد قُتل فقاتلوا عن دينكم.

وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعةٌ من المسلمين، من بينهم الوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد، ورفاعة بن المعلَّى، وعثمان بن عفان، وتوجَّهوا إلى المدينة، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث.

وثبتَ رسولُ الله ﷺ ومعه جماعة، منهم: أبو طلحة الأنصاري[1] استمرَّ بين يديه يمنع عنه بحجفته، وكان راميًا شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء. وكلُّ مَن كان يمر ومعه كنانة يقول له ﷺ: «**انثرها لأبي طلحة**»، وكان ينظر إلى القوم ليرى مواضع النبل، فيقول له أبو طلحة: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي، لا تنظر يُصيبُك سهمٌ من سهام القوم! نحري دون نحرك.

وممن ثبت سعدُ بن أبي وقاص، فكان ﷺ يقول له: «**ارم سعد، فداك أبي وأمي**»، ومنهم سهل بن حُنَيف، وكان من مشاهير الرماة، نضحَ عن رسول الله ﷺ بالنبل حتى انفرج عنه الناس.[2]

ومنهم: أبو دُجانة سماك بن خَرَشَة الأنصاري، تترس على رسول الله ﷺ، فصار النبلُ يقع على ظهره، وهو منحنٍ حتى كثر فيه وكان يُقاتل عن الرسول ﷺ زياد بن الحارث حتى أصابت الجراحُ مقاتلَه، فأمر به فأدني منه ووسَّده قدمَه حتى مات. وقد أصابه ﷺ شدائد عظيمة تَحَمَّلَها بما أعطاه الله من الثبات، فقد أقبل أُبَيُّ ابن خلف يُريد قتلهُ، فأخذ ﷺ الحربة ممن كانوا معه وقال: خلُّوا طريقه، فلما قرب منه ضربَه ضربةً كانت سببَ هلاكه وهو راجع.

ولم يقتل رسولُ الله ﷺ غيرَه لا في هذه الغزوة ولا في غيرها.

وكان أبو عامر الراهب قد حُفَر حُفَرًا وغطَّاها ليقعَ فيها المسلمون فوقعَ الرسول ﷺ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) «صحيح السيرة النبوية» ص (٢٩٦).

فى حفرة منها، فأغمى عليه وخُدشت ركبتاه، فأخذ علىٌّ بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله -وهما ممن ثبت- حتى استوى قائمًا، فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر ربَاعيته، فتبعه حاطبُ بن أبى بلتعة فقتله، وشَجَّ وجهَه ﷺ عبد الله بن شهاب الزهرى، وجُرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة، غضب الله عليه، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلْقتين حتى نزعهما فكُسرت فى ذلك ثنيتاه، وقال حينئذ ﷺ : **«كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم»** فأنزل الله فى سورة آل عمران: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ (آل عمران: ١٢٨). (١)

وكان أولَ من عرفَ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الدهشة كعبُ بن مالك الأنصارى، فنادى: يا معشر المسلمين أبشروا، فأشار إليه الرسول ﷺ : أن اصمت، ثم سار بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، يريد الشعب ومعه جمع، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلىّ، وطلحة، والزبير، والحارث بن الصِّمة، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله ابن المغيرة يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، فعثر به فرسه ووقع فى حفرة، فمشى إليه الحارثُ بن الصِّمة وقتله، ولما وصل الشِّعْبَ جاءت فاطمةُ فغسلت عنه الدم، وكان علىٌّ يسكب الماء، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم، ثم أراد ﷺ أن يعلوَ الصخرة التى فى الشعب، فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه فحمله طلحةُ بن عبيد الله حتى أصعده، فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال: **«لا ينبغى لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك»**، ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة فأنزلوهم.

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله ﷺ كثيرٌ من الجراحات، لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفًا أن يصل للرسول ﷺ ، فوُجد بطلحة نيفٌ وسبعون جراحة، وشُلَّتْ يده، وأصاب كعبَ بن مالك سبع عشرة جراحة.

أما القتلى فكانوا نيّفًا وسبعين، منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار.

ومن المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٩١).

ومن الأنصار: حنظلة بن أبى عامر، وعمرو بن الجموح، وابنه خلاَّد بن عمرو، وأخو زوجه والد جابر بن عبد الله، فأتت زوج عمرو هند بنت حرام وحملتهم: زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة، فنهى ﷺ عن الدفن خارج أحد، فرجعوا.

وقُتل سعد بن الربيع، وأرسل ﷺ مَنْ يأتيه بخبره، فوجده بين القتلى، وبه رمق. فقيل له: إن رسول الله ﷺ يسأل عنك، فقال لمبلِّغه: قل لقومى: يقولُ لكم سعدُ ابن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر.

وقُتل أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، فإنه لما سمع بقتل رسول الله ﷺ قال: يا قوم، ما تصنعون بالبقاء بعده؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، فلم يزل يُقاتل حتى قُتل رضي الله عنه.(1)

ومَثَّلَتْ قريش بقتلى أحد، حتى إن هندًا زوج أبى سفيان بقرت بطن حمزة، وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها، وفعلوا قريبًا من ذلك بإخوانه الشهداء، ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته: أنْعَمْتَ فَعَالِ، إن الحربَ سجَال، يومٌ بيوم بدر، وموعدكم بدر العام المقبل، ثم قال: إنكم ستجدون فى قتلاكم مُثَلاً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة ولم يعرجوا على المدينة، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا فى ذلك اليوم، وإلا لم يكن بدٌّ من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم.

ثم تفقَّد ﷺ القتلى، وحزن على عمه حمزة حزنًا شديدًا، ودفن الشهداء كلهم بأحد، كل شهيد بثوبه الذى قُتل فيه، وكانوا يدفنون الرجلين والثلاثة فى لحد واحد، لما كان عليه المسلمون من التعب، فكان يشقّ عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة.

ولما رجع المسلمون إلى المدينة سَخِر منهم اليهود والمنافقون، وأظهروا ما فى قلوبهم من البغضاء، وقالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران: ١٥٦).

وهذا الذى ابتُلى به المسلمون درس مهمٌّ لهم، يذكِّرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا:

---

(١) «صحيح السيرة النبوية» ص (٢٩٤).

**أولهما:** طاعة الرسول فى أمره، فقد قال للرماة: «**لا تبرحوا مكانكم إن نحن نُصرنا أو قُهرنا**»، فعصوا أمره ونزلوا.

**الثانى:** أن تكون الأعمال كلُّها لله، غير منظور فيها لهذه الدنيا، التى كثيراً ما تكون سببًا فى مصائب عظيمة، وهؤلاء أرادوا عَرَضَ الدنيا والتهوا بالغنائم حتى عُوقبوا.

وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران التى فَصَّلَتْ غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).(١)

فسبب هذا الابتلاء التنازع فينبغى الاتفاق، والفشل فينبغى الثبات، والعصيان فينبغى طاعة الرئيس، نسأل الله التوفيق.

## غزوة حمراء الأسد

لما رجع ﷺ إلى المدينة أصبح حَذِراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم، فنادى فى أصحابه بالخروج خلف العدو، وألا يخرج إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، فضمَّدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يُحَلَّ، فأعطاه عليَّ بن أبى طالب، وولَّى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد(٢)، وقد كان ما ظنه الرسول ﷺ حقاً، فإن المشركينَ تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة، حتى يتم لهم النصر، فأصروا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروج الرسول ﷺ فى أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس، وألقى الله الرعب فى قلوبهم، فتمادَوْا فى سَيْرِهم إلى مكة.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٨٥)، و«المغازى» للواقدى (١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) موضع على ثمانية أميال من المدينة بطريق مكة. (م).

وظفر ﷺ وهم فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر، الذى مَنَّ عليه ببدر بعد أن تعهد ألا يكون على المسلمين، فأمر بقتله، فقال: يا محمد، أقلنى وامنن علىَّ ودعنى لبناتى، وأعطيك عهدًا ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: **«لا والله! لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعتُ محمداً مرتين، لا يُلْدغُ المؤمنُ من جحر مرتين، اضربْ عنقه يا زيد»** فضرب عنقه.(١)

وفى هذا تأديبٌ عظيم من صاحب الشرع الشريف، فإنّ الرجل الذى لا يحترز مما أصيب منه ليس بعاقل، فلابد من الحزم لإقامة دعائم المُلك.

**حوادث:**

**وفى هذه السنة:** زوَّج ﷺ بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده، ولذلك كان يُسَمَّى ذا النورين.

**وفيها:** تزوج ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب وأمُّها أخت عثمان بن مظعون، وكانت قبله تحت خُنيس بن حذافة السهمى ﷺ، فتوفى عنها بجراحة أصابته ببدر.

**وفيها:** تزوج ﷺ زينبَ بنت خزيمة الهلالية من بنى هلال بن عامر، كانت تُدْعَى فى الجاهلية أم المساكين، لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش، فقتل عنها بأُحُد، وهى أختُ ميمونة بنت الحارث لأمها.

**وفيها:** وُلد الحسن بن علىّ ﷺ.

**وفيها:** حرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها، فيصعب إذاً تحريمها دفعة واحدة، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها، لأن المنكر إذا أسند تحريمه لحادثة أقر الجميع على تقبيحها، كان ذلك أشد تأثيراً فى النفس، فأول ما بُيّن فيها قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ (البقرة:٢١٩)، فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء، كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجسم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

ولما شربها بعض المسلمين وخلط فى القراءة حرِّمت الصلاة على السكران، فقال تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣).

ولما حدثَ من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حرِّمت قطعياً بقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ[١] وَالأَزْلامُ[٢] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠-٩١)، وقد أجاب المسلمون على ذلك بقولهم: انتهينا، فليجب المسلمون الآن.

(١) هى حجارة يصب عليها دماء الذبائح وتعبد. (م).

(٢) هى القداح التى كانوا يستقسمون بها، وفى قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام نهاية التنفير، ولذلك قال ﷺ: «شارب الخمر كعابد الوثن». (م).

## السنـــة الرابعـــة:

### سريـــة أبى سلمة إلى قطن:[١]

**فى بدء السنة الرابعة**: بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابنى خويلد الأسديين يدعوان قومهما بنى أسد لحربه ﷺ ، فدعا أبا سلمة ابن عبد الأسد المخزومى وعقد له لواءً، وقال له: «**سِرْ حتى تنزل أرض بنى أسد بن خزيمة فأغِر عليهم**»، وأرسل معه رجالاً، فسار فى هلال المحرم حتى بلغ قَطنا[٢] فأغار عليهم فهربوا عن منازلهم، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاءً فأخذها ولم يلقَ حربًا، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه.

**وفى بدئها أيضًا**: بلغه ﷺ أن سفيان بن خالد بن نُبيح الهذلى بعُرَنة[٣] يجمع الجموعَ لحربه، فأرسل له عبد الله بن أنَيْس الجهنى وحده ليقتله، فاستأذن رسولَ الله ﷺ أن يتقوَّل حتى يتمكن، فأذن له وقال: انتسب لخزاعة، فخرج لخمس خلون من المحرم، ولما وصل إليه قال له سفيان: ممن الرجل؟ قال: من خُزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك، فقال له: أجل، إنى لفى الجمع له، فمشى عبد الله معه وحدَّثه، وسفيان يستحلى حديثه، فلما انتهى إلى خبائه تفرَّق الناس عنه، فجلس معه عبد الله حتى إذا نام فقام وقتله، ثم ارتحل حتى أتى المدينة، ولم يلحقه الطلب، وكفى الله المؤمنين القتال.

### سريـــة:

**وفى صفر**: أرسل ﷺ عَشْرة رجال عيونًا على قريش مع رهط عَضَل والقَارَة الذين جاءوا رسولَ الله ﷺ يطلبون مَنْ يفقههم فى الدين، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، حتى إذا كانوا بالرَّجِيع[٤] غدر بهم أولئك الرهط ودلُّوا عليهم هُذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلى، الذى كان قتله عبد الله بن أنيس، فنفروا إليهم فيما يقرب من مائتى رام، واقتفوا آثارهم

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٦٨).

(٢) جبل لبنى أسد بناحية فَيْد شرقى المدينة. (م).

(٣) موضع قريب من عرفات. (م).

(٤) ماء لبنى هذيل بين مكة وعُسْفَان. (م).

حتى قربوا منهم، فلما أحسَّ بهم رجال السرية لجأوا إلى جبل هناك، فقال لهم الأعداء: انزلوا ولكم العهد أن لا نقتلكم، فنزل إليهم ثلاثة اغْتَرُّوا بعهدهم، وقاتلهم الباقون، ومعهم عاصم، غيرَ راضين بالنزول فى ذمة مشرك، ولما رأى الثلاثة الذين سلَّموا عين الغدر امتنع أحدهم فقتلوه، وأما الاثنان[1] فباعوهما بمكة ممن كان له ثأر عند المسلمين وهناك قُتِلا، وقد قال أحدهما، وهو خُبيب بن عدى حين أرادوا قتله:

**ولستُ أبالى حين أُقتل مسلمًا ... على أىِّ جنبٍ كان فى الله مصرعى**

**وذلكَ فى ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأ ... يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ[2]**

**سرية:**

**وفى صفر:** وفد على رسول الله ﷺ أبو عامر بن مالك، مُلاعبُ الأسنة، وهو من رءوس بنى عامر. فدعاه ﷺ إلى الإسلام فلم يُسْلِم ولم يبعد، بل قال: إنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا، ولو بعثتَ رجالاً معى من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك لرجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: «**إنى أخشى عليهم أهل نجد**»، فقال أبو عامر: أنا لهم جار، فأرسل معه المنذر بن عمرو فى سبعين من أصحابه كانوا يُسَمَّون القرَّاء، لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، فساروا حتى نزلوا بئر معونة[3] فبعثوا حَرَام ابن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيدِ بنى عامر، فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب، بل عدا على حَرَام فقتله، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بنى عامر، فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنَّة، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم، وهم: رِعل وذَكوان وعُصَيَّة، فأجابوه وذهبوا معه حتى إذا التقوا بالقرَّاء أحاطوا بهم، وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يُجْدِهم نفعاً لقلة عددهم وكثرة عدوهم، ولم ينجُ إلا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظُنَّ أنه منهم، وعمرو بن أمية كان فى سَرْح القوم.

---

(1) الاثنان هما: خبيب بن عدى، وزيد بن الدثنة. (م).

(2) **صحيح**: رواه البخارى (٤٠٨٩)، وانظر «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٧٠-٧٥).

(3) شرقى المدينة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم. (م)

وأُبلغ ﷺ خبرَ القرَّاء فخطب فى أصحابه، وكان فيما قال:

«**إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربَّنا بلِّغ قومنا أنَّا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضى عنا**»(١)، وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع فى يوم واحد، فحزن عليهم ﷺ حزنًا شديدًا، وأقام يدعو على الغادرين بهم شهرًا فى الصلاة.

## غـزوة بنـى النضيـر(٢)

يا لله ما أسوأ عاقبة الطيش، فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعملٍ غدرٍ يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حصل ليهود بنى النضير، حلفاء الخزرج، الذين كانوا يجاورون المدينة، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن بنوا النضير لم يوفوا بهذه العهود، حسدًا منهم وبغيًا، فبينما رسول الله ﷺ وبعضٌ من أصحابه فى ديار بنى النضير إذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذَ واحدٌ منهم صخرةً، ويلقيها عليه من علو، فأُطْلِع ﷺ على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه، ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم: «اخرجوا من بلادى، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر». إذ الحزم كل الحزم ألا يتهاون الإنسان مع من عُرِف منه الغدر.

فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم إخوانهم المنافقون يقولون: لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم؛ ﴿**لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ (الحشر: ١١، ١٢)، ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد، وتأخروا عن الجلاء، فأمر ﷺ بالتهيؤ لقتالهم، فلما اجتمع الناس خرج بهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى رايته عليًا.

أمّا بنو النضير فتحصَّنوا فى حصونهم، وظنوا أنها مانعتهم من الله، فحاصرهم ﷺ ست ليال، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى إلى تسليمهم، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، ولم يروا من عبد الله بن أُبَىّ مساعدة، بل خذلهم كما خذل بنى قينقاع من

---

(١) صحيح: انظر ما رواه البخارى (٣٩٨٩، ٤٠٨٦)، وانظر «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٧٥- ٧٨).
(٢) انظر «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٨)، «جوامع السير» (ص ١٤٤).

قبلهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفَّ عن دمائهم، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم، إلا آلة الحرب، ففعلَ وصار اليهود يُخَرِّبون بيوتهم بأيديهم؛ كي لا يسكنها المسلمون، ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر، ومنهم أكابرهم حُيَيٍّ بن أخطب وسلاَّم بن أبى الحُقَيْق، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام، وأسلم منهم اثنان: يامين بن عمرو، وأبو سعد ابن وهب، ولم يخمِّس رسولُ الله ﷺ ما أُخذ من بنى النضير، فإنه فىءٌ لم يوجَف عليه بخيلٍ ولا ركاب، ومثل هذا يكون لمعدات الحرب، وللرسول ﷺ يطعم منه أهله، ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ كما قال تعالى فى سورة الحشر: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِه مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّه وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر:٧)، فأعطى ﷺ من هذا الفىء فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وردوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم، وأخذ ﷺ أرضًا يزرعها، ويدَّخِر منها قوت أهله عامًا.

## غزوة ذات الرقاع

**وفى ربيع الآخر:** بلغه ﷺ أن قبائلَ من نجد يتهيئون لحربه، وهم: بنو محارب، وبنو ثعلبة، فتجهَّز لهم، وخرج فى سبعمائة مقاتل، وولَّى على المدينة عثمان بن عفان، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم، فلم يجد فيها أحدًا غير نسوة فأخذهن فبلغ الخبر رجالهم، فخافوا وتفرقوا فى رءوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا للحرب، فتقارب الناسُ وأخافَ بعضُهم بعضًا، ولما حانت صلاة العصر وخاف ﷺ أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلون، صلَّى بالمسلمين صلاة الخوف فألقى الله الرعب فى قلوب الأعداء، وتفرَّقت جموعهم خائفين منه ﷺ .

ومالَ الإمام البخارى إلى أن هذه الغزوة كانت فى السنة السابعة، وأجمعَ أهلُ السِّير على خلافه.

## غزوة بدر الآخرة

لما أهلَّ شعبانُ هذا العام كان موعد أبى سفيان، فإنه بعد انقضاء غزوة أحد قال للمسلمين: موعدنا بدر العام المقبل، فأجابه الرسول ﷺ إلى ذلك، وكان بدر محل

سوق تُعقد كل عام للتجارة فى شعبان، يقيم التجار فيه ثمانيًا، فلما حَلَّ الأجلُ وقريش مُجدبون، لم يتمكن أبو سفيان من الإيفاء بوعده، فأراد أن يخذِّل المسلمين عن الخروج كى لا يُوسَم بخُلْف الوعد، فاستأجر نُعيم بن مسعود الأشجعى فيأتى المدينة، ويُرجفَ بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة.

فقدم نعيم المدينة، وقال للمسلمين: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، ولم يلتفت ﷺ لهذا الإرجاف اتكالاً على ربه، بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبىٍّ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحدًا، لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين، ظانًا أن إرجاف نُعيم يفيد، فيكون المُخْلف هم المسلمون، فسار حتى أتى مَجَنَّة، وهى سوق معروفة من ناحية مرّ الظهران، فقال لقومه: إن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام عشب، فارجعوا.

أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم فى تجارته أحد؛ ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤)، ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبى سفيان: قد والله نهيتك أن تعد القوم، قد اجترأوا علينا، ورأوا أنَّا أخلفناهم.

**حوادث:**

**وفى هذا العام:** وُلد الحسين بن علىٍّ.

**وفيه:** توفيت زينب بنت خزيمة، أم المؤمنين.

**وفيه:** تُوفى أبو سلمة ﷺ، ابن عمة[١] رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، وأول من هاجر إلى الحبشة.

**وفيه:** تزوج ﷺ أمَّ سلمة هنداً زوج أبى سلمة بعد وفاته.

(١) وهى بَرَّة بنت عبد المطلب. (م).

**السنة الخامسة:**

## غزوة دومة الجندل[1]

**فى ربيع الأول من هذا العام:** بلغ النبيَّ ﷺ أن جمعًا من الأعراب بدُومة الجندل يظلمون مَنْ مَرَّ بهم، وأنهم يريدون الدُّنوَّ من المدينة، فتجهَّز لغزوتهم، وخرج فى ألف من أصحابه بعد أن ولَّى على المدينة سباع بن عُرْفطة الغفارى، ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم، فلما بلغهم الخبر تفرقوا، فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم، فأصيب من أصيب وهرب من هرب.

ثم نزل بساحتهم فلم يلقَ أحدًا، وبثَّ السرايا فلم يجدْ منهم أحدًا، فرجع ﷺ غانمًا، وصالح وهو عائد عيينةَ بن حصن الفَزارى، وهو الذى كان يسميه ﷺ: الأحمق المطاع، لأنه كان يتبعه ألف قَنَاة، وأقطعه ﷺ أرضًا يَرْعَى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة؛ لأن أرضه كانت قد أجدبت.

## غزوة بنى المصطلق

**فى شعبان:** بلغه ﷺ أن الحارث بن أبى ضرار، سيد بنى المصطلق، الذين ساعدوا قريشًا على حرب المسلمين فى أحد يجمع الجموع لحربه، فخرج له ﷺ فى جمع كثير، وولَّى على المدينة زيدَ بن حارثة، وخرج معه من نسائه عائشةُ وأمُّ سلمة، وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قَطُّ فى غزوة قبلها، يرجون أن يُصيبوا من عرَض الدنيا، وفى أثناء مسيره ﷺ التقى بعين[2] بنى المصطلق فسأله عن أحوال العدو، فلم يُجِبْ، فأمر بقتله.

ولما بلغ الحارث -رئيس الجيش- مجىء المسلمين لحربه، وأنهم قتلوا جاسوسه، خاف هو وجيشه خوفًا شديدًا، حتى تفرَّق عنه بعضهم، ولمَّا وصلَ المسلمون إلى

---

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين طيبة (المدينة المنورة) خمس عشرة ليلة، (وتسمى الآن مدينة الجوف). (م).

(٢) العين: الجاسوس. (م).

المريسيع[١] تَصَافَّ الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا، فترامَوا بالنبل ساعة، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب، بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية، واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفى بعير والشياه خمسة آلاف، واستعمل الرسولُ ﷺ على ضبطها مولاه شُقران، وعلى الأسرى بريدة.

وكان فى نساء المشركين برَّة بنت الحارث، سيد القوم، وقد أخذ من قومها مئتا أهل بنت أسرى، وُزِّعَتْ على المسلمين.

وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم، فإن بنى المصطلق من أعزّ العرب داراً، فأسْرُ نسائهم بهذه الحال صعبٌ جدًا، فأراد ﷺ أن يجعلَ المسلمين يَمُنّونَ على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم، فتزوجَ برة بنت الحارث التى سماها جُويرية، فقال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ، لا ينبغى أسرهم فى أيدينا، فمنُّوا عليهم بالعِتق، فكانت جُوَيريةُ أيمن امرأةٍ على قومها، كما قالت عائشة ﵂.[٢]

وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

وقد حصل فى هذه الغزوة نادرتان، لولا أن صَاحَبَتهُما حكمةُ رسول الله ﷺ لعادتا بالتفريق على المسلمين.

**فأولاهما:** أن أجيرًا لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج، فضرب الأجير الحليفَ حتى سال دمه، فاستصرخ بقومه الخزرج، واستصرخ الأجيرُ بالمهاجرين، فأقبل الذعر من الفريقين، وكادوا يقتتلون، لولا أن خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**»، وهى ما يقال فى الاستغاثة يا لفلان - فأخبر الخبر، فقال: «**دَعُوا هذه الكلمة فإنها منتنة**»، ثم كلَّمَ المضروبَ حتى أسقط حقه، وبذلك سكنت الفتنة.

فلما بلغ عبدَ الله بن أبىٍّ هذا الخصام غضبَ، وكان عنده رهط من الخزرج

---

(١) ماء لخزاعة على يوم من الفُرع. (م).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠).

فقال: ما رأيت كاليوم مذلة، أوَ قد فعلوها؟ نافرونا فى ديارنا، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨)، ثم التفتَ إلى مَنْ معه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد، فأيتمتم أولادكم، وقَلَلْتم وكثروا، فلا تُنفقوا عليهم حتى يَنْفَضُّوا من عنده.

وكان فى مجلسه شاب حديثُ السن قويُّ الإسلام، اسمه زيد بن أرقم، فأخبر رسول الله ﷺ الخبر فتغيَّر وجهه، وقال: **«يا غلام، لعلكَ غضبت عليه فقلتَ ما قلت؟»** فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته، قال: **«لعلَّه أخطأ سمعُك»**، فاستأذن عمر الرسول ﷺ فى قتل ابن أبيٍّ أو أن يأمر أحداً غيره بقتله، فنهاه عن ذلك، وقال: **«كيف يا عمر إذا تحدَّث الناسُ أن محمداً يقتلُ أصحابه»**، ثم أذَّن بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر، يقصد بذلك ﷺ شَغْلَ الناس عن التكلم فى هذا الموضع، فجاء أسَيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال فى هذا الوقت؟ فقال: **«أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعَم أنه إن رجعَ إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ»**، قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئتَ، هو والله الذليلُ وأنت العزيزُ.

ثم سارَ ﷺ بالناس سيرًا حثيثًا حتى آذتهم الشمس، فنزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض حتى وقعوا نيامًا.

وكلَّم رجالٌ من الأنصار عبدَ الله بن أبَيٍّ فى أن يطلب من الرسول ﷺ الاستغفار، فلوى رأسه واستكبر.

وهنا نزل على الرسول ﷺ سورةُ المنافقين التى فضحتْ عبد الله بن أبَيّ وإخوانه، وصدَّقت زيد بن أرقم.

ولَمَّا بلغ ذلكَ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ استأذن رسول الله ﷺ فى قتل أبيه حذرًا من أن يُكَلِّف بذلك غيرَه فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد، فأمره ﷺ بالإحسان إلى أبيه.[1]

(١) انظر: «صحيح السيرة النبوية» (٢/ ٤٠٩).

حديث الإفك: (1)

**النادرة الثانية:** وهى أفظعُ من الأولى، وأجلبُ منها للمصائب، وهى رميُ عائشة الصِّدِّيقة زوج رسول الله ﷺ بالإفك، فاتَّهموها بصفوان بن المُعطَّل السلمى، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذَّنَ ﷺ ليلةً بالرحيل، وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فإذا عِقْدٌ لها من جَزَع ظفار(2) قد انقطع، فرجعت تلتمس عقدها، فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين كانوا يُرَحِّلُونَها فاحتملوا هَوْدَجَها ظَانِّين أنها فيه، لأن النساء كنَّ إذ ذاك خِفافًا لم يَغْشَهُنَّ اللحمُ، فلم يستنكرِ القوم خِفَّةَ الهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عِقْدَها وليس بالمنزل داعٍ ولا مجيب، فغلبتها عيناها فنامتْ، وكان الذى يسيرُ وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوانَ بن المعطل، فأصبح عند منزلها فعرفها؛ لأنه كان رآها قبل الحجاب، فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه، وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا فى عائشة وصفوان، والذى تَوَلَّى كبر الإفك عبدُ الله بن أُبَىّ.

ولما قدموا المدينةَ مَرِضتْ عائشةُ شهرًا، والناس يُفيضون فى قول أهل الإفك، وهى لا تشعر بشىء، وكانت تعرف فى رسول الله ﷺ رقة إذا مرضت، فلم يعطها نصيبًا منها فى هذا المرض، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: كيف حالكم؟ مما جعلها فى ريب عظيم، فلما نَقِهَت خرجتْ هى وأمّ مِسطح بن أثاثة أحد أهل الإفك -للتبرّز خارج البيوت-، فعثرت أم مِسطح فى مِرْطها فقالت: تَعِسَ مسطح! فقالت عائشة: بئس ما قلتِ!! أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: يا هَنْتَاه أَوَ لم تسمعى ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر، فازدادتْ مرضًا على مرضها.

---

(1) صحيح: رواه البخارى (٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠).

(2) الجزع: الخرز، وظفار مدينة باليمن. (م).

ولما جاءها ﷺ كعادته، استأذنته أن تُمرَّض فى بيت أبيها فأذن لها، فسألت أمَّها عما يقول الناس، فقالت: يا بنية هوّنى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقالت عائشة: سبحان الله!! أوَ قد تحدث الناس بهذا، وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم.

وفى خلال ذلك كان ﷺ يستشير كبارَ أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامةُ بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك! ولا نعلم عليهم إلا خيرًا، وقال علىٌّ بن أبى طالب: لم يضيِّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلْ الجاريةَ تصدقك، فدعا ﷺ بريرةَ جارية عائشة، وقال لها: **«هل رأيت من شىء يريبك؟»**، فقالت: والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمضه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله.

فقام ﷺ من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون، وقال: **«مَن يَعْذِرُنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى، والله ما علمت على أهلى إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما يدخل على أهلى إلا معى»**، فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أعذرك منه؛ فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعدُ بن عبادة الخزرجى وقال: كذبت لعمر اللّه، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أنه يُقتل، فقام أسيد بن حضير، وقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين، وكادتْ تكون فتنة بين الأوس والخزرج، لولا أن رسول الله ﷺ نزل من فوق المنبر وخَفَّضَهم حتى سكتوا.

أما عائشة فَبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، وبينما هى مع أبويها إذ دخل النبىُّ ﷺ فسلَّم ثم جلس، فقال: «أما بعد يا عائشة، إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللّه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف وتاب تاب الله عليه، فتقلَّص دمعُ عائشة وقالت لأبويها: أجيبا رسول الله، فقالا: والله ما ندرى ما نقول، فقالت: إنى والله لقد علمتُ أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم إنى بريئة لا تصدّقونى،

ولئن اعترفتُ لكم بـأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقـني، فوالله لا أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨).

ثم تحوَّلت واضطجعتْ على فراشها، ولم يزاول رسولُ الله ﷺ مجلسَه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:١١-٢١).

فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحـك، وبشَّر عائشة بالـبراءة، فقالت لهـا أمُّها: قومي واشكري رسول الله ﷺ فقالت: لا والله، لا أشكر إلا الله الذي برَّأني.

وبعد ذلك أمر ﷺ بأن يُجلد من صرَّح بالإفك ثمـانين جلدة، وهي حد القاذف، وكانوا ثلاثة: حمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت.

وكان أبو بكر ينفق علـى مسْطَح بن أثاثة لقرابته منه، فلمـا تكلَّم بالإفك قطع عنه النفقـة فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)، فقال أبو بكر: بلى نحبُّ ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مسطح.

فهذه مضارُّ المنـافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحـبة وقلوبهم مملوءة حقدًا يتربصون الفتن، فمتى رأوا بابًا لها ولجوه، فنعوذ بالله منهم.

## غزوة الخندق (الأحزاب)[1]

لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها، بل كان فى نفوسهم دائمًا أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم، فذهب جمع منهم إلى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ ومنوْهم المساعدة، فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه، ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمتابعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحًا.

فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة العبدرى، وعددهم أربعة آلاف، معهم ثلاثمائة فرس، وألف بعير.

وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن، الذى جازى إحسان رسول الله ﷺ كفرًا، فإنه -كما قدمنا- أقطعه أرضًا يرعى فيها سوائمه، حتى إذا سمن خفُّه وحافره قام يقود الجيوش لحرب مَنْ أنعم عليه، وكان معه ألف فارس.

وتجهزت بنو مرَّة يرأسهم الحارث بن عوف المرى، وهم أربعمائة.

وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود ابن زخيلة.

وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة.

وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى.

وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان.

ولما بلغه ﷺ أخبار هذه التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع: أيمكث بالمدينة، أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه، فأمر ﷺ المسلمين بعمله، وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية[2]، وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٤/ ١٠٥)، و«الطبقات» (٢/ ٦٥-٧٣)، و«زاد المعاد» (٢/ ٢٨٨).

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، والجمع: الحرار والحرَّات، والحرة الشرقية هى حرة واقم، والغربية هى حرة الوبرة، وتقع المدينة المنورة بينهما. (م).

الحرب جهتها، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق؛ لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل، وعمل معهم ﷺ فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة:

| | |
|---|---|
| اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا | ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا |
| فأنزلنْ سكينةً علينا | وثبِّت الأقدامَ إنْ لاقينا |
| والمشركون قد بَغَوْا علينا | وإن أرادوا فتنةً أبينا[١] |

وأقام الجيش فى الجهة الشرقية مسندًا ظهره إلى سَلْع -وهو جبل مطل على المدينة- وعدتهم ثلاثة آلاف، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عُبادة، أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال، وأما غطفان فنزلت جهة أحد.

وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التى لم تكن العرب تعرفها، فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبلَ، ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسَهم على اقتحام الخندق، ومنهم: عكرمة بن أبى جهل وعمرو بنُ عبد وَدّ وآخرون، وقد برز عليُّ بن أبى طالب رضي الله عنه لعمرو بن عبد وَدّ فقتله وهرب إخوانه، وهوى فى الخندق نوفلُ بن عبد الله فاندقت عنقُه، ورُمى سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أكحله، وهو شريان الذراع.

واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يومًا كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعدُ، وجعل ﷺ على الخندق حُراسًا حتى لا يقتحمه المشركون بالليل، وكان يحرس بنفسه ثلمة[٢] فيه مع شدة البرد، وكان ﷺ يبشِّر أصحابه بالنصر والظفر ويعدهم الخيرَ، أما المنافقون فقد أظهروا فى هذه الشدة ما تكنُّه ضمائرهم حتى قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ وانسحبوا قائلين: إن بيوتنا عورة نخاف أن يغيرَ عليها العدو ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ (الأحزاب: ١٣).

واشتدت الحال بالمسلمين فإن هذا الحصار صَاحَبه ضيق على فقراء المدينة،

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٣٧، ٣٧٩٧)، ومسلم (١٨٠٣).

(٢) ثلمة: الثلمة: الخلل فى الحائط وغيره. (م).

والذى زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بنى قريظة الذين يساكنونهم[١] فى المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود[٢]، وسبب ذلك أن حيى بنَ أخطب، سيد بنى النضير المَجْلِيين، توجه إلى كعب بن أسد القرظى، سيد بنى قريظة، وكان له كالشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فحسّن له نقض العهد، ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين.

ولما بلغت هذه الأخبار رسولَ الله ﷺ أرسل مَسلمة بن أسلم فى مائتين، وزيد ابن حارثة فى ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفًا على النساء والذرارى، وأرسل الزبير بن العوام يستجلى له الخبرَ، فلما وصلَهم وجدَهم حانقين يظهر على وجوههم الشرُّ، ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامه، فرجع وأخبر الرسولَ ﷺ بذلك، وهنالك اشتد وَجَلُ المسلمين وزُلزلوا زلزالاً شديدًا، لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وظنوا بالله الظنون، وتكلم المنافقون بما بدا لهم، فأراد ﷺ أن يرسل لعيينة بن حصن، ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان، فأبى الأنصار ذلك قائلين: إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار، أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها؟!

وإذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون، فانظر إلى هذه العناية من الله بالمتمسكين بدينه القويم، جاء نُعيم بن مسعود الأشجعى، وهو صديق قريش واليهود من غطفان، فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامي، فَمُرنى بأمرك حتى أساعدَك، فقال: **«أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعلَ؟ ولكن خذّلْ عنا ما استطعتَ، فإن الحربَ خُدْعة»**.

**الخدعة فى الحرب:**

فخرج من عنده، وتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم، فقال: يا بنى قريظة، تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم، وإنى محدّثكم حديثاً فاكتموه عنى، قالوا: نعم، فقال: لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وإن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم، فهم

(١) لم يساكنوا المسلمين فى المدينة بل كانوا يسكنون خارج المدينة. (م).

(٢) انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٤٢٤)، و«مغازى الواقدى» (٢/ ٤٥٧)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٩٥).

إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل -يريد الرسول ﷺ - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى أن لا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفًا منهم[١]، فاستحسنوا رأيه، وأجابوه إلى ذلك.

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودِّى لكم ومحبتى إياكم، وإنى محدثكم حديثًا فاكتموه عنى، قالوا: نفعل، فقال لهم: إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعًا من أشرافهم ونعطيهم لك وتردَّ جناحَنا الذى كسرت (يريد بنى النضير) فرضى بذلك منهم، وهاهم مرسلون إليكم فاحذروهم، ولا تذكروا مما قلتُ لكم حرفًا، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشًا، فأرسل أبو سفيان وفدًا لقريظة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا: إنا لا يمكننا أن نقاتل فى السبت (وكان إرساله لهم ليلة سبت) ولم يصبْنا ما أصابنا إلا من التعدِّى فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائنَ منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فتحققت قريش وغطفان كلامَ نُعيم بنِ مسعود، وتفرقت القلوب، فخاف بعضهم بعضًا.[٢]

وكان ﷺ قد ابتهل إلى الله الذى لا ملجأ إلا إليه، ودعاه بقوله: **«اللهم منزلَ الكتاب، سريعَ الحساب، اهزم الأحزابَ، اللهم اهزمهم وانصرْنا عليهم»**.

وقد أجابَ الله دعاءه ﷺ فأرسل إلى الأعداء ريحًا باردة فى ليلة مظلمة، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين، ويهجموا عليهم فى الليلة المدلهمة، فأجمعوا أمرَهم على الرحيل قبل أن يصبحَ الصباحُ، ولما سمع ﷺ الضوضاء فى جيش العدو، قال لأصحابه: **«لابد من حادث، فمن منكم ينظر لنا خبر القوم؟»** فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً، وكان فيهم حُذيفة بن اليمان، فقال ﷺ : **«تسمع صوتى منذ الليلة ولا تجيب!»** فقال: يا رسول الله، البرد شديد، فقال: **«اذهبْ فى حاجة رسول الله، واكشف لنا خبرَ القوم»**، فخاطر رضي الله عنه بنفسه فى خدمة نبيه ﷺ حتى اطَّلع على جَليَّة الخبرِ، وأن الأعداء عازمون على الرحلة.

---

(١) فى ابن هشام: فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهناً من أشرافهم. (م).

(٢) «البداية والنهاية» (٤/ ١١٣)، و«دلائل النبوة» للبيهقى (٣/ ٤٤٥)، و«السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٤٣).

### هزيمة الأحزاب:

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسُهم أبو سفيان يقول لهم: ليتعرَّف كل منكم أخاه وليمسك بيده، حذرًا من أن يدخل بينكم عدوّ، وقد حلَّ عقالَ بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، وقال له صفوان بن أمية: إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمض، فنزل أبو سفيان، وأذن بالرحيل، وترك خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يُدهموا من ورائهم، وأزاح الله على المسلمين هذه الغمة التى تحزَّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منَّة منه وفضلاً لساءت الحال.

وكان جلاء الأحزاب فى ذى القعدة، وكان حقاً على الله أن يسميه نعمةً بقوله فى سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ٩-١٣).

## غزوة بنى قريظة

ولما رجع ﷺ بأصحابه، وأراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحوق ببنى قريظة، حتى يطهِّر أرضه من قوم لم تَعُدْ تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق، ولا يأمن المسلمون جانبهم فى شدة، فقال لأصحابه: «لا يصلينَّ أحد منكم العصرَ إلا فى بنى قريظة»[1]، فساروا مسرعين، وتبعهم ﷺ راكبًا على حماره، ولواؤه بيد عليٍّ بن أبى طالب، وخليفته على المدينة عبد الله ابن أمِّ مكتوم، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف، وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر فى الطريق، فصلاّها بعضُهم حاملين أمر الرسول ﷺ بعدم صلاتها على قصد السرعة، ولم يصلِّها الآخرون إلا فى بنى قريظة بعد مضى وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يعنِّفْ فريقًا منهم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠).

ولما رأى بنو قريظـةَ جيشَ المسلمين ألقى الله الرعبَ فى قلـوبهم، وأرادوا التنصُّل من فعلتـهم القبيحة، وهى الغـدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعـدوّ آخر، ولكن أنَّى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم، وحاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلـة، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً؛ طلبوا من المسلمين أن ينـزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل الرسول ﷺ ، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير مـال ولا سلاح، فلم يرضَ أيضًا، بـل قال: لابد من النزول والرضـا بما يُحكم عليهم، خيـرًا كان أو شرًا، فقالوا له: أرسل لنـا أبا لُبابة نستشيـره، وكان أوسياً من حلفاء بنى قريظة، له بينهم أولاد وأموال.

فلما تـوجَّه إليهم استـشاروه فى النزول علـى حكم الرسول، فقـال لهم: انزلوا. وأومأ بيده إلى حلقه، يريد أن الحكمَ الذبحُ، ويقـول أبو لبابة: لم أبارحْ موقفى حتى علمتُ أنى خـنت الله ورسوله، فنزل من عـندهم قاصدًا المديـنة؛ خجلاً من مـقابلة رسول الله ﷺ ، وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد حتى يقضى الله فيه أمرَه، ولما سأل عنه ﷺ أُخبر بما فعل، فقال: **«أما لو جاءنى لاستغفرتُ له، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه»**.

ثم إن بنى قـريظة لما لم يروا بُـدًا من النزول على حكـم رسول الله فعلوا، فـأمر برجالهم فكتّفوا، فجاءه رجال من الأوس، وسألوه أن يـعاملهم كما عامل بنى قينقاع حلفاءَ إخوانهم الخزرج، فقال لهم: **«ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟»** فقالوا: نعم، واختاروا سيِّـدَهم سعدَ بن معاذ، الذى كان جريحًا مـن السهم الذى أصيب به فى الخندق، وكان مـقيمًا بخيمة فـى المسجد مُعَدة لمعالجـة الجرحى، فأرسل ﷺ من يأتى به، فحملوه على حماره، والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له: أحسن فى مواليك، ألا ترى ما فعل ابن أبىّ فى مواليه؟ فقال رضي الله عنه: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومةُ لائم.

ولما أقبل على الرسول ﷺ وأصحابه وهم جلوس، قال ﷺ : **«قوموا إلى سيِّدكم فأنزلوه»**، ففعلوا، وقالوا له: إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم.

وقال له الرسول ﷺ : «احكم فيهم يا سعد!» فالتفت سعد للناحية التى ليس فيها رسول الله ﷺ وقال: عليكم عهدُ الله وميثاقُه أن الحكمَ كما حكمتُ؟ فقالوا: نعم، فالتفت إلى الجهة التى فيها الرسولُ ﷺ وقال: وعلى مَن هنا كذلك؟ وهو غاضّ طَرْفَه إجلالاً، فقالوا: نعم، فقال: فإنى أحكم أن تقتلوا الرجال، وتَسْبوا النساءَ والذرية وتغنموا الأموالَ، فقال ﷺ : «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد»[1] لأن هذا جزاء الخائن الغادر.

ثم أمر بتنفيذ الحكم فنُفِّذ عليهم، وجُمعت غنائمُهم، فكانت ألفًا وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفى رمح، وخمسمائة ترس وحجفة، ووجد أثاثاً كثيراً وآنية وأجمالاً نواضحَ[2] وشياهًا، فخمّس ذلك كله مع النخل والسبى، للراجل ثلث الفارس، وأعطى النساء اللاتى يُمرّضن الجرحى، ووجد فى الغنيمة جرار خمر فأريقت.

وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات ﷺ، كان فى الأنصار كأبى بكر فى المهاجرين، وقد كان له العزم الثابت فى جميع المشاهد التى تقدمت الخندقَ، وكان ﷺ يحبه كثيرًا، وبشَّره بالجنة على عظيم أعماله، وعقب رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على أبى لبابة بقوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢)، وقد عاهد الله أن يهجر بنى ديار قريظة التى حصلت فيها هذه الزلة.

وبتمام هذ الغزوة أراح الله المسلمين من شرّ مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم تبقَ إلا بقيةٌ من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب، وسيأتى للقارئ قريبًا اليوم الذى يُعاقَبون فيه.

**زواج زينب بنت جحش:**[3]

**وفى هذا العام:** تزوج ﷺ زينب بنت جحش -وأمها أميمة عمته- بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول ﷺ خَطبها له، فتأفَّفَ أهلها من ذلك لمكانها فى الشرف العظيم، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من

(١) صحيح: رواه البخارى (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٨).

(٢) نواضح: جمع ناضح، وهو البعير الذى يستقى عليه الماء. (م).

(٣) انظر ما رواه البخارى (٤٧٨٧، ٧٤٢٠).

الموالى، ويعتقدون أن لا كفء مِنْ سواهم لبناتهم، وزيد -وإن كان الرسول ﷺ تبنَّاه- ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف، فلمَّا نزلَ قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ (الأحزاب:٣٦)، لم يروا بُدًا من القبول، فلما دخل عليها زيد أرَتْه من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله، فاشتكاها لرسول الله ﷺ، فأمره باحتمالها والصبر عليها، إلى أن ضاقت نفسُه، فأخبره بالعزم على طلاقها وقرر ذلك.

ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربًا من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها، حسمًا لهذا الشقاق من جهة، وحفظًا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى، ولكن رسول الله ﷺ خشى من لوم اليهود والعرب له فى زواجه بزوج ابنه، فقال لزيد: «أمسكْ عليك زوجَك، واتقِ الله»، وأخفَى فى نفسه ما أبداه الله، فَبَتَّ الله حُكمَه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المُتَبَنَّى بقوله فى سورة الأحزاب: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب:٣٧)، ثم إن الله حرم التبنى على المسلمين لما فيه من الأضرار، وأنزل فيه فى سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠)، ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد ابن محمد)، وأبدل بذلك أن ذكر اسمه فى القرآن يُتلى على مر الدهور والأعوام.

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا ممن ضاع رشده، ولم يفقه حقيقة ما يقول، فإنهم يذكرون أن الرسول ﷺ توجه يومًا لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة؛ لأن الريح رفعت الستر عنها، فوقعت فى قلبه، فقال: سبحان الله، فلما جاء زوجُها ذكرتْ له ذلك، فرأى من الواجب عليه فراقها، فَتَوَجَّه وأخبر الرسول ﷺ بعزمه، فنهاه عن ذلك ... إلخ، وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه، وزينب بنت عمته وأسلمت قديمًا ورسول الله ﷺ بمكة، فكيف لم يرها وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات، وهى بنت عمته، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة؟! ورسول الله ﷺ هو الذى زوَّجها زيدًا، فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو، ولا مانع يمنعه من ذلك.

ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله فى سورة الحجر المكية: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ (الحجر:٨٨)، وفى سورة طه المكية أيضاً: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (طه:١٣١)، ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متّبعيه وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهى زواجها؟ إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا، ولو حدث أمرَ مثل ذلك من أقل الناس لعيبَ عليه، فكيف بمَن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسنُ الناس خُلُقًا، وأبعدهم عن الدنايا، وأشدُّهم ذكاءً وفراسةً، حتى مدحه الله بقوله فى سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

لاشك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم، والحمد لله قد ناقضت النقلَ والعقلَ، فلم تبقَ شبهة فى أن الحقيقة ما نقلناه لك أولاً، وهو الذى يُستفاد من القرآن الشريف، قال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب:٣٧)، والذى أبداه الله هو زواجه بها ولم يبدِ غير ذلك، وهذا القرآن أعظم شاهد.

**الحجاب:**(١)

**وفيه:** نزلت آية الحجاب، وهو خاص بنساء رسول الله ﷺ، وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيرًا، ويودُّ أن ينزل فيه قرآن؛ وكان يقول: لو أُطاع فيكن ما رأتكنَّ عين، فنزل فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب:٥٣)، فقال بعضهم: أَنُنْهَى أن نكلّم بنات عَمِّنا إلاّ من وراء حجاب؟! لئن مات محمد لأتزوجن عائشة! فنزل بعد الآية المتقدّمة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٣).

أما غيرُ أزواجه ﷺ من المؤمنات فأُمرن بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج، كما أُمر بذلك الرجال، وأُمرن ألا يبدين زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها كالخاتم فى

(١) انظر ما رواه البخارى (٤٠٢، ٤٤٨٣، ٤٧٩٠)، ومسلم (٢٣٩٩).

الإصبع، والخضاب فى اليد، والكحل فى العين، أما ما خفى منها فلا يحلُّ إبداؤه، كالسوار للذراع، والدملج للعضد، والخلخال للرجل، والقلادة للعنق، والإكليل للرأس، والوشاح للصدر، والقرط للأذن، والمراد بالزينة الظاهرة والخفية موضعُها، وأُمرن أيضًا بأن يضربن بخمرهن على الجيوب؛ كى لا تبقى صدورهنَّ مكشوفة، فإن النساء إذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكن يُسْدِلن الخُمُرَ مِن ورائهن، ونُهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال.

وإذا كان النهى عن إظهار صوت الحُلىّ بعدما نُهين عن إظهار الحُلىِّ علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ.

قال تعالى فى سورة النور: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (النور: ٣١).

وكان النساء فى أول الإسلام، كما كن فى الجاهلية، متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار، لا فرق بين الحرة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجن لليل إلى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان[١]، وربما تعرَّضوا للحرة بعلَّة الأمة يقولون: حسبناها أمةً، فأُمرنَّ أن يخالفن بزيهنَّ زىَّ الإماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطى الوجه والأعطاف، ليُحتشمن ويُهبن فلا يطمع فيهن طامع.

قال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ (الأحزاب: ٥٩).

أما حَجْب المرأة عمن يريد خطبتَها فهو أمر لم يكن يُفعل فى عهد الرسول ﷺ ولا فى عهد السلف الصالح، فإن الشارع الحكيم سنَّ ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين فى أمرٍ أجمع عليه أئمة الدين.

---

(١) الغيطان: جمع غائط وهو الأرض المنخفضة. (م).

قال حجة الإسلامى الغزالى فى «الإحياء»: وقد نبَّه الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة، ولذلك استُحبّ النظرُ، فقال: «**إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنَّه أحرى أن يُؤْدَمَ بينهما**» -أى يؤلف بينهما- من وقوع الأدَمَة على الأدَمَة، والأدمة هى الجلدة الباطنة، والبشرة الجلدة الظاهرة، وإنما ذكر للمبالغة فى الائتلاف.

وقال ﷺ: «**إن فى أعين الأنصار شيئاً، فإذا أراد أحدُكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن**»[1،2] قيل: كان فى أعينهنَّ عمش، وقيل: صغر.

وكان بعض الصالحين لا يُنكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازًا من الغرور.

وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همٌّ وغمّ، ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التى تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حَسَّنا عند عامّة المسلمين فى العصور الأولى حَجْب المرأة مطلقًا حسمًا للمفاسد ودَرْءًا للفتنة.

**فرض الحج:**

**وفى هذا العام:** على ما عليه الأكثرون فرض الله على الأمة الإسلامية حجَّ البيتِ مَن استطاع إليه سبيلاً، ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار، فيتجهوا إلى الله، ويبتهلوا إليه أن يؤيدَهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم، وفى ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى.

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٤٢٤).

(٢) رواه مسلم فى كتاب النكاح رقم (١٤٢٤)، وأحمد بن حنبل فى مسنده، واللفظ له. (م).

## السنة السادسة:

**سرية:**[١]

**ولعشر خلَون من محرم السنة السادسة:** أرسل ﷺ محمد بن مَسلمة فى ثلاثين راكبًا لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب، الذين كانوا نازلين بناحية ضَرِيَّة[٢]، فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم، فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم، فاستاقت السرية النَعمَ والشياه، وعادوا راجعين إلى المدينة، وقد التقوا وهم عائدون بثُمامة بن أثال الحنفى، من عظماء بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما أتَوا به رسول الله ﷺ عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق، فإنه أطلق إساره بعد ثلاث، أبى فيها الانقياد للإسلام بعد أن عُرِض عليه.

ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك دينًا عمادُه المحامد، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأسلم غير مكْرَه، وخاطب الرسول ﷺ بقوله: «يا محمد، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلّها إلىَّ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىَّ من دينك، فقد أصبح أحب الدين كلّه إلىَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إلىَّ من بلدك فقد أصبح أحبَّ البلاد إلىَّ» فسُرَّ ﷺ كثيرًا بإسلامه؛ لأن من ورائه قومًا يطيعونه.

ولما رجع ثُمامة إلى بلاده مر بمكة معتمرًا وأظهر فيها إسلامه، فأرادت قريش إيذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التى منها ثُمامة فتركوه، ومع ذلك فقد حلف هو ألا يرسل إليهم من اليمامة حبوبًا حتى يؤمنوا، فجهدوا جدًا ولم يَروا بُدًا من الاستغاثة برسول الله ﷺ، فعاملهم ﷺ بما جُبل عليه من الشفقة والرحمة، وأرسل لثُمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل.

وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة فى الإسلام عقب وفاة الرسول ﷺ حينما ارتد أكثر أهل بلاده، فكان ينهى قومه عن اتباع مُسَيلمة ويقول لهم: إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه، وإنه لَشقاءٌ كتبه الله على من اتبعه، فثبت معه كثير من قومه ﷺ.

---

(١) انظر: «الطبقات» لابن سعد (٢/ ١١١)، و«فتح البارى» (٨/ ٤٢١).

(٢) موضع على سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة. (م).

## غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه، ولم يزل رسول الله ﷺ حزينًا عليهم متشوقًا للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة، فأمر أصحابه بالتجهز ولم يُظهر لهم مقصده، كما هى عادته ﷺ فى غالب الغزوات، لتعمَى الأخبار عن الأعداء، وولَّى على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، وسار فى مائتى راكب معهم عشرون فرسًا، ولم يزل سائرًا حتى مقتل أصحاب الرجيع، فترحم عليهم ودعا لهم، ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا فى الجبال، فأقام ﷺ بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحدًا، ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عُسْفان[1] حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب، فذهبوا إلى كُراع الغَميم[2]، ثم رجع ﷺ إلى المدينة وهو يقول: **«آيبون تائبون، لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاءِ السفر[3] وكآبةِ المنقلَبِ، وسوءِ المنظرِ فى الأهل والمال»**.[4]

## غزوة الغابة

كان للنبى ﷺ عشرون لقحة ترعى بالغابة، فأغار عليها عُيينة بنُ حصن فى أربعين فارسًا واستلبها من راعيها، فجاءت الأخبارُ رسولَ الله ﷺ، والذى بلَّغه هو سَلَمَةُ ابنُ الأكوع، أحدُ رماة الأنصار، وكان عَدَّاءً، فأمره الرسول ﷺ بأن يخرج فى أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون، فخرج يشتد فى أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل، فإذا وُجِّهت الخيل نحوه رجع هاربًا فلا يُلحق، فإذا دخلت الخيلُ بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيرًا مما بأيديهم من الرماح والأبراد ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقَهم الجيش، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش، فإن الرسول ﷺ دعا أصحابه فأجابوه، وأول من انتهى إليه المقداد بن عمرو فقال له: **«اخرج فى طلب القوم حتى الحقك»** وأعطاه اللواء، فخرج وتبعته الفرسانُ حتى أدركوا أواخر العدو، فحصلت بينهم مناوشات، قُتل فيها مسلمٌ ومشركان،

(١) موضع قرب مكة. (م).

(٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال. (م).

(٣) وعثاء السفر: مشقته وشدته. (م).

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (١٣٤٥).

واستنقذ المسلمون غالب اللِّقاح، وهرب أوائل القوم بالبقية، وطلب سلمةُ بن الأكوع من رسول الله ﷺ أن يرسله مع جماعة فى أثر القوم ليأخذَهم على غرة[١] وهم نازلون على أحد مياههم، فقال له ﷺ: «**ملكت فأسجح**»[٢] ثم رجع بعد خمس ليالٍ.

**سرية:**[٣]

كان بنو أسد، الذين مرَّ ذكرهم، كثيرًا ما يؤذون مَنْ يمر بهم من المسلمين، فأرسل لهم ﷺ عُكَّاشة بن مِحْصَن فى أربعين راكبًا ليغير عليهم، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا، وهناك وجدوا رجلاً نائمًا فأمنوه ليدلهم على نَعَم القوم، فدلهم عليها فاستاقوها، وكانت مائة بعير، ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيدًا.

**سرية:**

**وفى ربيع الأول:** بلغه ﷺ أنَ مَنْ بذى القَصَّة[٤] يريدون الإغارة على نَعَم المسلمين التى ترعى بالهَيَفاء[٥]، فأرسل لهم محمد بن مَسلمة فى عشرة من المسلمين، فبلغ ديارهم ليلاً، وقد كمن المشركون حينما علموا بهم، فنام المسلمون ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم، فتواثبوا على أسلحتهم، ولكن تغلَّب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قُتِل، فعاد إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ربيع الآخر ليقتصَّ من الأعداء، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين، فاستاق نَعَمهم ورجع.

**سرية:**

عاكس بنو سُلَيم الذين كانوا من المتحزبين فى غزوة الخندق المسلمين فى سَيْرهم، فأرسل ﷺ زيدَ بن حارثة فى ربيع الآخر ليغير عليهم فى الجمُوم[٦]، فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرَّقوا، ووجدوا هناك امرأة من مُزينة دلتهم على منازل بنى سُلَيم

---

(١) غرة: غفلة. (م).

(٢) ملكت فأسجح: أى: قدرت فسهِّل، وأحسن العفو، وهو مثل سائر، كما فى «النهاية» لابن الأثير. (م).

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٨٣).

(٤) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة فى طريق الربذة. (م).

(٥) موضع قرب المدينة على سبعة أميال. (م).

(٦) ناحية من بطن نخل. (م).

فأصابوا بها نَعَمًا وشاءً، ووجدوا رجالاً أسَروهم، وفيهم زوج تلك المرأة، فرجعوا بذلك إلى المدينة، فوهب الرسول ﷺ لهذه المرأة نفسها وزوجها.[1]

**سرية:**

بلغ الرسول ﷺ أن عيرًا لقريش أقبلت من الشام تريد مكة، فأرسل لها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكبًا ليعترضها، فأخذها وما فيها، وأسر من معها من الرجال، وفيهم أبو العاص ابن الربيع، زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة، فاستجار بزوجه زينب فأجارته، ونادت بذلك فى مجمع من قريش، فقال ﷺ : **«المسلمون يد واحدة، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من اجرت»**[2] وهذا أبلغ ما قيل فى المساواة بين أفراد المسلمين، ورد عليه الرسول ﷺ ماله بأسره لا يُفقد منه شيء، فذهب إلى مكة فأدى لكل ذى حق حقَّه ورجع إلى المدينة مسلمًا، فرد عليه رسول الله ﷺ زوجَه.

**سرية:**

**وفى جمادى الآخرة:** أرسل ﷺ زيدَ بن حارثة فى خمسة عشر رجلاً للإغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة، وهم مقيمون بالطَّرِف[3]، فتوجهت السرية لذلك، ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله ﷺ ، فهربوا وتركوا نعَمَهم وشاءَهم، فاستاقها المسلمون ورجعوا إلى المدينة بعد أربع ليالٍ.

**سرية:**

**وفى رجب:** أرسل ﷺ زيدَ بن حارثة ليغيرَ على بنى فَزَارَةَ لأنهم تعرَّضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه، فلما جاء المدينةَ وأخبر الرسولَ ﷺ الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فَزارة المقيمين فى وادى القرى[4]،

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) صحيح : رواه أبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (١٦٨٣)، وأحمد (٢/ ١٩٢)، وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٣٤٧٥، ٣٤٧٦).

(٣) ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة فى طريق العراق. (م).

(٤) موضع شمالى المدينة على سبع ليال منها. (م).

فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم، وقتلوا منهم جمعًا كثيراً، وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة فاستوهبها ﷺ ممن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة.

**سرية:**

**وفى شعبان:** أرسل ﷺ عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة لغزو بنى كلب فى دَومة الجندل، وقد وصَّاهم ﷺ قبل السفر بقوله: «**اغزوا جميعًا فى سبيل الله، فقاتلوا مَن كفر بالله، ولا تغلُّوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهدُ الله وسيرةُ نبيه فيكم**». (١)

ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو، فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو النصرانى وأسلم معه جَمْع من قومه، وبقى آخرون راضين بإعطاء الجزية، فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم(٢) كما أمره بذلك ﷺ، وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء، بحيث يهم كلاً ما يهم الآخرَ، فنعمّا هى سياسة السلم والمحبة.

**سرية:**

**وفى شعبان:** أرسل ﷺ علىَّ بن أبى طالب فى مائة لغزو بنى سعد بن بكر بفدك(٣)، لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يُعطَوْنه من تمر خيبر، فسارت السرية، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو وأرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها، فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن، فدلهم على موضعهم، فاستاق منه المسلمون نَعَم القوم، وهرب الرعاةُ فحذَّروا قومَهم، فداخلهم الرعب وتفرَّقوا، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاةٍ، وردَّ الله كيدَ المشركين، فلم يمدُّوا اليهود بشىء.

**قتل أبى رافع:**

وكان المحرِّك لأهل خيبرَ على حرب المسلمين، وهو سيِّدهم، أبو رافع سَلاَّم بن

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، والترمذى (١٦١٧).

(٢) وهى تماضر التى ولدت لعبد الرحمن بن عوف ابنه أبا سلمة. (م).

(٣) قرية بينهما وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر. (م).

أبى الحقيق، الملقَّب بتاجر أهل الحجاز، لما كان له من المهارة فى التجارة، وكان ذا ثروة طائلة يُقَلِّبُ بها قلوبَ اليهود كما يريد، فانتدب له ﷺ مَن يقتله، فأجاب لذلك خمسة رجال[١] من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عتيك، ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعبَ بن الأشرف، فإن من نعم الله على رسوله ﷺ أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله ﷺ ، فلا تعمل الأوس عملاً إلا اجتهد الخزرجُ فى مثله.

فأمرَهم الرسولُ ﷺ بذلك بعد أن وصَّاهم ألا يقتلوا وليدًا ولا امرأة، فساروا حتى أتَوْا خيبر، فقال عبد الله لأصحابه: مكانكم فإنى منطلق للبواب ومُتلطفٌ له لعلى أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنَّع بثوب كأنه يقضى حاجته وقد دخل الناس، فهتف به البواب: ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول، فإنى أريد أن أغلق الباب، فدخل وكمن حتى نام البواب، فأخذ المفاتيح وفتح الباب ليسهل له الهرب، ثم توجه إلى بيت أبى رافع وصار يفتح الأبواب التى توصل إليه، وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، فلم يمكنه تمييزه، فنادى يا أبا رافع، قال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغنِ شيئاً، وعند ذلك قالت امرأته: هذا صوت ابن عتيك، فقال لها: ثكلتك أمك، وأين ابن أبى عتيك الآن؟! فعاد عبد الله للنداء مغيِّراً صوته قائلاً: ما هذا الصوت الذى نسمعه يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل، إن رجلاً فى البيت ضربنى بالسيف، فعمد إليه فضربه أخرى لم تغنِ شيئاً، فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغيَّر صوته فوجده مستلقياً على ظهره فوضع السيف فى بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم، ثم خرج من البيت، وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلَّم فانكسرت رجله، فعصبها بعمامته، ثم انطلق إلى أصحابه، وقال: النجاة! قُتل والله أبو رافع، فانتهوا إلى الرسول ﷺ فحدَّثوه، ثم قال لعبد الله: ابسط رجلك، فمسحها ﷺ ، فكأنه لم يشتكها قط، وعادت أحسن ما كانت.

---

(١) فى سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٤: فخرج إليه من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود، حليفٌ لهم من أسلم. (م).

فانظر -رعاك الله- إلى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله ﷺ، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

**سرية:**

ولما قتل أبو رافع(١) ولَّى اليهود مكانه أسير بن رزام، فأرسل ﷺ مَنْ يستعلم له خبره، فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه: سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحدٌ قبلي، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه، وسعى في ذلك، فأرسل ﷺ عبد الله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالته، فخرجوا حتى قدموا خيبر، وقالوا لأسير: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له، قال: نعم، ولي مثل ذلك، فأجابوه، ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ﷺ ويترك ما عزم عليه من الحرب فيولِّيه الرسول ﷺ على خيبر فيعيش أهلها بسلام فأجاب إلى ذلك، وخرج في ثلاثين يهودياً، كل يهودي رديفٌ لمسلم، وبينما هم في الطريق ندم أسير على مجيئه وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن آمَّنوه، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة فقال له: أغدراً يا عدو الله؟! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه، ولم يلبث أن هلك، فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم، وهذا عاقبة الغدر.

**قصة عكل وعرينة:**

قدم على رسول الله في شوال جماعة من عُكْلٍ وعُرَيْنَة فأظهروا الإسلام وبايعوا رسول الله ﷺ، وكانوا سقاماً مصفَّرةً ألوانهم عظيمة بطونهم، فلم يوافقهم هواء المدينة، فأمر لهم ﷺ بذود(٢) من الإبل معها راعٍ، وأمرهم باللحوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا، ولما تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً، فقتلوا الراعي ومثَّلوا به واستاقوا الإبل، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ أرسل وراءهم كرز ابن جابر الفهري في عشرين فارساً، فلحقوا بهم وقبضوا على جميعهم.

---

(١) أي كعب بن الأشرف اليهودي. (م).

(٢) ذود من الإبل: الذود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل ما بين الثلاث إلى العشر، وقال أبو عبيد: الذود من الإناث دون الذكور. (م).

ولما جيء بهم إلى المدينة أمر ﷺ أن يمثَّل بهم كما مثَّلوا بالراعى، فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم، وألقوا بالحرة حتى ماتوا، فهكذا يكون جزاء الخائن الذى لا ينتظر منه صلاحٌ، وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة، وقد نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن المُثْلة.(1)

**سرية:**

جلس أبو سفيان ابن حرب يوماً فى نادى قومه فقال: ألا رجلٌ يذهب لمحمد فيقتله غدراً، فإنه يمشى بالأسواق، لنستريح منه؟ فتقدَّم له رجل وتعهَّد له بما أراد، فأعطاه راحلةً ونفقةً وجهَّزه لذلك، فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صبحَ سادسة من خروجه، فسأل عن رسول الله ﷺ فدلَّ عليه، وهو بمسجد بنى عبد الأشهل، فلما رآه ﷺ قال: **«إن هذا الرجل ليريد غدراً، وإن الله ما نعى منه».**

فذهب لينحنى على الرسول ﷺ فجذَبه أسيد بن حضير من إزاره، وهنالك سقط الخنجرُ، فندم الرجل على فعلته، ثم سأله ﷺ عن سبب عمله، فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه، فخلَّى ﷺ سبيله، فقال الرجل: والله يا محمد ما كنت أخافُ الرجالَ فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت نفسي، ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوعٌ وأنك على حق، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان، ثم أسلم.

وعند ذلك أرسل ﷺ عمروَ بن أمية الضَّمرى، وكان رجلاً جريئاً فاتكاً فى الجاهلية، وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه، فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له، فعرف عمراً أحدُ رجال مكة فقال: هذا عمرو بن أمية ما جاء إلا بشر، فلما رآهم علموا به لم يجد مناصاً من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا إلى المدينة، وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلِّم بيده مفاتيح مكة للمسلمين، ويعتنق الدين الحنيفى القويم.

---

(1) **صحيح**: رواه البخارى (٤١٩٢).

## غـزوة الحديبيـة

رأى ﷺ فى نومه أنه دخل هو وأصـحابه المسجد الحرام آمنين، حـالقين رءوسهم ومقصِّـرين، فأخبر المسلـمين أنه يريد العمرة، واسـتنفر الأعراب الذين حـول المدينة ليكونوا معه، حذراً من أن تردهم قريـش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطأوا عليه؛ لأنهم ظنـوا ألا ينقلب الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهـم أبداً، وتخلَّصوا بأن قالوا: شـغلتنا أمـوالنا وأهلونا فـاستغـفر لنا، فـخرج ﷺ بمن معـه من المهاجـرين والأنصار تبلغ عدّتهم ألفاً وخمسمـائة، وولَّى على المدينة ابن أم مكتوم، وأخرج معه زوجه أم سـلمة، وأخـرج الهَدْى ليـعلم النـاس أنه لم يأتِ مـحارباً، ولم يـكن مع أصحـابه شيء من السـلاح إلا السيـوف فى القُرُب، لأن الـرسول ﷺ لم يرضَ أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون.

ثم سار الجيش حتى وصل عسْفَان[1] فجاءه عيْنُه[2] يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدوا المسلمين عن مكة وألا يدخلوها عليهم عنوةً أبداً، وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم، فقال ﷺ : «هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقـهم؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسار بهم فى طريق وعرة، ثم خرج بهم إلى مستو سهل يملك مكة من أسفلها، فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر.

ولما كان ﷺ بثنية المُرار[3] بركت ناقته فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأت القصواء فقال ﷺ : **«ما خلأت وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذى نفسُ محمد بيده لا تدعونى قريشُ لخصلة فيها تعظيم حرمات الله إلا أجبتهم إليها»**[4]، مع أن المسلمين لو قـاتلوا أعداءهم فى مثـل هذا الوقت لظفروا بهم، ولـكن كفَّ الله أيدى المسلمين عـن قريش، وكف أيدى قريـش عن المسلمين؛ كى لا تُنـتهك حرماتُ الـبيت الذى أراد الله أن يكون حرماً آمناً، يوطدُ المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوَّتهم فيه.

(١) موضع على مرحلتين عن مكة. (م).
(٢) عينه: العين: الجاسوس. (م).
(٣) مهبط الحديبية. (م).
(٤) انظر «زاد المعاد» (٣/ ٢٨١).

ثم أمرهم ﷺ بالنزول أقـصى الحديبـية[١]، وهناك جاء بُديل بـن ورقاء الخُزاعى رسولاً من قريش يسأل عن سبب مـجيء المسلمين، فأخبره ﷺ بمقصده، فلما رجع بُديل إلى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقـوا به، لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله ﷺ كما كانت كذلك لأجداده، وقالوا: أيُريد محمدٌ أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً، تسمع العرب أنه قـد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب مـا بيننا؟ والله لا كان هذا أبداً ومنا عينٌ تطرِفُ.

ثم أرسلوا حُلَيْسَ بن علقمة سيدَ الأحابيش وهم حلفاء قريش، فلما رآه ﷺ قال: «هذا من قوم يعظمون الهـدْي، ابعثوه فى وجهه حتى يراه»، ففعلـوا واستقبله الناس يلبُّون، فلما رأى ذلك حُليس رجع وقال: سبـحان الله، ما ينبغى لهؤلاء أن يصدُّوا، أتحج لخم وجـذام وحمير، ويمنـع عن البيت ابن عـبد المطلب؟ هلكـت قريش وربِّ البيت، إن القـوم أتوا معتمرين!! فلمـا سمعت قريش منه ذلك قـالوا له: اجلسْ إنما أنت أعرابى لا علم لك بالمكايد.

ثم أرسلوا عُروةَ بن مسعود الثقفي، سيدَ أهل الطائف، فتوجه إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد، قد جمعت أوباش[٢] الناس، ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لتفضَّها بهم! إنها قريش قد خرجت تعاهد اللـه ألا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك، فنال منه أبو بكر، وقال: نحن ننكشف عنه؟ ويحك! وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله ﷺ ، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده إذا أراد ذلك، ثم رجع عروةُ وقد رأى ما يصنع بالرسول ﷺ أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه، يتمسَّحـون به، وإذا تكلموا خفضُوا أصواتهم عنده، ولا يحدون النظر إليـه، فقال: والله يـا معشر قريـش، لقد جئتُ كسـرى فى مُلكه وقيـصر فى عظمـته؛ فما رأيـت ملكاً فى قومـه مثل محـمد فى أصحـابه، ولقد رأيت قـوماً لا يسلمـونه لشيء أبداً، فـانظروا رأيكم، فإنه عـرض عليكم رشـداً فاقبلوا مـا عرض عليكم، فإنى لكم ناصح، مع أنى خائف ألا تنصـروا عليه، فقالت قريش: لا تتكلم بهذا، ولكن نردُّه عامَنا ويرجع إلى قابل.

(١) بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها. (م).
(٢) أوباش: أخلاط. (م).

ثم إنَّ الرسول ﷺ اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصدَه، فتوجَّه وتوجَّه معه عشرةٌ استأذنوا الرَّسول ﷺ فى زيارة أقاربهم، وأمر ﷺ عثمان أن يأتى المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وأن الله مظهر دينه، فدخل عثمان مكة فى جوار أبان بن سعيد الأموي، فبلَّغ ما حمل، فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: لا أطوف ورسول الله ﷺ ممنوع، ثم إنهم حبسوه، فشاع عند المسلمين أن عثمان قُتلَ، فقال ﷺ حينما سمع ذلك: **«لا نبرحُ حتى نناجزهم الحرب»**.

**بيعة الرضوان:**

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك -سميت بعدُ بشجرة الرضوان- على الموت، فشاع أمر هذه البيعة فى قريش فداخلهم منها رعب عظيم، وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرزُ بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين علَّهم يصيبون منهم غرَّة فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش جاء جمعٌ منهم وابتدأوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلاً، وقُتل من المسلمين واحدٌ.

**صلح الحديبية:**

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة فى الصلح، فلما جاء قال: يا محمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا، بل شيء قام به السفهاء منا، فابعث إلينا بمن أسرتَ فقال: حتى ترسلوا من عندكم، وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرةَ الذين معه، ثم عرض سهيل الشروط التى تريدها قريش وهي:

١- وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.

٢- من جاء المسلمين من قريش يردُّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون ردَّه.

٣- أن يرجع النبى من غير عمرة هذا العام، ثم يأتى العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام، ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف فى القراب والقوس.

٤- من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فقبل ﷺ كل هذه الشروط، أما المسلمون فداخلهم منها أمرٌ عظيم وقالوا: سبحان الله! كيف نردُّ إليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً؟ فقال ﷺ: **«إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»**.

أما الأمر الثالث وهو صدُّ المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً في قلوبهم، لأن الرسول ﷺ أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين، وقد سأل عمرُ أبا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه: **«وهل ذكر أنه في هذا العام»**.

ثم كُتبت شروط الصلح بين الطرفين، وكان الكاتب عليّ بن أبي طالب، فأملاه ﷺ: **«بسم الله الرحمن الرحيم»**، فقال سهيل: اكتب باسمك اللهم، فأمره الرسول ﷺ بذلك، ثم قال: **«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»**، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك، اكتب: محمد بن عبد الله، فأمر ﷺ علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع، فمحاها النبي ﷺ بيده، وكتبت نسختان: نسخة لقريش ونسخة للمسلمين.

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل ابن سهيل يحجل في قيوده، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه، فقال ﷺ: **«اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم»**.[1] هذا، وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش.

ولما انتهى الأمر أَمَرَ ﷺ أصحابه أن يحلقوا رءوسهم وينحروا الهديَ ليتحلَّلوا من عمرتهم، فاحتمل المسلمون من ذلك هماً عظيماً، حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال، فدخل ﷺ على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها: **«هلك المسلمون، أمرتُهم فلم يمتثلوا»**، فقالت: يا رسول الله، اعذرهم فقد حمَّلت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥).

المسلمون من غير فتح فهُم لذلك مكروبون، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد، فإذا رأوكَ فعلتَ اتَّبعوك، فتقدم ﷺ إلى هديه فنحره، ودعا بالحلاَّق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا.

ثم رجع المسلمون إلى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر، ولما قرَّ قرارُهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعيط، أختُ عثمان لأمه، فطلبها المشركون، فقالت: يا رسول الله، إنى امرأة وإن رجعت إليهم فتنونى فى ديني، فأنزل الله فى سورة الممتحنة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الممتحنة: ١٠).

فكانت المرأة المهاجرة تُستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، ولا من بغض زوج، ولا لالتماس دنيا، ولا لرجل من المسلمين، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ﷺ، ومتى حلفت لا تردُّ بل يُعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها، ويجوز للمسلم تزوجها، وفى الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة بل تردُّ إلى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها.

وقد تمكن أبو بصير، عتبةُ بنُ أسيد الثقفى رضي الله عنه من الفرار إلى رسول الله ﷺ، فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه، فأمره ﷺ بالرجوع معهما، فقال: يا رسول الله، أتردنى إلى الكفار يفتنوننى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم؟ فقال: «إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً»، فلم يجد بدًا من اتباعه، فرجع مع صاحبيه، ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحدهما فقتله، وهرب منه الآخر فرجع إلى المدينة، وقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، أما أنا فنجوت، فقال له: **«اذهب حيث شئت، ولا تقم بالمدينة»**، فذهب إلى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به، واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا، وسار إليه أبو جندل ابن سهيل واجتمع إليه جمع من الأعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الأمداد، فأرسل رجال قريش لرسول الله ﷺ يستغيثون به فى إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق فى إمساك من جاءه مسلماً، فقبل منهم ذلك، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى لم

يتمكنوا من تحملها فى الحديبية حينما أمرهم ﷺ برد أبى جندل[1]، وعلموا أن رأى رسول الله ﷺ أفضل وأحسن من رأيهم، حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: (ما كان فتحٌ فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكنَّ الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعبادُ يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد).

وفى رجوعه ﷺ من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح، وقال سبحانه وتعالى فى أولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ، وفى تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصدِّيق.

### مكاتبة الملوك:

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر سنة ست، وأمن الطريق من قريش كاتب ﷺ ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته، وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجَّه دحية الكلبى بكتاب إلى قيصر ملك الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك.

### كتاب قيصر:

وكان فى الكتاب: [بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تسلمْ يؤتكَ الله أجرك مرَّتين، فإن تولَّيت فإنما عليك إثم الأريسيين[2] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)].

### حديث أبى سفيان:[3]

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفيان ابن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة، فجاءت رسل قيصر

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) الفلاحين. (م).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

لأبى سفيان ودعــوه لمقابلة الملك فأجاب، ولما قدموا عليه فى القدس قــال لترجمانه: سلهم أيهم أقربُ نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا؟ لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبــد مناف غيره، فقــال قيصر: ادنُ منى، ثم أمــر بأصحابه فجُعلوا خلف ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، وقد جعلتكم خلفــه كى لا تخجلوا من رد كذبه عليــه إذا كذب، ثم ســأله: كيف نسب هذا الرجل فــيكم؟ قال: هو فــينا ذو نسب، قال: هل تكلَّم بهذا القول أحدٌ منكم قبلــه؟ قال: لا، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مــا قال؟ قال: لا. قال: فهل كــان من آبائه من مَلك؟ قال: لا، قال: فأشــراف الناس يَتَّبــعُونَه أم ضعــاؤهم؟ قال: بل ضعــفاؤهم، قــال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، قال: هل يرتد أحــد منهم سَخْطة لدينه؟ قال: لا، قال: هل يغدر إذا عــاهد؟ قال: لا، ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى مــا هو فاعل فيــها، قال: فهل قاتلتموه ؟ قال: نعم، قال: فكيف حربكم وحربُه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجَال[1]، مرة لنا ومرة علينا، قال: فبم يأمــرُكم؟ قال: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، وينهى عما كان يعبد آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقــال الملك: إنى سألتُك عن نســبه فــزعمتَ أنه فيكم ذو نســب، وكذلك الرسل تُبعث فى نسب قومــها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قــبله فزعمت أن لا، فلو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لــقلتُ رجلٌ يأتَمُّ بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمــونه بالكذب قبل أن يقول ما قــال فزعمت أن لا، فقلت: مــا كان ليذرَ الكذبَ على الناسَ ويكذب على الله، وســألتك هل كان من آبائه من ملك فــقلت: لا، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب مــلك أبيه، وسألتك أشرافُ الناس يتــبعونه أم ضعفاؤهم فقلت: بل ضعفاؤهــم، وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حــتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد منهم سَخْطة لدينه فقلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل قاتلتموه فقــلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينــه سجال، وكــذلك الرسل تبــتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد

(١) سِجالٌ: نُوَبَ، ،نوبة تكون الغلبة لنا، ونوبة تكون الغلبة له. (م).

وأداء الأمانة، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، فعلمتُ أنه نبىّ، وقد علمتُ أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم، وان كان ما كلمتنى به حقًا فسيملك موضعَ قدمىَّ هاتين، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك.

قال أبو سفيان: فَعَلَتْ أصواتُ الذين عنده وكثر لغطُهم، فلا أدرى ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا.

فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافَه ملكُ بنى الأصفر!!

ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دَسْكَرة له، ثم أمر بأبوابها فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم، هل لكم فى الفلاح والرشد أن يثبتَ ملككم فتُبايِعوا هذا النبى؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم قال: ردوهم علىَّ، فقال لهم: إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم، فسجدوا له ورضوا عنه، فغلبه حُبُّ مُلكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته، كما قال ﷺ، ولكنه رد دحية رداً جميلاً.

**كتاب أمير بصرى:**

وأرسل ﷺ الحارثَ بن عُمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى، فلما بلغ مؤتةَ -وهى قرية من عمل البلقاء بالشام- تعرَّض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال له: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به فَضُرِبَتْ عنقُه، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره، وقد وَجِد لذلك وَجْدًا شديدًا.

**كتاب الحارث بن أبى شِمْر:**

ووجَّه ﷺ شجاعَ بن وهب إلى أمير دمشق من قبل هرقل: الحارث بن أبى شِمْر، وكان يقيم بغوطتها وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمْر، سلام على مَن اتبع الهدى وآمن بالله وصدَّق، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى مُلْكُكَ).

فلمّا قرأ الكتاب رَمَى به، وقال: مَنْ ينزعُ ملكى منى؟ واستعدَّ ليرسلَ جيشًا لحرب المسلمين، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه فى

ذلك، وصادف أن كان عنده دحية، فكتب قيصرُ إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيئ بإيليا ما يلزم لزيارته، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها، فلما رأى الحارثُ كتاب قيصرَ صرفَ شجاعَ بن وهب بالحسنى وَوَصَلَهُ بنفقة وكسوة.

**كتاب المقوقس:**

ووجَّه ﷺ حاطب بن أبى بَلْتَعَةَ بكتاب إلى المقوقس، أميـر مصرَ من جهة قيصر، وكان فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تَسْلَمْ يؤتكَ الله أجرَكَ مرَّتين، وإن توليت فإنما عليك إثمُ القبط، و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾ إلخ الآية) فأوصله له حاطبُ بإسكندرية، فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبيًا أن يدعوَ على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ألستَ تشهد أن عيسى ابنَ مريمَ رسولُ الله، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألاَّ يكون دعا عليهم أن يهلكَهم الله حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنتَ! أنت حكيمٌ جاء من عند حكيم، ثم قال: إنى قد نظرتُ فى أمر هذا النبى فوجدتُ أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا يَنْهَى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضَّال، ولا الكاهن الكذَّاب، ووجدتُ معه آلة النبوة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

ثمّ كتب رد الجواب يقول فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيًا قد بقى، وكنتُ أظن أنه يخرجُ بالشام، وقد أكرمتُ رسولَكَ وبعثتُ لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وبثياب، وأهديتُ إليك بغلة تركبُها، والسلام) وإحدى الجاريتين مارية التى تسرَّى بها ﷺ وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت، ولم يُسْلِم المقوقس.

**كتاب النجاشى:**

ووجَّه ﷺ عمرَو بن أمية الضَّمرىَّ بكتاب إلى النَّجَاشىِّ ملك الحبشة وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة، سلام، أما بعد: فإنى أحمد إليك الله، الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة

الحصينة، فحملت بعيسى من رُوحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودَك إلى الله -عز وجل-، وقد بلغْتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتى، والسلام على مَن اتبع الهدى).

ولما وصلهَ الكتابَ احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو: إنى أعلم -والله- أن عيسى بَشَّرَ به، ولكنَّ أعوانى بالحبشة قليل فأنظِرنى حتى أكثرَ الأعوانَ وألينَ القلوبَ، وقد عرض عمرو على مَن بقى من مهاجرى الحبشة الرجوع إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذى كان أسلم وهاجر بها، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر، فتزوج ﷺ أم حبيبة وهى بالحبشة، والذى زوَّجها له النجاشى بتوكيل منه ﷺ .

### كتاب كسرى:

ووجَّه ﷺ عبدَ الله بنَ حذافةَ السهميَّ بكتاب إلى كسرى ملك الفرس، وفيه: (بسمِ الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبعَ الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية اللّه، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذرَ مَن كان حيًا ويحقَّ القول على الكافرين، أسلمْ تسلمْ، فإن أبيتَ فإنما عليك إثم المجوس) فلما وصله الكتاب مَزَّقَهُ استكبارًا، ولما بلغه ﷺ ذلك قال: «**مزَّقَ الله ملكه كل ممزق**» وقد فعل، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطًا، وقد بدأ هذا الشقى بالعدوان، فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول مَن يأتى به إليه، فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقَتْلِه له، ثم أرسل لعامله فى اليمن ينهاه عما أمره به أبوه.

### كتاب المنذر بن ساوى:

ووجَّه ﷺ العلاءَ بنَ الحضرمى بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، أسلِمْ أنت، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإن مَن صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ذمة الله وذمة الرسول، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومَن أبى فإن عليه الجزية).

فأسلم وكتب فى رد الجواب: «أما بعد يا رسول اللّه، فإنى قرأتُ كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرَكَ»، فكتب إليه ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوَى، سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد: فإنى أذكّرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه مَن يطعْ رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرًا، وإنى قد شَفَّعْتُكَ فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نغيِّرك عن عملك، ومَن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية».

## كتاب مَلِكَىْ عمان:

ووجَّه ﷺ عمرو بن العاص بكتاب إلى جَيفر وعباد ابنى الجلندى ملكَى عُمان وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلَما، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر مَن كان حيًّا ويحقَّ القول علَى الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتما، وإن أبَيْتما فإن ملككما زائل، وخيلى تحلْ بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما).

فلما دخل بنَاديهما عمروٌ سأله عباد بن الجلندى عما يأمر به الرسول ﷺ وينهى عنه، فقال: يأمر بطاعة الله -عز وجل- وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، ويَنْهَى عن الظلم والعدوان والزنى وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعًا، قال عمرو: إن أسلم أخوك مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة مِن غنيِّهم فردها على فقيرهم، فقال عباد: إن هذا لخُلُق حسن، وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات فى الأموال، ولما ذكر المواشى قال: يا عمرو يُؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وتَرِد المياه؟ قال: نعم، فقال عباد: والله ما أرى قومى فى بُعْد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

ثم إن عباداً أوصل عمراً لأخيه جَيفر، فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكنَّاه من الصدقات.

**كتاب هوذة بن عليّ:**

ووجَّه ﷺ سَليطَ بنَ عَمرو العامريَّ بكتاب إلى هَوْذة بن عليٍّ ملك اليمامة، وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هَوْذة بن عليٍّ: سلام على مَن اتبع الهدى، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلِمْ تَسلَمْ، وأجعل لك ما تحت يديك).

فلما جاءه الكتاب كتب فى رده: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومى وخطيبهم، والعرب تهاب مكانى، فاجعل لى بعض الأمر أَتَّبِعْكَ».

ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلتُ، باد وباد[١] ما فى يديه»**، فلم يلبث أن مات مُنَصرفَ الرسول ﷺ من فتح مكة، وكان ﷺ يولِّى على كلِّ قومٍ قبلوا الإسلام كبيرَهم.

(١) باد: هلك. (م).

## السنة السابعة:

## غــزوة خيــبــر

**وفى محرم من السنة السابعة:** أمر ﷺ بالتجهز لغزو يهـود خيبر الذين كانوا أعظم مُهَيِّج للأحزاب ضد رسول الله ﷺ فى غزوة الخندق، والذين لا يزالون مجتهدين فى محالفة الأعراب ضد رسول الله ﷺ ، كما قدمنا ذلك فى قصة كعب بن الأشرف.

وقـد استنـفر رسـولُ الله ﷺ لذلك مَنْ حـوله من الأعـراب الذين كـانوا معـه بالحديبية، وجاء المخلَّفـون عنها ليؤذَن لهم، فقال ﷺ : **«لا تخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً»**، وأمر مناديًا ينادى بذلك.

ثم خرج ﷺ بعد أن ولَّى على المدينة سِبَاعَ بنَ عُرْفُطَةَ الغـفارى، وكان مـعه من أزواجه أمّ سَلمة، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيـبر التى تبعد عن المدينة نحو مائة ميل مـن الشمال الـغربى رفعـوا أصواتهم بـالتكبيـر والدعاء، فـقال ﷺ : **«ارفقـوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»**.(١)

وكانت حـصون خيبـر ثلاثة منفصلاً بعـضها عن بعض، وهى: حـصون «النطاة» وحصون «الكتيبة» وحـصون «الشق». والأولى ثلاثة: «حصن ناعم» و«حصن الصعب» و«حصـن قلة»، والثانيـة حصنان: «حـصن أبىّ» و«حصن البـرىء»، والثالثـة ثلاثة حصون: «حصن القمُوص» و«حصن الوطيح» و«حصن السُّلالم».

فبدأ ﷺ بحصـون النطاة، وعسكر المسلمون شرقـيَّها بعيـدًا عن مدى النبل، وأمر ﷺ أن يُقطع نخلُهم ليُـرهبَهم حـتى يسلموا، فـقطع المسلمـون نحو أربعـمائة نخلة، ولما رأى ﷺ تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع.

ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع فى ذلك اليوم شـيئًا، وفيه مـات محمود بن مَسلمـة أخو محمـد بن مَسلمة، وصار ﷺ يغـدو كل يوم مع بعض الجـيش للمناوشـة ويخلِّف على العـسكر أحـد المسلمـين، حتى إذا كـانوا فى الليلة الـسابعـة ظفر حـارس الجـيش -وهو عمـر بن

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٥، ٦٣٨٤).

الخطاب- بيهودى خارج فى جوف الليل، فأتى به رسول الله ﷺ ، ولما أدرك الرجلَ الرعبُ قال: إن أمَّنتُمُونى أدلكم على أمر فيه نجاحكم، فقالوا: دُلَّنا فقد أمّناكَ، فقال: إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غداً، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غدًا فإنى أدلكم على بيت فيه مَنجنيق ودبابات[1] ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فإنكم تنصبون المَنجنيق ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك.

فقال ﷺ لمحمد بن مَسلمة: «سأعطى الرايةَ غدًا رجلاً يحبُّ الله ورسولَه ويحبانه»، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنَّونَها، حتى قال عمر بن الخطاب: ما تمنَّيْتُ الإمارةَ إلا ليلتئذ.

فلما كان الغد سأل ﷺ عن علىّ بن أبى طالب، فقيل له: إنه أرمد، فأرسل مَن يأتيه به، ولَمَّا جاء تَفَلَ فى عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شىءٌ، ثم أعطاه الرايةَ فتوجه مع المسلمين للقتال[2]، وهناك وجدوا اليهود متجهزين، فخرج يهودىّ يطلب البراز فقتله علىٌّ، ثم خرج مَرْحبُ -وهو أشجع القوم- فألحقه برفيقه، فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام، ثم حملَ المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة.

وانهزم الأعداء إلى الحصن الذى يليه، وهو (حصن الصعب)، وغنم المسلمون من (حصن ناعم) كثيرًا من الخبز والتمر، ثم تتبعوا اليهود إلى (حصن الصعب) فقاتل عنه اليهود قتالاً شديدًا حتى رُدَّ عنه المسلمون، ولكن ثبت الحُبابُ بن المنذر ومَن معه، وقاتلوا قتالاً شديدًا حتى هزموا اليهود، فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصنَ، فوجدوا فيه غنائمَ كثيرةً من الطعام، فأمر ﷺ مناديًا يقول: كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئًا.

ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى (حصن قلة) فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه، وفى اليوم الرابع دلَّهم يهودى

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب تدفع فى أصل الحصن فينقبونها وهم فى جوفها. (م).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٤٠٥، ٢٤٠٦).

على جداول الماء التى يستقى منها اليهود فمنعوها عنهم، فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديدًا انتهى بهزيمتهم إلى (حصون الشق)، فتبعهم المسلمون وبدأوا (بحصن أبى)، فخرج أهله وقاتلوا قتالاً شديدًا أبلى فيه أبو دجانة الأنصارى بلاء حسنًا حتى تمكن من دخول الحصن عَنوةً، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيرًا ومتاعاً وغنمًا وطعامًا، وهرب المنهزمون منه إلى (حصن البرىء) فتمنَّعوا به أشد التمنع، وكان أهله أشد اليهود رميًا بالنبل والحجارة حتى أصاب رسولَ الله ﷺ بعضٌ منه، فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع فى قلب أهله الرعب، وهربوا منه من غير عناء شديد، فوجد فيه المسلمون أوانى لليهود من نحاس وفخار، فقال ﷺ : «اغسلوها واطبخوا فيها».

ثم تتبع المسلمون بقايا العدو إلى (حصون الكتيبة)، وبدأوا بـ (حصن القَمُوص) فحاصروه عشرين ليلة، ثم فتحه الله تعالى على يد علىّ بن أبى طالب، ومنه سُبيت صفيةُ بنتُ حيىٍّ بن أخطب.

ثم سار المسلمون لحصار (حصنى الوطيح والسُّلالم) فلم يقاوم أهلهما، بل سلَّموا طالبين حقن دمائهم، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم، لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوبًا واحداً على ظهره، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك.

وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربية، ووجدوا صحفًا من التوراة فسلموها لطالبيها.

وقد أمر ﷺ بقتل كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق لأنه أنكر حلىّ حيى بن أبى أخطب، وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك.

هذا، والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلاً، وقُتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

وفى هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله ﷺ فأخذ منها مضغة ثم لفظها، حيث أُعلم أنها مسمومة، وأكل منها بِشْر بن البراء فمات لوقته، واحتجم رسولَ الله ﷺ ، وجىء له بالمرأة التى فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك، فأجابت: قلت: إن كان نبيًا لن يضره، وإن كان كاذباً أراحنا الله منه، فعفا عنها ﷺ .(١)

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣١٦٩، ٤٢٤٩).

### زواج صفية:[1]

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج ﷺ صفية بنت حيى، سيد بنى النضير، وأصدقها عِتْقَهَا، وقد أسلمت ﵂ فشرُفت بأمومة المؤمنين.

### النهى عن نكاح المتعة:[2]

ونهى ﷺ ، وهو بخيبر، عن نكاح المتعة وهى النكاح لأجل، وقد كان حلالاً فى الجاهلية، واستُعمل فى بدء الإسلام حتى حرَّمه الشرع فى هذه السنة، ونهى كذلك عن أكل لحوم الحُمُر الأهلية، فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها.

### رجوع مهاجرى الحبشة:

وحين رجوع المسلمين من خيبرَ قدم من الحبشة جعفرُ بن أبى طالب ومعه الأشعريون: أبو موسى وقومه، بعد أن أقاموا فيها نحوًا من عشر سنين آمنين مطمئنين، وفرح ﷺ بمقدمِهم فرحًا عظيمًا، وأعطى للأشعريين من غنائم الحصون المفتوحة صلحًا، وكان مع جعفرٍ أم حبيبة بنت أبى سفيان، أم المؤمنين، وقدم فى هذا الوقت على النبى ﷺ الدَّوْسِيُّون إخوان أبى هريرة ﵁ وهو معهم، فأعطاهم أيضًا رسول الله ﷺ .

### فتح فدك:

وبعد تمام الفتح أرسل ﷺ من يطلب من يهود فَدَك[3] الانقياد والطاعة، فصالحوا رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال، وكانت أرض فَدَك هذه لرسول الله ﷺ خاصة يُنفق منها على نفسه ويعول منها صغير بنى هاشم ويزوّج منها أيِّمهم.

### صلح تيماء:

ولما بلغ يهودَ تَيْماء ما فعله المسلمون بيهود خيبرَ صالحوا على دفع الجزية، ومكثوا فى بلادهم آمنين مطمئنين.

---

(١) صحيح: رواه النسائى (٩/ ١٣٨ كبرى).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥١١٥)، ومسلم (١٤٠٧).

(٣) فَدَك: حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة. (م).

**فتح وادى القرى:**

ثم دعا ﷺ يهودَ وادى القرى إلى الاستسلام فأبوا وقاتلوا، فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً وغنموا منهم مغانم كثيرة، خَمَّسَهَا ﷺ، وترك الأرض فى أيدى أهلها يزرعونها بشطر ما يُخرجون منها، وكذلك صنع بأرض خيبر، وكان يرسل إليهم عبد الله بن رواحة لتقدير الثمر، وكان تقديره شديدًا عليهم، فأرادوا أن يَرْشُوه فقال لهم: يا أعداءَ اللّه، تعطونى السُّحْتَ! والله لقد جئتكم مِن عند أحبّ الناس إلىَّ، ولأنتم أبغضُ إلىَّ مِنَ القردة والخنازير، ولا يحملُنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل.

هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون مِن شر عدو كان يتربص بهمُ الدوائرَ، مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق، ورجع المسلمون مؤيَّدين ظافرين.

**إسلام خالد ورفيقيه:**

وأعقب هذه الغزوةَ وهذا الفتحَ المبين إسلامُ ثلاثة، طالما كانت لهم اليد الطُّولَى فى قيادة الجيوش لحرب المسلمين، وهم: خالد بنِ الوليد المخزومى، وعمرو بن العاص السهمى، وعثمان بن أبى طلحة العبدرى، فسُرَّ بهم ﷺ سرورًا عظيمًا، وقال لخالد: «**الحمد لله الذى هداكَ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوتُ أن لا يُسْلِمَكَ إلاَّ إلى خير**»، فقال: يا رسول اللّه، ادعُ الله لى أن يغفرَ تلك المواطن التى كنت أشهدُها عليك، فقال ﷺ: «**الإسلام يقطع ما قبلَه**». (١، ٢)

**سرية:**

**وفى شعبان:** بلغه ﷺ أن جمعًا من هوازن بتُربَة(٣) يُظهرون العداوة للمسلمين، فأرسل لهم عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلاً، فسار إليهم، ولما بلغهم الخبر تفرَّقوا فلم يجدْ بها عمر أحدًا فرجع.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١)، بلفظ: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله**».

(٢) المشهور أن النبى ﷺ قال له: الإسلام يجُب ما قبله، ومعنى يجُبُّ: يقطع. (م).

(٣) واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها. (م).

**سرية:**

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بناحية فَدَك، فلما ورد بلادَهم لم ير منهم أحداً فأخذ نَعَمَهم، أما القوم فكانوا فى الوادى، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيرًا ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل، ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديدًا حتى قُتل غالبُ المسلمين وجُرِحَ بشير جرحًا شديدًا حتى ظُن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر.

**سرية:**

**وفى رمضان:** أرسل ﷺ غالب بن عبيد الله الليثى إلى أهل الميفعة[1] فى مائة وثلاثين رجلاً، فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضًا وأسروا آخرين، وفى أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين، ولما رأى المشرك الموت فى يد أسامة تشهَّد، فظنَّ أسامةُ أن عدوه إنما قال ذلك تخلّصًا فقتله، ولما رجع المسلمون إلى المدينة وأُخبر رسولُ الله ﷺ بفَعْلَة أسامة قال: «**اقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟! فكيف تصنع بلا إله إلا الله؟!**» قال: يا رسول الله إنما قالها متعوِّذًا من القتل، قال ﷺ: «**فهلا شققت عن قلبه فتعلمَ أصادقٌ هو أم كاذب؟!**» فقال: يا رسول الله، استغفرْ لى، قال ﷺ: «**فكيف بلا إله إلا الله؟!**» فما زال يكررها حتى تمنى أسامةُ أنه لم يُسْلِم قبل ذلك اليوم، وأنزل الله فى ذلك فى سورة النساء: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾ (النساء: ٩٤)، ثم أمر ﷺ أسامة أن يعتق رقبةً كفارةً لأنه قتلُ خطأ.[2]

**سرية:**

**وفى شوال:** بلغه ﷺ أن عيينةَ بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريبًا من خيبر، بأرض اسمها يَمْن وجبَار، للإغارة على المدينة، فأرسل لهم

---

(١) على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد. (م).

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

بشير بن سعد فى ثلاثمائة رجل، فساروا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلّتهم، فأصابوا نَعَمًا كثيرة وتفرق الرِّعاء فأخبروا قومهم، ففزعوا ولحقوا بعُلْيا بلادهم، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما، ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة.

## عمرة القضاء

لما حال الحَوْل على عُمرة الحديبية، خرج ﷺ بمن صُدَّ معه فيها ليقضىَ عُمْرَتَه، واستخلف على المدينة أبا ذرّ الغفارىَّ، وساق معه الهدىَ ستين بَدَنةً، وأخرج معه السلاحَ، حذرًا من غدر قريش، وكان معه مائة فرس عليها محمد بن مسلمة، وعلى السلاح بشير بن سعد.

وأحرم ﷺ من باب المسجد المدنىِّ، ولما انتهى إلى ذى الحُلَيفة قدَّم الخيل أمامه فقيل: يا رسول الله؛ حملتَ السلاحَ وقد شرطوا ألا تحملَه؟ فقال ﷺ : **«لا ندخل الحرم به، ولكن يكون قريبًا منا، فإن هاجنا هائجٌ فزعنا له»**.

فلما كان بمرِّ الظَّهْران قابله نفرٌ من قريش ففزعوا من هذه العدة، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم، فجاءه فتيان منهم، وقالوا: والله يا محمد ما عُرِفتَ بالغدر صغيرًا ولا كبيرًا، وإنا لم نُحْدِثْ حدثًا!! فقال: **«إنا لا ندخل الحرم بالسلاح»**.

ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت، فدخل ﷺ وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كَدَاء، وأمامه عبدُ الله بن رواحة يقول: لا إله إلا اللّه، وحدَه، صدق وعده، ونصر عبدَه، وأعز جندَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه.

وطاف ﷺ بالبيت وهو على راحلته، واستلم الحجرَ بمِحْجَنِه، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط، إظهارًا للقوة؛ لأن المشركين قالوا: سيطوف اليومَ بالكعبةَ قومٌ نهكتهم حُمَّى يثرب، فقال ﷺ : **«رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة»**، واضطبع ﷺ بردائه وكشف عَضُدَه اليمنى شأن الفتوة، وفعل مثله المسلمون.

وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلِّقين رءوسَهم ومقصِّرين كما رأى ﷺ في منامه.[1]

**زواج ميمونة:**

وتزوج ﷺ وهو بمكة ميمونةَ بنتَ الحارث الهلالية، زوجَ عمِّه حمزةَ بن عبد المطلب، شهيدِ أُحُد وخالةَ عبد الله بن العباس، وهى آخر نسائه زواجًا، ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان بسَرِف[2]، ولما خرج ﷺ أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا، ثم رجع ﷺ إلى المدينة فرحًا مسرورًا بما حباه الله من تصديق رؤياه.

(١) انظر: «الاكتفاء» (٢/ ٢٧٢-٢٧٤).
(٢) موضع قرب التنعيم. (م).

## السنة الثامنة:

**سـريـة:**

**وفى صفر:** أرسل ﷺ غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى المُلَوِّح، وهم قوم من العرب يسكنون بالكَديد[1]، فسار القوم حتى إذا كانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء، وكان خصماً لدودًا فأسروه، فقال لهم: ما جئتُ إلا للإسلام، فقالوا له: إن تكن مسلمًا لن يضرَّك رباط ليلة، وإلا استوثقنا منك، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بنى المُلَوِّح فاستاقوا النَّعَمَ والشاء، وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قِبَلَ لهم به، ولكنْ مَنَّ الله على المسلمين، فأرسل سيلاً شديدًا حال بينهم وبين عدوهم، حتى صار المشركون يرون نَعَمَهم تُساق وهم لا يَقدرونَ على ردِّها.

**سـريـة:**

ولما رجع غالبٌ إلى المدينة ظافرًا أرسله ﷺ فى مائتى رجل ليقتص من بنى مُرّة بِفَدَك، وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد، فساروا حتى إذا كانوا قريبًا من القوم خطب غالبٌ فيمن معه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمرًا، فإنه لا رأى لمن لا يُطاع.

ثم آخى بين الجند فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان؛ لا يفارق أحد منكم زميله، وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له: أين صاحبُك؟ فيقول: لا أدرى، فإذا كبَّرت فكبِّروا، فلما أحاطوا بالعدو وكبَّر كبَّروا وجردوا السيوف فلم يُفْلِتْ من عدوهم أحد، واستاقوا نَعَمَهم، فكان لكل واحد من الغزاة عشرةُ أبعرة.

**سـريـة:**

**وفى ربيع الأول:** أرسل ﷺ كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام فى خمسة عشر رجلاً، فوجدوا جمعًا كثيرًا فدعَوْهم إلى الإسلام فلم يجيبوا،

---

(١) موضع بين عسفان وقديد. (م).

وقاتلوا، وكانوا أكثر عدداً، فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعبَ بن عُمير فإنه نجا، وأتى بالخبر إلى رسول الله ﷺ فَشَقَّ عليه، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم فبلغه أنهم تحوَّلوا من منزلهم فَعَدَل عن ذلك.

**غزوة مؤتة:**

جهَّز ﷺ فى جمادى الأولى جيشًا للقصاص ممن قتلوا الحارثَ بنَ عُمير الأزدىَّ رسولَه إلى أمير بصرى، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: **«إن أصيب فالأميرُ جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبدُ الله بن رواحة»**، وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف، فساروا وشيَّعهم ﷺ، وكان فيما وصاهم به:

**«اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانيًا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناء».**

ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤْتة؛ مقتل الحارث بن عمير.

وهناك وجدوا الروم قد جَمَعُوا لهم جمعًا عظيمًا(١) منهم ومن العرب المتنصِّرة، فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه: أيرسلون لرسول الله ﷺ يطلبون منه مددًا، أم يُقْدِمون على الحرب؟ فقال عبد الله بن رواحة: يا قوم، والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة، ما نقاتل إلا بهذا الدِّين الذى أكرمنا الله به، فإنما هى إحدى الحسنيين: إما الظهور وإما الشهادة، فقال الناس: صدق والله ابنُ رواحة.

ومضوا للقتال، فلقوا هذه الجموع المتكاثرة، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استُشهد، فأخذ الراية جعفرُ بن أبى طالب، وهو يقول:

**يا حبذا الجنةُ واقترابُها ... طيبةٌ وباردٌ شرابُها**

**والروم رومٌ قدْ دنا عذابُها ... كافرة بعيدةٌ أنسابُها**

**علىَّ إذ لاقَيْتُها ضِرابُها**

---

(١) كان عدد جيش الروم مائة ألف، وانضم إليهم من لخم وجذام والقيْن وبُهراء وبلىٍّ -وهم من نصارى العرب- مائة ألف أخرى. (م).

ولم يزل يقاتل حتى استُشهد ﷺ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم، ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه:

**أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّهْ طائعةً أو لا لتكرهنَّهْ**
**إنْ أجلبَ الناسُ وشدوا الرنَّه مالى أراك تكرهين الجنَّهْ!**
**قد طالما كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة فى شنَّه ؟**

ثم اقتحم بفرسه المعمَعة، ولم يزل يقاتل ﷺ حتى استُشهد، فهمَّ بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء، فقال لهم عقبة بن عامر: يا قوم، يُقتل الإنسان مقبلاً خيرٌ من أن يقتلَ مدبرًا، فتراجعوا واتَّفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد، وبهمَّته ومَهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضَّياع، إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفًا؟ فإنه لما أخذ الرايةَ قاتل يومَه قتالاً شديدًا، وفى غَده خالف ترتيب العسكر، فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة؛ فظنَّ الروم أن المدد جاء للمسلمين فرُعبوا، ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام، ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين، وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص، وبذلك انقطع القتال.

وقد نَعَى النبى ﷺ زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم، فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأُصيب**»، وكانت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، ثم قال: «**حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهمْ**». (١)

وجاءه رجل فقال: يا رسول اللّه، إن نساء جعفر يبكين، فأمره أن ينهاهنَّ، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتُهنَّ فلم يُطعْنَ؟ فأمره فذهب ثانيًا، ثم جاء فقال: والله لقد غلبننا، فقال له ﷺ: «**احْثُ فى أفواههنَّ الترابَ**».

ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم: يا فُرَّار، فقال ﷺ: «**بل**

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٤٢٦٢).

**هم الكُرَّار**» ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب، وأثنى على خالد فى مهارته.(١)

**سرية:**

**وفى جمادى الآخرة:** بلغه ﷺ أن جمعًا من قُضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى ليُغيروا على المدينة، فأرسل لهم عمرو بن العاص فى ثلاثمائة رجل من سَرَاة المهاجرين والأنصار، ثم أمده بأبى عبيدة ابن الجراح فى مائتين من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر، فلحقوا عَمْرًا قبل أن يصل إلى القوم، وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو، فأنكر عليه عمر بن الخطاب، فقال أبو بكر: إنما بعثه رسول الله ﷺ علينا رئيسًا لمعرفته بالحرب أكثر منا، فلا تعصه، فامتثل، ولما حلُّوا بساحة القوم حملوا عليهم، فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين، فجمعوا غنائمهم، وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين.

وبينما هم فى الطريق أدركت عمرَو بن العاص جنابةٌ فى ليلة باردة، فلما أصبح قال: إن أنا اغتسلت هلكت، والله يقول: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ (البقرة: ١٩٥)، ثم تيمم وصلى، ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا المدينة قام رسول الله ﷺ يسأل عن أنباء سفرهم كما هى عادته، فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار، ونهيهم عن اتباع العدو، وصلاته جُنُبًا، فسأله ﷺ عن ذلك فقال: منعتُهم من إيقاد النار لئلا يرى العدوُّ قلَّتَهم فيطمع فيهم، ونهيتُهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين، وصليتُ جنبًا لأن الله يقول: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ وإن أنا اغتسلتُ هلكتُ، فتبسم ﷺ وأثنى على عمرو خيراً.(٢)

**سرية:**

**وفى رجب:** أرسل ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة التى تسكن ساحل البحر، وزوَّد ﷺ هذا الجيش جراباً من التمر، فساروا حتى

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٢٥٥).
(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٣٤، ٣٣٥)، وأحمد (٤/ ٢٠٣، ٢٠٤).

إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو، وقد فنى زادهم حتى أكلوا الخبط، وهو ورق السمر، يبلونه بالماء ويأكلونه، إلى أن تقرَّحت أشداقهم، وكان فى القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة، فنحر لهم ثلاث جُزُر فى كل يوم جزورٌ، وفى اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسهُ أبو عبيدة، لأن قيساً كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه، فخاف أبو عبيدة أن لا يفى له أبوه بما استدان، فقال قيس: أترى سعداً يقضى ديون الناس، ويطعم فى المجاعة، ولا يقضى ديناً استدنتُه لقوم مجاهدين فى سبيل الله؟! ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة، فقال قيس بن سعد لأبيه: كنت فى الجيش فجاعوا؟ قال: انحرْ، قال: نحرتُ، قال: ثم جاعوا؟ قال: انحرْ، قال: نحرتُ، قال: ثم جاعوا؟ قال: انحرْ، قال: نحرتُ، قال: ثم جاعوا؟ قال: انحرْ، قال: نهيتُ.

## غـزوة الفتـح الأعظـم

إذا أراد الله أمرًا هيَّأ أسبابه وأزال موانعَه، فقد كان ﷺ يعلم أنه لا تذلُّ العرب حتى تذلَّ قريش، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة، فكان يتشوف لفتحها، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشًا فى الحديبية، وهو سيد من وَفَّى، ولكن إذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه، فقد علمتَ أن قبيلة خزاعة دخلت فى عهد رسول الله ﷺ وقبيلة بنى بكر دخلت فى عهد قريش، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الإسلام.

فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ ، على مسمع من رجل خزاعى، فقام هذا وضربه، فحرَّك ذلك كامن الأحقاد، وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم، واستعانوا بأوليائهم من قريش، فأعانوهم سرًا بالعُدَّة والرجال، ثم توجَّهوا إلى خزاعة وهم آمنون، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين، ولما رأى ذلك حلفاءُ السيد الأمين أرسلوا منهم وفدًا برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله ﷺ بما فعل بهم بنو بكر وقريش، فلما حَلُّوا بين يديه وأخبروه الخبر، قال: «**والله لأمنعنكم مما أمنع نفسى منه**».

أما قريش فإنهم لما رأوا ما عملوه نقضٌ للعهود التى أُخذت عليهم ندموا على ما فعلوا، وأرادوا مداواة هذا الجرح، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان ابن حرب إلى المدينة ليشد

العقد ويزيد في المدة، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد، حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أمِّ حبيبةَ بنته، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فَطَوَتْه عنه، فقال: يا بنية، أرغبتِ به عنى أم رغبت بى عنه؟ فقالت: ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشركٌ نجسٌ، فقال: لقد أصابكِ بعدى شرٌّ.

ثم خرج من عندها وأتى النبيَّ فى المسجد وعرض عليه ما جاء له، فقال له ﷺ: **«هل كان من حَدَث؟»** قال: لا، فقال ﷺ: **«فنحن على مُدتنا وصُلْحنا»**، ولم يزد عن ذلك، فقام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش علهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معينًا، وكلهم قالوا: جوارنا فى جوار رسول الله ﷺ، فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئًا، فاتَّهموه أنه خانهم واتَّبع الإسلام، فتنسَّك عند الأوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة.

أما رسول الله ﷺ فتجهَّز للسفر وأمر أصحابه بذلك، وأخبر الصديقَ بالوُجهة، فقال له: يا رسول الله أوَ ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: **«نعم، ولكن غدروا ونقضوا»**، ثم استنفر ﷺ الأعراب الذين حول المدينة وقال: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضانَ بالمدينة»**، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة، وطوى ﷺ الأخبار عن الجيش؛ كى لا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب، والرسول ﷺ لا يريد أن يقيم حربًا بمكة، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها، فدعا مولاه -جَلَّ ذكره- وقال: **«اللَّهمَّ خُذ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ حتى نبغتها فى بلادها»**.

فقام حاطب بن أبى بلتعة، أحد الذين شهدوا بدرًا، وكتب كتابًا لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جُعْلٍ؛ فأعلم الله رسولَه ذلك، فأرسل فى أثرها عليًا والزبير والمقداد، وقال: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها»**، فانطلقوا حتى أتَوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها: أخرجي الكتابَ، قالت: ما معى كتابٌ! فقالوا: لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لَنُلْقِيَنَّ الثيابَ، فأخرجَتْه من عقَاصها فأتوا به رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: **«يا حاطب ما هذا؟»** قال: يا رسول اللَّه، لا تعجل علىَّ، إنى كنت حليفًا لقريش، ولم أكن من أنفُسِهَا، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم،

فأحببتُ إذ فاتنى ذلك مِن النسبِ فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى، ولم أفعله ارتدادًا عن دينى ولا رضاءً بالكفر بعد الإسلام، فقال ﷺ: «**أما إنه قد صدقكم**»، فقال عمر: دعنى يا رسول الله أضربْ عُنُق هذا المنافق، فقال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك، لعل الله اطَّلَع على مَن شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم**»، وفى ذلك أنزل الله فى سورة الممتحنة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (الممتحنة: ١).(١)

ثم سار ﷺ بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولَّى على المدينة ابن أم مكتوم، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما: ابنُ عمِّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، شقيق عبيدة بن الحارث، شهيد بدر، وصهره عبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة، شقيقُ زوجه أم سَلَمة، وكانا يريدان الإسلام فقبلهما ﷺ وفرح بهما شديد الفرح وقال: ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (يوسف: ٩٢).

ولما وصل ﷺ الكَدِيد رأى أن الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر، وأفطر هو أيضاً.

وقد قابل ﷺ فى الطريق عمَّه العباسَ بن عبد المطلب مهاجرًا بأهله وعياله، فأمره أن يعود معه إلى مكة، ويرسل عياله إلى المدينة، ولما وصل ﷺ مر الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار، وكانت قريش قد بلغهم أن محمدًا زاحف بجيش عظيم لا تُدرى وجهتُه، فأرسلوا أبا سفيان ابن حرب وحكيمَ بن حزام وبُديلَ بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسيرون حتى أتَوا مرَّ الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنها نيران عرفة! فقال بُديل بن ورقاء: نيران بنى عمرو، فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ ، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خَطْم الجبل حتى ينظرَ إلى

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣٠٠٧، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤).

المسلمين، فحبسه العباسُ، فجعلت القبائل تمر كتيبةً كتيبة على أبى سفيان، وهو يسأل عنها ويقول: ما لى ولها، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار، وحامل رايتها سعد بن عبادة، فقال سعد: يا أبا سفيان اليومُ يومُ الملحمة، اليومُ تُستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يومُ الذمار، ثم جاءت كتيبة وهى أكثر الكتائب، فيها رسول الله ﷺ وأصحابه، وحامل الراية الزبيرُ بن العوام، فأخبر أبو سفيان رسولَ الله ﷺ بمقالة سعد، فقال ﷺ: **«كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظّم الله فيه الكعبة، ويومٌ تُكسَى فيه الكعبةُ»**.[١]

ثم أمر ﷺ أن تركز رايته بالحجون[٢]، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كُدَى، ودخل هو من أعلاها من كداء[٣]، ونادى مناديه: مَن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، وهذه أعظم مِنَّةً له، واستثنى من ذلك جماعةً عظُمت ذنوبُهم وآذَوا الإسلام وأهلَه عظيمَ الأذى، فأهدر دَمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة، منهم عبدُ الله بن سعد ابن أبى سرح، الذى أسلم وكتب لرسول الله ﷺ الوحيَ، ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون، فكان يقول: إن محمدًا كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم فأكتبُ غفور رحيم، فيقول: كلٌّ جيِّد[٤]! ومنهم: عكرمة بن أبى جهل، وصفوانُ بن أمية، وهبَّارُ بن الأسود، والحارثُ بن هشام، وزهيرُ بن أبى أمية، وكعبُ بن زهير، ووحشيّ قاتلُ حمزة، وهندُ بنت عتبة زوجُ أبى سفيان، وقليلٌ غيرهم، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا مَنْ قاتل.

فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صدَّه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، وقُتل من جيشه اثنان، ودخلها عَنوةً من هذه الجهة، وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يُصادف مانعًا وهو ﷺ راكب راحلته منحنٍ على الرَّحْلِ تواضُعًا لله وشكرًا له على هذه النعمة حتى تكاد جبهتُه تَمَسُّ الرحلَ، وأسامة بن زيد رديفه، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلَتْ مِن رمضانَ، حتى وصل إلى الحجون

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٤٢٨٠).

(٢) جبل بمعلاة مكة. (م).

(٣) كدى كقوى جبل مسفلة مكة على طريق اليمن، وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة. (م).

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (٣٦١٧)، ومسلم (٢٧٨١).

موضع رايته، وقد نُصبت له هناك قبة فيهـا أمُّ سَلَمَة وميمونةُ فاستراح قَليلاً، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت، وطاف سبعًا على راحلته، واستلم الحجرَ بِمحْجَنِه.

وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل ﷺ يطعنها بعود فى يده ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل، وما يبدئ الباطل وما يعيد**»، ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم فى أيديهما الأزلام؛ فقال ﷺ: «**قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط!!**».

وهذا أول يوم طَهُرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً، ويوشك أن نذكر للقارئ اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية.

**العفو عند المقدرة:**

ثم إن النبى ﷺ دخل الكعبة وكبَّر فى نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم وجلس فى المسجد، والناس حوله والعيونُ شاخصةٌ إليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركى قريش، الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التى يلزمُ أن يتعلمَ منها المسلمُ أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس، فقال ﷺ: «**يا معشر قريش، ما تظنون أنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريم، فقال ﷺ: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء**»، ويرحم اللّهُ الإمامَ البوصِيرىَّ حيث قال:

| | |
|---|---|
| **وإذا كان القطعُ والوصلُ لله** | **تساوى التقريبُ والإقصاءُ** |
| **وسواءٌ عليه فيما أتاهُ** | **من سواه الملام والإطراءُ** |
| **ولو أن انتقامه لهوى النفـ** | **ـس لَدامَتْ قطيعةٌ وجفاءُ** |
| **قام لله فى الأمور فأرضى الله** | **منه تباينٌ ووفاءُ** |
| **فعلُه كلُّه جميلٌ وهل ينضـ** | **ـحُ إلا بما حَوَاهُ الإناءُ** |

ثم خطب ﷺ خطبة أبانَ فيها كثيرًا من الأحكام الإسلامية منها: ألا يُقتل مسلمٌ بكافر، ولا يتوارث أهل ملَّتَين مختلفتين، ولا تُنكح المرأة على عَمَّتها وخالتها، والبيِّنة على من ادعى واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي مَحرم، ولا صلاة بعد الصبح والعصر، ولا يُصام يومُ الأضحى ويومُ الفطر.

ثم قال: «**يا معشر قريش، إن الله قد اذهب عنكم نخْوة الجاهلية وتَعَظُّمَهَا بالآباء، والناس من آدمَ، وآدمُ من تراب**»، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣).

ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، وممن أسلم فى هذا اليوم معاويةُ بن أبى سفيان وأبو قحافة، والدُ الصدِّيق، وقد فرح الرسول ﷺ كثيرًا بإسلامه، وجاءه رجل يرتعد خوفًا فقال له ﷺ: «**هوِّن عليك، فإنى لست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**».[(١)]

أما الذين أهدر رسول الله دَمَهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، فمنهم من حقَّت عليه كلمةُ العذاب فقُتل، ومنهم مَن أدركَتْه عنايةُ الله فأسلم[(٢)]، فعبد الله بن سعد بن أبى سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمانَ بن عفان، وطلب منه أن يستأمنَ له رسولَ الله ﷺ، فغيَّبه عثمانُ حتى هدأ الناسُ، ثم أتى به النبىَّ ﷺ وقال: يا رسول الله، قد أمَّنْتُهُ فبايعْه، فأعرض عنه ﷺ مرارًا ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال ﷺ: «**أعرضتُ عنه ليقومَ إليه أحدكم فيضربَ عنقه**»، فقالوا: هَلاَّ أشرت إلينا؟ فقال: «**لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين**».[(٣)]

وأما عكرمة بن أبى جهل[(٤)] فهربَ فخرجتْ وراءَه زوجتُه وبنتُ عمِّه أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت يوم الفتح، وقد أخذت له أمانًا من رسول الله ﷺ، فلحقته وقد أراد أن يركب البحرَ، فقالت: جئتك من عند أبر

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٣٣١٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦).

(٢) انظر «فتح البارى» (٧/ ٩).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائى (٧/ ١٠٥، ١٠٦)، وصححه الألبانى في «صحيح أبي داود» (٢٣٣٤).

(٤) انظر «مغازى الواقدى» (٢/ ٨٥٣، ٨٥٥).

الناس وخيرهم، لا تُهلكْ نفسَك وإنى قد استأمنتُه لك، فرجع، ولما رآه ﷺ وثبَ قائمًا فرحًا به، وقال: «**مرحبًا بمن جاءنا مهاجرًا مسلمًا**»، ثم أسلم ﷺ وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له، وكان ﷺ بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام.

وأمّا هبَّار بن الأسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالجعرانة جاءه مسلماً، وقال: يا رسول الله، هربت منك، وأردتُ اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتَك وصلَتَك وصفحَك عمَّن جهل عليك، وكنَّا يا رسول الله، أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح الصفح الجميل، فقال ﷺ: «**قد عفوتُ عنك**».

وأما الحارثُ بن هشام وزهيرُ بن أبى أمية المخزوميُّ فأجارَتْهما أم هانئ بنت أبى طالب، فأجاز ﷺ جوارها، ولما قابل رسولُ الله ﷺ الحارثَ بن هشام مسلمًا قال: «**الحمد لله الذى هداك، ما كان مثلُك يجهل الإسلامَ**»، وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقى نفسه فى البحر، فجاء ابن عمه عُمير بن وَهْب الجمحى، وقال: يا نبيَّ الله، إن صفوانَ سيدُ قومه وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمِّنه، فإنك قد أمَّنت الأحمر والأسود، فقال ﷺ: «**أدركْ ابن عَمِّك فهو آمن**»، فقال: أعطنى علامة، فأعطاه عمامته، فأخذها عُمير حتى إذا لقى صفوانَ قال له: فداك أبى وأمى، جئتك من عند أفضل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس، وهو ابن عمك، وعزُّه عزُّك، وشرفه شرفُكَ، وملكُه ملكُكَ، قال صفوان: إنى أخافه على نفسى، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامة الأمان، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وقال له: إن هذا يزعم أنَّك أمَّنتنى؟ قال: «**صدق**»، قال: أمهلنى بالخيار فيه شهرين، قال: «**أنت بالخيار فيه أربعة أشهر**»، ثم أسلم ﷺ وحَسُنَ إسلامُه.(١)

وأما هندُ بنت عتبة فاختفت، ثم أسلمت، وجاءت إلى رسول الله ﷺ فرحَّبَ بها وقالتْ له: والله يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض أهلُ خباء أحبَّ إلىَّ أن يُذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهلُ خِباء أحبَّ إلىَّ أن يُعَزّوا من أهل خبائك!!

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٢٣١٣).

### وفود كعب بن زهير:

وأما كَعْبَ بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيرًا جاء المدينة بعد أن قدمها رسولُ الله ﷺ من مكة فأسلم، وأنشد قصيدته التى يقول فيها:

**وقال كلُّ صديق كنتُ آمله ... لا أُلهينَّكَ إنى عنك مشغولُ**

**فقلتُ: خلُّوا سبيلى لا أبا لكم ... فكل ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ**

**كلُّ ابن أنثى وإن طالت سلامتُه ... يوماً على آلة حَدْبَاء محمولُ**

**أنبئتُ أنَّ رسولَ الله أَوْعَدَنى ... والعفوُ عند رسول الله مَأمُولُ**

**مهلاً هداكَ الذى أعطاكَ نافلةَ ... القرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ**

وقال فيها مادحًا:

**إنَّ الرسول لسيفٌ يُستضاءُ به ... مُهَنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولُ**

ولمّا قال هذا البيت خلع عليه الرسول بُرْدَتَه.

وأمّا وحشيٌّ قاتلُ حمزة فكذلك أسلم وحَسُنَ إسلامه وقَبِلَه ﷺ، وقد جاءه ابنا أبى لهب عتبةُ ومعتبُ فأسلما وفرح بهما ﷺ.

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو، فاستأمن له ابنه عبد الله فأمَّنه ﷺ وقال: **«إن سهيلاً له عقلٌ وشرف، وما مثلُ سهيل يجهلُ الإسلام»**، فلما بلغت هذه المقالة سُهَيْلاً قال: كان -والله- برًا صغيرًا برًا كبيرًا، ثم أسلم بعد ذلك.

### بيعة النساء:

هذا، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء، وكُنَّ يبايعن على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهنّ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلِهن، ولا يعصين الرسول ﷺ فى معروف.(١)

ثم أمر ﷺ بلالاً بأن يُؤَذِّنَ على ظهر الكعبة، وهذا بدءُ ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم، فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيدًا يحمدون فيه الله حَقَّ

---

(١) **صحيح**: سبق تخريجه.

حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

وأقام ﷺ بمكة بعد فتحها تسعة عشرَ يومًا يـقصر فيها الصلاة، وولَّى عليها عَتَّابَ ابن أسيد، وجـعل رزقه كل يوم درهمًا، فكان عَتَّـابُ ﷺ يقول: لا أشبعَ الله بطنًا جاع على درهم كُلَّ يوم.

**هــدم العــزى:**

وفى الخامس من مقامه ﷺ بمكة أرسل خالدَ بن الوليد فى ثلاثين فـارسًا لهدم هيكل العُزَّى، وهى أكـبر صنم لقريـش، وكان هيكلها ببطن نَخْلة، فـتوجَّه إليـها خالدٌ وهدمها.

**هــدم ســواع:**

وأرسل ﷺ عمرَو بن العاص لهدم سُواع، وهو أعظم صنم لهذيل، وهيكله على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

**هــدم مــنــاة:**

وبعث سـعدَ بن زيد الأشهلـيَّ فى عشرين فـارسًا لهـدم مناة، وهى صنمٌ للأوس والخزرج، وهـيكلها بالْمُشَلَّل، وهو جـبل على سـاحل البحـر يُهبَط منه إلى قُـديد، فتوجهوا إليها وهدموها.

## غـــزوة حـنـيــن

بهذا الفتح العظيم وسـقوط دولة الأوثان دانت للإسلام جموعُ العـرب ودخلوا فيه أفواجًا، أما قبيلتـا هوازن وثقيف فأدركتهما حَمِيَّةُ الجاهليـة، واجتمع الأشرافُ منهما للشورى، وقـالوا: قد فرغَ محـمد من قتال قـومه ولا ناهية له عنا، فَلْنَغْـزُه قبل أن يغزونَا، فأجمعوا أمرهم على ذلك وولَّوا رياسـتهم مالكَ بن عوف النَّصْرى، فاجتمع له من القبـائل جمـوعٌ كثيـرة، فيهم بنو سـعد بن بكر، الذين كـان رسول الله ﷺ مسترضعًا فيهم، وكان فى القـوم دُرَيْدُ بن الصِّمة، المشهور بأصالة الرأى وشدة البأس فى الحرب، ولتقدُّم سنِّه لم يكن له فى هذه الحرب إلا الرأى.

ثم إن مالك بن عـوف أمر الناس أن يأخذوا مـعهم نسـاءَهم وذراريهم وأموالهم،

فلما علم بذلك دُريد سأل مالكًا عن السبب، فقال: سقتُ مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعلَ خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهما، فقال دريدُ: وهل يرد المنهزمَ شيء؟ إن كانت لك لم ينفعْكَ إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحتَ فى أهلك ومالك، فلم يقبلْ مالك مشورته، وجعل النساء صفوفًا وراء المقاتلة، ووراءهم الإبل ثم البقر ثم الغنم؛ كى لا يفرَّ أحدٌ من المقاتلين.(١)

أما رسولُ الله ﷺ فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غازٍ، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهل مكة رُكبانًا ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم، وخرج فى الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوانُ بن أمية، وسُهَيل بن عمرو، ولما قرُب الجيش من معسكر العدو صَفَّ ﷺ الغزاة وعقد الألوية، فأعطى لواءَ المهاجرين لعلىٍّ بن أبى طالب، ولواء الخزرج للحُبَاب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وكذلك أعطى ألويةً لقبائل العرب الأخرى، ثمَّ ركب ﷺ بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر.

هذا، وقد أُعْجبَ المسلمون بكثرتهم فلم تُغْنِ عنهم شيئًا، فإن مقدمة المسلمين توجهتْ جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستترًا فى شعاب الوادى ومَضايقه، وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فلووا أعنة خيلهم متقهقرين، ولَما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم فى الهزيمة لما لحقهم من الدهشة.

أما رسولُ الله ﷺ فثبت على بغلته فى ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار منهم: أبو بكر وعمر وعلىّ والعباس وابنه الفضل، وأبو سفيان ابن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث، ومُعتّبُ بن أبى لهب، وكان العباس آخذاً بلجام البغلة، وأبو سفيان آخذاً بالركاب وكان ﷺ ينادى: «**إلىَّ أيها الناس**»، ولا يلوى عليه أحد، وضاقت بالمنهزمين الأرضُ بما رحُبت.

أما رجالُ مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام، والذين لم ينزعوا عنهم رِبْقَةَ الشرك، فمنهم من فرح، ومنهم من ساءه هذا الإدبار، فقال أبو سفيان ابن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر، وقال أخ لصفوان بن أمية: الآن بطُل السحر، فقال له

(١) انظر ما رواه مسلم (١٣٦).

صفوان وهو على شركه: اسكتْ فَضَّ الله فاك، والله لأن يَرُبَّنى رجل من قريش خيرٌ من أن يَرُبَّنى رجلٌ من هوازن، ومرَّ عليه رجل من قريش وهو يقول: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبدًا، فغضب صفوان، وقال: ويلك أتبشرنى بظهور الأعراب؟ وقال عكرمةُ بن أبى جهل لذلك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبدًا ليس بيدك، الأمر بيد الله، ليس إلى محمد منه شىء، إن أديل عليه اليومَ فإن العاقبة له غدًا، فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا يزيد إنَّا كُنَّا على غير شىء وعقولنا ذاهبة، نعبد حجرًا لا يضرّ ولا ينفع.

وبلغت هزيمةُ بعض الفارين مكةَ، كل هذا ورسول الله ﷺ واقف مكانه يقول:

**أنا النبىُّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطلب**[1]

ثم قال للعباس، وكان جهوريَّ الصوت: «**نادِ بالأنصار يا عباس**»، فنادى يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأسمعَ مَنْ فى الوادى، وصار الأنصار يقولون: لبيك لبيك، ويريد كلٌّ واحد منهم أن يلوىَ عِنَانَ بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه، وينزل عن بعيره ويخلى سبيله ويؤمُّ الصوتَ، حتى اجتمع حول رسول الله ﷺ جمعٌ عظيم منهم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا لم يروها، فكرَّ المسلمون على عدوهم يدًا واحدة، فانتكث فتل المشركين، وتفرقوا فى كل وجه لا يلوون على شىء من الأموال والنساء والذرارى، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذرارى وأسروا كثيرًا من المحاربين وهرب من هرب، وجُرِحَ فى هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلمَ ناسٌ كثيرون من مشركى مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

هذا، والذى حصل فى هذه الغزوة درسٌ مهم من دروس الحرب، فإن هذا الجيش دخله أخلاطٌ كثيرون من مشركين وأعراب وحديثى عهد بالإسلام، وهؤلاءِ سِيَّانَ عندهم نصر الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله، فلا يَنبغى أن يكون فى الجيش إلا من يُقاتل

---

(١) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٧٦).

خالصًا مخلصًا من قلبه؛ ليكون مدافعًا حقًا عن دينه، فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية ما أعده الله للفارين من أليم العقاب.

ثم أمر ﷺ بجمع السَّبْى والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، فجمع ذلك كله بالجعرانة، أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقتْ بالطائف، وفرقة لحقت بنَخْلة، وفرقة عسكرت بأوطاس.[١]

سـرية:

فأرسل ﷺ لهذه الفرقة[٢] أبا عامر الأشعرى فى جماعة منهم أبو موسى الأشعرى، فسار إليهم وبدَّدهم وظفر بما بقى معهم من الغنائم؛ وقد استشهد أبو عامر فى هذه الغزوة وخلَّف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافرًا منصوراً.

## غزوة الطائف

وسار ﷺ بمن معه إلى الطائف ليُجْهِزَ على بقية حياة ثقيف ومن تجمَّع معهم من هوازن، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد، ومر ﷺ بحصن لعوف بن مالك النَّصْرِىِّ فأمر بهدمه، ومرَّ ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه فأرسل إليه أن اخرجْ وإلا حرَّقنا عليك بستانك؛ فامتنعَ الرجل فأمر ﷺ بحرقه.

ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصَّنوا به، وأدخلوا معهم قوت سنتهم، فعسكر المسلمون قريب الحصن، فرماهم المشركون بالنبل رميًا شديدًا حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات، منهم عبد الله بن أبى بكر، وقد طاوله[٣] جرحه حتى أماته فى خلافة أبيه؛ ومنهم أبو سفيان ابن حرب فُقئت عينه، وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين.

ولما رأى رسول الله ﷺ أن العدو متمكن من رميهم ارتفع إلى محل مسجد

(١) واد بديار هوازن. (م).
(٢) أى الفرقة التى عسكرت بأوطاس. (م).
(٣) طاوله: امتد به. (م).

الطائف الآن، وضربَ لأم سلمة وزينبَ قُبَّتَين هناك، واستمر الحصارُ ثمانية عشر يومًا، كان فيها ينادى خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد، وناداه عبد ياليل، عظيم ثقيف: لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم فى حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمتَ حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا حتى نموتَ عن آخرنا.

فأمر ﷺ بأن يُنْصبَ عليهم المنجنيق فنُصِبَ ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين[1] لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم، فأمر ﷺ أن تقطع أعنابهم ونخيلهم، فقطع المسلمون فيها قطعًا ذريعًا، فناداه أهل الحصن أن دَعْها لله وللرحم، فقال: **«ادعها لله وللرحم»**، ثم أمر من ينادى بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً.[2]

ولما رأى ﷺ أن تمنّع ثقيف شديد، وأن الفتح لم يؤذن فيه؛ استشار نوفلَ بن معاوية الدِّيلى فى الذهاب أو المقام، فقال: يا رسولَ الله، ثعلبٌ فى جحر إن أقمتَ أخذتَه وإن تركته لم يضرك، فأمر ﷺ بالرحيل، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال: **«اللهم اهد ثقيفًا، وأتِ بهم مسلمين»**.[3]

**تقسيم السبى:**

ثم رجع ﷺ إلى الجعرانة حيث ترك السبى فأحصاه وخَمَّسَهُ، وأعطى منه شيئًا كثيرًا لأناس ضعُف إسلامهم يتألفهم بذلك، وأعطى أناساً لم يسلموا ليحَبِّبَ إليهم الإسلامَ.

ومن الأولين: أبو سفيان؛ أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل، وكذلك ابناه معاوية ويزيد، فقال له: بأبى أنت وأمى، لأنت كريم فى السلم والحرب.

ومنهم: حكيم بن حزام أعطاه كأبى سفيان فاستزاده فأعطاه ثم استزاده فأعطاه مثلها، وقال: **«يا حكيم إنَّ هذا المال خَضِرة حلْوة[4]، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له**

---

(١) الدبابة: آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها. (م).

(٢) انظر المغازى للواقدى (١/ ٤١٦).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٧٨)، وانظر «زاد المعاد» (٣/ ٤٩٧)، و«صحيح السيرة النبوية» ص(٥٦٦).

(٤) الصواب خضر حلو؛ أى غض ناعم طرى. (م).

**فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارَك له فيه، كالذى يأكل ولا يشبع، واليدُ العليا خير من اليد السفلى»**[1] فأخذَ حكيم المائة الأولى وتركَ ما عداها، ثم قال: والذى بعثك بالحق لا أرزأ[2] أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارقَ الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله ﷺ يعرضون عليه العطاء الذى يستحقه من بيت المال فلا يأخذه.

وأعطى ﷺ عيينة بن حصن مائة من الإبل، وكذلك الأقرع بن حابس والعباسَ ابن مرداس، وأعطى صفوانَ بن أمية شعبًا مملوءًا نَعَمًا وشاءً كان رآه يَرْمُقُه[3] فقال له: **«هل يعجبك هذا؟»** فقال: نعم، قال: **«هُوَ لك»**، فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحد؟ وكان سبب إسلامه.

وكان ﷺ يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم، وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جُعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظمى، فإن كثيرين ممن أُعطوا فى هذا اليوم ولم يكونوا أُشربوا فى قلوبهم حبَّ الإسلام صاروا بعدُ من أجلاَّء المسلمين وأعظمهم نفعًا؛ كصفوان بن أمية، ومعاوية بن أبى سفيان، والحارث بن هشام، وغيرهم.

ثم أمر ﷺ زيد بن ثابت، فأحصى ما بقى من الغنائم وقسَّمه على الغزاة بعد أن اجتمع إليه الأعراب، وصاروا يقولون له: اقسم علينا، حتى ألجئوه إلى شجرة فتعلق رداؤه، فقال: **«رُدوا ردائى أيها الناس، فوالله إن كان لى شجر تهامة نَعَمًا لقسمته عليكم، ثم ما الفيتمونى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوباً»**، ثم قام إلى بعيره وأخذ وَبَرَةً من سَنَامه وقال: **«أيها الناس، والله ما لى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمسُ مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول**[4] **يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة»**، فصار كلٌ من أخذ شيئًا من الغنائم خِلسة يردُّه ولو كان زهيدًا.

ثم شرعَ يقسِّم، فأصابَ الراجل أربعةٌ من الإبل وأربعون شاة، والفارسَ ثلاثةُ أمثال ذلك، فقال رجلٌ من المنافقين: هذه قسمة ما أريد بها وجْه اللهَ، فغضب ﷺ

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (١٤٧٢) مطولاً، ومسلم (١٠٣٥)، مختصرًا.

(٢) لا أرزأ: لا آخذ ولا أنقص. (م).

(٣) يرمقه: ينظر إليه. (م).

(٤) الاختلاس من الغنيمة. (م).

حتى احـمرَّ وجهُـه وقال: «وَيْحَكَ مَن يعدلُ إذا لم أعدل؟!» فلم يؤده غضبُـه أن ينتقم لنفسه، حاشاه ﷺ من ذلك، بل لم يزدْ على أن نصحَ وحذَّرَ، وقال له عمر وخالد ابن الوليد: دَعنا يا رسـول الله نضربْ عنقه، فـقال: «لا، لعلَّه أن يكون يُصَلِّى»، فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقولُ بلسانه ما ليس فى قلبه! فقال ﷺ: «إنى لم أومر أن أنْقُبَ عن قلوب الناس ولا أشُقَّ عن بطونهم».

ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وتركَ الأنصارَ؛ غضـبَ بعضُهم حتى قـالوا: إن هذا لهو العَجَبُ، يُعطى قريشًـا ويتركُنا وسيوفُنا تقطرُ من دمائهم!!! فـبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معـهم غيرُهم، فلما اجتمعوا قال: «يا معشرَ الأنصار، ما مقالةٌ بلغتنى عنكم؟ ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بى؛ وعالة[1] فأغناكم الله بى؛ وأعداءً فألَّفَ الله بين قلوبكم بى؛ إن قريشًا حديثو عهد بكفر ومصيبة؛ وإنى أردتُ أن أجْبُرَهُم وأتألَّفَهم، أغضبتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم لشىء قليل من الدنيا ألَّفْتُ به قومًا ليُسلموا، وَوَكَلْتكُمْ إلى إسلامِكم الثابت الذى لا يُزَلْزَلُ؟ ألا ترضون يا معشرَ الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلكَ الناسُ شِعْبًا وسلك الأنصار شِعْبًا لسلكتُ شِعبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصارَ وأبناءَ الأنصار»، فبكى القوم حتى اخْضَلَّتْ لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظاً، ثم انصرف ﷺ وتفرقوا.[2]

**وفـود هـوازن:[3]**

وبعد بـضع عشرة ليـلة جاءه ﷺ وفد هوازن يرأسـهم زهير بن صُـرد وقالوا: يا رسولَ الله، إن فيمن أصـبتم الأمهات والأخوات والعمـات والخالات، وهنْ مخازى الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسـول الله، وقال زهير: إن فى الحظائر عـماتك وخالات وحواضنك اللاتى كنَّ يكفلنك، ثم قال أبياتًا يستعطفه بها:

---

(١) جمع عائل وهو الفقر. (م).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٦١).

(٣) انظر «البداية والنهاية» (٤/ ٣٥٢).

امنُنْ علينا رسولَ الله فى كرم فإنَّك المرءُ نرجوه وننتظرُ
امنُنْ على نسْوةٍ قد كنتَ ترضعها إذ فوك مملوءة من مخضها الدررُ
إنَّا لنشكر للنعماء إن كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخرُ
إنَّا نؤمِّل عفواً منك نلبسه هدى البرية أن تعفو وتنتصرُ
فألبس العفوَ من قد كنتَ ترضعُه من أمهاتك، إن العفوَ مشتهرُ

فقال ﷺ : «إن أحبَّ الحديث إلىَّ أصدقُه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبى وإما المال، وقد كنتُ أنتظركم حتى ظننتُ إنكم لا تَقْدَمُون»، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، اردُدْ علينا نساءَنا وأبناءَنا، فهو أحبُّ إلينا ولا نتكلم فى شاة ولا بعير، فقال ﷺ : «أما ما لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليتُ الظهر فقوموا وقولوا: نحن نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله، بعد أن تظهروا إسلامكم وتقولوا: نحن إخوانكم فى الدين»، ففعلوا، فقال ﷺ لأصحابه:

«أما بعد؛ فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين، وإنى قد رأيتُ أن أردَّ عليهم سَبْيَهم، فمَن أحبَّ أن يطيب بذلك فليفعلْ، ومن أحبَّ منكم أن يكون على حظه حتى نعطيَه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعلْ»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وامتنعَ من ذلك جماعة من الأعراب، كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن والعباس ابن مرداس، فأخذه الرّسول منهم قرضًا[1]، وأمر ﷺ بأن تُحبَسَ عائلة مالك بن عوف النصرى رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبى أمية، فقال له الوفد: أولئك ساداتنا، فقال ﷺ : «إنما أريد بهم الخير»، ثم سأل عن مالك فقالوا: هربَ مع ثقيف، فقال: «أخبروه أنه إن جاءنى مسلمًا رددتُ عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل»، فلما بلغ ذلك مالكًا نزل من الحصن خُفْيَة حتى أتى رسول الله ﷺ بالجعرانة فأسلم وأحرز ماله، واستعمله ﷺ علَى مَن أسلم من هوازن.[2]

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٣١٩).
(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٤).

**عمرة الجعرانة:**

ثم إن الرسولَ ﷺ اعتمـر، فأحرم من الجعـرانة ودخل مكة بليل، فطاف واستلم الحجر، ثم رجع مـن ليلته، وكانت إقامتـه بالجعرانة ثلاثَ عشـرة ليلة، ثم أمر ﷺ بالرَّحيل، فسار الجيشُ آمناً مُطمئنًا حتى دخل المدينة لثلاثٍ بقين من ذى القعدة.

وغزوة حنين هى التى فرَّقَ الله بها جمـوع الشرك وأدالَ دولته، وأفقد سَرَاة أهله، فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكنه الحرب إلا ساقته، ولم تترك لها بعيرًا ولا شاة إلا جاءت به معها، فأراد الله إعزازَ الإسلام بخذلان أعدائه وأخذِ أموالهم، فانكسرت حِدة المشركين، ولم يبقَ فيهم مَن يمانع أو يدافع.

ولذلك يمكننا أن نقـول: إن انكسار هوازن كـان خاتمة لحروب العـرب، فلم يبقَ فيـهم إلا فئاتٌ قليـلة يسوقهم الطيش إلى شـهر السلاح، ثـم لا يلبثون أن يغـمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة.

**سـريـة:**

ولما رجع ﷺ إلى المدينة أرسل قـيس بن سعـد فى أربعمـائة ليدعـو صُدَاء (قبيلة تسكن اليمن) إلى الإسلام، فجاء إلى رسول الله ﷺ رجل منهم فقال: يا رسول اللّه، إنى جـئتك وافدًا عمن ورائى فاردد الجـيشَ، وأنا لك بقومى، فأمر ﷺ برد الجيش.

**وفـود صُـداء:**

وخرج الرجل إلى قومه فقدم بخمسة عـشر رجلاً منهم فنزلوا ضيوفًا على سعد ابن عبـادة، ثم بايعـوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقـالوا: نحن لك على مَن وراءنا من قومنا، ولما رجعـوا فشا فيهم الإسـلام، وقدم على رسول الله ﷺ منهم مائة فى حجة الوداع.

**سـريـة:**

ثم أرسل ﷺ بشرَ بن سـفيان العدوى إلى بنى كـعب من خزاعة لأخذ صـدقات أموالهم، فمنعـهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فُرِضَ عليـهم، فلما علم بذلك

رسول الله ﷺ أرسل إليهم عُيينة بن حصن في خمسين فارسًا من الأعراب، فجاءهم وحاربهم، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، وتوجَّه بالكُلِّ إلى المدينة، فأمر ﷺ بجعلهم في دار رَمْلَةَ بنت الحارث.

**وفود تميم:**

فجاء في أثرهم وفد تميم، وفيه: عُطاردُ بن حاجب، والزِّبرقانُ بن بدر، وعمرُو ابن الأهتم، فجلسوا ينتظرون الرسولَ ﷺ، فلما أبطأ عليهم نادَوا من وراء الحجرات بصوت جَاف: يا محمد اخرجْ إلينا نفاخرْك، فإن مَدْحَنا زَيْن، وإنّ ذمَّنا شَيْن، فخرج إليهم ﷺ وقد تأذَّى من صياحهم، وفيهم نزل في أوائل سورة الحجرات: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحجرات: ٤، ٥).(١)

وكان الوقت وقت الظهر فأذَّن بلال ودخل النبى للصلاة، فتعلَّقوا به يقولون: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرُك ونفاخرك، فقال لهم ﷺ: «**ما بالشعر بُعثنا، ولا بالفخار أمرنا**»، ثم صلَّى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم، وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر فقال: إنه لمطاع في أنديته، سيد في عشيرته. فقال الزبرقان: حسدني يا رسول الله لشرفي، وقد علم أفضل مما قال، فقال عمرو: إنه لَزَمِنُ المروءة، ضيّق العَطَن، لئيم الخال. فرُئي الغضب في وجه رسول الله ﷺ لاختلاف قولي عمرو، فقال: يا رسول الله، لقد صدقت في الأولى وما كذبتُ في الثانية، رضيتُ فقلت أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلت أسوأ ما علمت، فقال ﷺ: «**إنّ من البيان لَسِحراً**».

ثم أسلم القوم فردَّ النبى ﷺ عليهم أسراهم وأحسن جائزتهم، وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون في الدين.

**سرية:**

ثم بعث ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط لأخذ صدقات بنى المصطلق، فلما

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٣٦٧، ٤٨٤٧).

علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة فى الجاهلية، فرجع مسرعًا إلى المدينة وأخبر الرسولَ أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة.

فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر، فسار إليهم فى عسكره خفية حتى إذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا طاعة، فرجع وأخبر الرسول، فأرسل ﷺ لهم غير الوليد لأخذ الصدقات، وفى الوليد نزل فى أوائل الحجرات: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنُوا إن جاءكُم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنُوا أن تُصيبُوا قومًا بجهالة فتُصبحُوا علىٰ ما فعلتُمْ نادمين﴾ (الحجرات: ٦).

سـريـة:

ثم بلغ رسولَ الله ﷺ أن جمعًا من الحبشة رآهم أهل جُدَّة فى مراكبهم يُريدون الإغارة عليها، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزِّز فى ثلاثمائة، فذهب حتى وصل جُدة ونزل فى المراكب ليدركهم، وكان الأحباش متحصنين فى جزيرة هناك، فلمّا رأوا المسلمين يريدونهم هربوا، ولم يلقَ المسلمون كيدًا، فرجع علقمة بمن معه.

ولما كان بالطريق أذن لِسَرَعان القوم أن يتعجلوا، وأمَّر عليهم عبد الله بن حذافة السَّهْمِى، وكان فيه دعابة فأوقد لهم فى الطريق نارًا، وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتى؟ قالوا: نعم، قال: عزمت عليكم إلا ما تواثبتم فى هذه النار؟ فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار!! وهمَّ بذلك بعضهم فمنعهم عبد الله، وقال: كنت مازحًا.

فلمّا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال: **«لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»**. (١)

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

## السنة التاسعة:

### سرية:

**فى ربيع الأول:** أرسل ﷺ عليًّ بن أبى طالب فى مائة راكب وخمسين فارسًا لهدم الفُلس (صنم لطيئ) فسار إليه وهدمه وأحرقه، ولما حارب عُبَّاده هزمهم، واستاق نَعَمهم وشاءهم وسَبْيَهم، وكان فيه سَفَّانَةُ بنتُ حاتم طيئ.

ولما رجع عليٌّ إلى المدينة طلبت سَفَّانةُ من رسول الله ﷺ أن يَمُنَّ عليها فأجابها، لأنه كان من سنته أن يكرم الكرام، فَدعَتْ له، وكان من دعائها: (شكرَتْكَ يدٌ افتقرت بعد غنًى، ولا ملكتكَ يدٌ استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعَه، ولا جعل لكَ إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سببًا لردها عليه).

وكانت هذه المعاملة من رسول الله ﷺ سببًا فى إسلام أخيها عدى بن حاتم الطائى؛ الذى كان فر إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان من حديث مجيئه أن أخته توجهت إليه بالشام وأخبرته بما عُوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين فى أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تَلْحق به سريعًا فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكًا فأنت أنت، قال: والله هذا هو الرأى.

### وفود عدى بن حاتم:

فخرج حتى جاء المدينة ولقى رسولَ الله ﷺ فقال ﷺ : **«مَن الرجل؟»** قال: عدىٌّ ابن حاتم، فأخذه إلى بيته، وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسولَ الله ﷺ امرأةٌ عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلاً تُكَلِّمُه فى حاجتها، فقال عدىٌّ: والله ما هو بملك، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوةً ليفًا فقدَّمها إلى عدى، وقال: **«اجلسْ على هذه»**، فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع ﷺ وأعطاها له، وجلس هو على الأرض، ثم قال: **«يا عدىُّ؛ أسلمْ تسلمْ»**، قالها ثلاثاً، فقال عدى: إنى على دين -وكان نصرانيًا- فقال له ﷺ : **«أنا أعلم بدينك منك»**، فقال عدىٌّ: أنت أعلم بدينى منى؟! قال: **«نعم»**، ثم عدد له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح فى شىء، كأخذه المرباع، وهو ربع الغنائم، ثم قال: **«يا عدىُّ، إنما يمنعك من الدخول فى الدين ما ترى، تقول: إنما اتَّبعه ضَعَفةُ الناس**

**ومَن لا قدرةَ لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة؟»** قال: لم أرها، وقد سمعتُ بها، قال: **«فوالله ليتمنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم».** (١)

فأسلمَ عديّ رضي الله عنه، وعاش حتى رأى كل ذلك.

## غزوة تبوك (جيش العسرة)

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك في زمن عُسْرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار، والناس يحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم، فأمر ﷺ بالتجهز، وكان قلَّما يخرج في غزوة إلا ورَّى بغيرها ليُعَمِّيَ الأخبار على العدو، إلا في هذه الغزوة، فإنه أخبر بمقصده؛ لبُعد الشُّقة ولشدة العدو؛ ليأخذ الناس عُدتَهم لذلك، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك، وحثَّ الموسرين على تجهيز المعسرين، فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرسًا، فقال ﷺ: **«اللهم ارضَ عن عثمان فإني راضٍ عنه»**(٢) وجاء أبو بكر بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال ﷺ: **«هل أبقيتَ لأهلك شيئًا؟»** فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، وجاء العبَّاسُ وطلحة بمال كثير، وتصدَّق عاصم بن عدي بسبعينَ وسْقًا من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرنَ عليه من حُليهن، وجاءه ﷺ سبعةُ أنفس من فقراء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم، فقال: **«لا أجد ما أحملكم عليه»** فتولَّوا وأعينُهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما يُنفقون، فجهَّز عثمان ثلاثة منهم، وجهَّز العباسُ اثنين، وجهَّز يامين بن عمرو(٣) اثنين.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٣٦)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٣٧٤).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٣٧٥٢)، وأحمد (٤/ ٧٥)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٦٠٦٣).

(٣) يامين بن عمرو: وفي ابن هشام: ياميل بعد يامين بن عمير، وكذلك في أسد الغابة، وهو من مسلمي أهل الكتاب، وقال ابن عبد البر: يامين بن عمير، من بني النضير، أسلم وأحرز ماله، وحسن إسلامه. (م).

ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله ﷺ وهم ثلاثون ألفًا، وولّى على المدينة محمدَ بن مَسلمة، وعلى أهله عليًّ بن أبى طالب.

وتخلّفَ كثيرٌ من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أبيّ، وقال: يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد!! أيحسبُ محمد أن قتالَ بنى الأصفر معه اللعبُ؟ والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مُقرَّنين فى الحبال، واجتمع جماعة منهم فقالوا فى حق رسول الله ﷺ وأصحابه ما يُريدون من الإرجاف، فبلغه ﷺ ذلك، فأرسل إليهم عمارَ بن ياسر يسألهم عما قالوا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

وجاء إليه جماعة منهم الجد بن قيس، يعتذرون عن الخروج، فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا ولا تَفْتِنَّا لأنَّا لا نأمن من نساء بنى الأصفر، وجاء إليه المعذرون من الأعراب -وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة- ليؤذن لهم فأذن لهم، وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم، وقد عتب الله عليه فى ذلك الإذن بقوله فى سورة التوبة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣)، ثم قال فى حقهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥)، ثم كذبهم الله فى عذرهم فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة: ٤٦)، ثم لكى لا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال -جل ذكره-: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ٤٧).

وتخلّف جماعة من المسلمين لا يُتَّهمون فى إسلامهم منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومَرارة بن الربيع، وأبو خيثمة، ولما خلّف ﷺ عليًا قال المنافقون: قد استثقله فتركه. فأسرعَ إلى رسول الله ﷺ وشكا له ما سمع، فقال ﷺ: **«أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟»**.(1)

ثم سار ﷺ بالجيش، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصدّيق.

وفى إعطاء اللواء لأبى بكر آخر غزوةٍ للرسول ﷺ وتخليف عليٍّ على أهل البيت حكمةٌ لطيفة يفهمها القارئ.

---

(1) صحيح: رواه البخارى (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

وفرَّق ﷺ الرايات: فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأسيد بن حُضَير راية الأوس، والحُباب بن المنذر راية الخزرج.

ولما مر الجيش بالحجر، وهى ديار ثمود، قال ﷺ لأصحابه: **«لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون»**[1] ليشعر قلوبهم رهبة الله، وكان مستعملاً على حرس الجيش عبَّاد بن بشر، وكان أبو بكر يصلى بالجيش، ولما وصلوا إلى تبوك، وكانت أرضاً لا عمارة فيها، قال الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل: **«يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا مليئاً بساتين»**، وقد كان.[2]

ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة، وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى بستان، قد رشت كل منهما عريشتها وبرَّدت فيها ماء وهيَّأتْ طعامًا، وكان يومًا شديد الحر، فلما نظر ذلك قال: يكون رسول الله ﷺ فى الحر وأبو خيثمة فى ظلٍّ بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء! ما هذا بالنَّصَف، ثم قال: والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيِّنا لى زادًا، ففعلتا، ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يريد رسولَ الله ﷺ فصادفه حين نزل بتبوك.[3]

### وفود صاحب أيلة:

هذا، ولم يرَ ﷺ بتبوك جيشًا كما كان قد سمع، فأقام هناك أيامًا جاءه فى أثنائها يُوحنَّا صاحبُ أيلة وصحبته أهلُ جرباء[4] وأهل أذْرُح[5] وأهل ميناء، فصالح يوحنا رسولَ الله ﷺ على إعطاء الجزية ولم يُسلِم، وكتب له الرسول كتابًا هذه صورته:

### كتاب صاحب أيلة:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمدٍ النبىِّ رسولِ الله ليوحنا وأهل أيلة: سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبى، ومن كان معهم

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٣٣٧٨، ٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٧٠٦).

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٧٦٩).

(٤) قرية فى جنوب الشام.

(٥) مدينة تلقاء السراة.

من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يجوز ماله دون نفسه، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر.

**كتاب أهل أذرح وجرباء:**

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتابًا صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبيّ لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين).

وصالح أهل ميناء على ربع ثمارها.

ثم إن الرسول ﷺ استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام، فقال له عمر: إن كنتَ أمرتَ بالسير فسرْ، فقال ﷺ: لو كنت أمرتُ بالسير لم أستشر»، فقال: يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزعهم دُنُوُّكَ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرًا، فتبع ﷺ مشورته، وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة.

**مسجد الضرار:**

ولما كان على مقربة منها بلغه خبر مسجد الضّرار، وهو مسجد أسَّسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قُباء؛ ليفرِّقوا جماعة المسلمين، وجاء جماعة منهم إلى الرسول ﷺ طالبين منه أن يصلّيَ لهم فيه، فسألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر ﷺ جماعة من أصحابه لينطلقوا إليه ويهدموه، ففعلوا.

هذا، ولما استقر ﷺ بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلَّفوا يعتذرون كذبًا، فقبل منهم ﷺ علانيتهم، ووكل ضمائرهم إلى الله واستغفر لهم.

**حديث الثلاثة الذين خُلّفوا:**(١)

وجاءه كعبُ بن مالك الخزرجي، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الأوسيان،

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

مقـرِّين بذنوبهم، فلما دخل عليـه كعب تَبَـسَّم تَبَسُّم الغَـضب، وقال: **«مـا خلَّفك؟»** فقال: يا رسول اللّه، لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرجَ من سخطه بعذر، ولقد أوتيتُ جَـدَلاً، ولكنى والله لقد علمتُ لئن حدثْتُكَ اليـوم حديثَ كذب ترضى به عنى ليوشكنَّ الله أن يَسْخَطَ علىَّ فيـه، ولئن حدَّثتُك حديث صدق تغضب علىَّ فيه؛ إنى لأرجو فيه عـفو الله، والله ما كان لى من عذر، فقال ﷺ : **«أما هذا فقد صدق، فقُم حتى يقضى الله فيك»**، وقال صاحباه مثل قوله، فقال لهما ﷺ كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم، فاجـتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، واستأذنت زوجُ هلال بن أمية فى خدمة زوجها؛ لأنه شيخ ضائع ليس له خادم، فأذن لهـا، ولم يزالوا كذلـك حتى ضـاقت عليـهم الأرض بما رَحُبَتْ، وضـاقت عليـهم أنفسُـهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليـه، ثم تاب عليهم، فـأرسل لهم ﷺ مَن يبشِّرهُم بهذه النعمة الكبرى، فتلقَّاهم الناس أفواجًا أفواجًا يهنئونهم بتوبة الله.

فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله ﷺ مسرورًا، فقال: **«ابشرْ يا كعب بخير يوم يمرُّ عليك منذ ولدتك أمك»** فقال: من عندك يـا رسول الله أم من عند الله؟ قال: **«بل من عند الله»**، فقال كعب: يا رسول الله، إنّ من توبتى أن أنخلعَ من مالى صدقة لله ورسوله؛ فقال ﷺ : **«أمسكْ عليك بعض مالك فهو خير لك»**، ثم قرأ ﷺ الآيات التى فيها توبته هو وصـاحباه فى سورة التوبة: ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ (التوبة: ١١٨).

### وفـود ثقيـف:[١]

وعقب مقدمه ﷺ من تبوك وفد عليه وفد ثقيف، وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من محاصرتهـم تبع أثره عروة بن مسعود الثقفـى حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فـأسلم، وسأله أن يرجع إلى قـومه ويدعـوهم إلى الإسلام، فـقال له: **«إنهم قاتلوك»**، فقال: يا رسـول الله، أنا أحب إليهم من أبكارهم، فخـرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لأنه كان فيـهم محببًا مطاعًا، فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رمَوه بالنبل فقتلوه، وبعد شهـر من مقتله ائتمروا فيما بينهم، ورأوا أنه

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٩٣)، و«المغازى» للواقدى (٣/ ٩٦٨).

لا طاقة لهم بحرب مَن حولهم من العرب، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله ﷺ رجلاً منهم يكلِّمه، وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو[1] أن يكون ذلك الرجل فأبى[2]، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم، فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله ﷺ ضرب لهم قبة من ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلَّوا، وكانوا يَغْدون إلى رسول الله ﷺ كل يوم ويخلِّفون في رحالهم أصغرهم سنًا عثمان بن أبي العاص، فكان إذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائمًا استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئًا كثيرًا من القرآن، وهو يكتم ذلك عن أصحابه، ثم أسلم القوم وطلبوا أن يُعَيِّن لهم مَن يؤمُّهم، فأمَّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصِه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلُّم الدين.

**كتاب أهل الطائف:**

ثم كتب لهم كتابًا من جملته: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبيِّ رسول الله إلى المؤمنين، إنّ عضاة وَجٍّ وصيدَه حرام، لا يُعضد شجره، ومَن وُجد يفعل شيئًا من ذلك فإنه يُجلد وتُنزع ثيابه). ثم سألوا رسول الله ﷺ أن يؤَجِّلَ هدم صنمهم شهرًا حتى يدخل الإسلام في قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه، فرضي بذلك ﷺ.

ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم: أنا أعلمكم بثقيف، اكتموا عنهم إسلامكم وخوِّفوهم الحربَ والقتال، وأخبروهم أن محمدًا طلب أمورًا عظيمة أبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى وشرب الخمر والربا، فلما حلوا بلادهم جاءتهم ثقيفُ، فقال الوفد: جئنا رجلاً فظًا غليظًا قد ظهر بالسيف ودان الناس له، فعرض علينا أمورًا شديدة، وذكروا ما تقدّم، فقالوا: والله لا نطيعه أبدًا، فقالوا لهم: أصلحوا سلاحكم ورمّوا حصونكم واستعدوا للقتال، فأجابوا واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم، فقالوا: والله ما لنا بحربه من طاقة، ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا: لِمَ كتمتم علينا ذلك؟ قالوا: حتى تذهب عنكم نَخْوة الشيطان، فأسلموا.

---

(١) هو عبد يا ليل بن عمرو بن عمير الثقفي، كان وجهاً من وجوه ثقيف. (م).

(٢) امتنع أن يذهب وحده؛ لأنه خاف أن يفعلوا به ما فعلوا بعروة بن مسعود. (م).

**هــدم الــلات:**

ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفى لهدم اللاَّت صنم ثقيف بالطائف، فتوجهوا وهدموه حتى سوَّوه بالأرض.

**حــج أبــى بكــر:**[١]

**وفى أخريات ذى القعدة:** أرسل ﷺ أبا بكر ليحج بالناس، فخرج فى ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهَـدْى عشرون بدنة أهداها رسول الله ﷺ ، وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سـافر نزل على رسـول الله ﷺ أوائل سـورة التوبة، فـأرسل بها عليّـاً ليبلغها النـاس فى يوم الحج الأكبر، وقال: «**لا يبلِّغُ عنى إلا رجلٌ منى**». فلحق أبا بكر فى الطريق، فـقال الصدِّيق: هل اسـتعـملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثنى أقرأ أو أتلو براءة على الناس.

فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم علىٌّ ثلاث عشرة آية من أول سورة التوبة؛ تتضمن نَبْـذ العهود لجميع المشركـين الذين لم يوفُّوا عهودهم، وإمهالهم أربـعة أشهر يسيحون فـيها فى الأرض كيف شاءوا، وإتمام عهـد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمـين ولم يغدروا بـهم إلى مدتهم، ثم نادى: لا يَـحُجّ بعد العـام مشـرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، وكان علىٌّ يصلى فى هذا السفر وراء أبى بكر رضي الله عنهما.

**وفــاة ابــن أبــى:**

**وفى ذى القعدة:** مات عبد الله بن أبَى، وقـد صلَّى عليه رسول الله ﷺ صلاة لم يُطِلْ مثلَهـا، وشيَّعَ جنازته حتى وقف على قـبره، وإنما فعل ذلك تطييـبًا لقلب ولده عبد الله بن عـبد الله، وتأليفاً لقلوب الخـزرج لمكانة عبد الله بن أبى فـيهم، وقد نَزَعَ رِبْقَةَ النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم ﷺ .

وقد نهى اللهُ رسولَه بعـد ذلك عن الصلاة على المنافقين، فـقال -جَلَّ شأنه- فى سورة التوبة: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ**﴾ (التوبة: ٨٤).[٢]

**وفــاة أم كلثوم:**

**وفى هذه السنة:** توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما.

---

(١) انظر: «صحيح السيرة النبوية» ص (٦٢٥)، و «البداية والنهاية» (٧/ ١٣٦)، و«الطبقات الكبرى» (٢/ ١٦٨).

(٢) انظر: «صحيح البخارى» (٤٦٧٠)، و«صحيح السيرة النبوية» ص (٦٢١-٦٢٢).

## السنة العاشرة:

### سرية:

**فى ربيع الآخر:** أرسل ﷺ خالدَ بن الوليد فى جَمْع لبنى عبد المدان بنجران من أرض اليمن، وأمره أن يدُعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان فى كل وجه يدعون إلى الإسلام، ويقولون: أسلموا تسلموا، فأسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجًا، فأقام خالد بينهم يعلِّمهم الإسلامَ والقرآن، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، فأرسل إليه أن يَقْدمَ بوفدهم ففعل، وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: «**بم كنتم تَغْلِبُونَ من قاتلكم فى الجاهلية؟**» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «صدقتم»، وأمَّر عليهم زيد بن حُصين.

### سرية:

**وفى رمضان:** أرسل ﷺ عليًا فى جمع إلى بنى مَذْحِج (قبيلة يمانية) وعَمَّمَه بيده وقال: «سِرْ حتى تنزل بساحتهم فادعُهم إلى قول: لا إله إلا اللّه، فإن قالوا: نعم فمرهم بالصلاة، ولا تبغ منهم غير ذلك، ولأن يهدىَ الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك».

فلما انتهى إليهم لقى جموعهم، فدعاهم إلى الإسلام فأبَوا ورمَوا المسلمين بالنبل، فصفَّ علىٌّ أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوَّهم، فكفَّ عن طلبهم قليلاً، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام، فأجابوا وبايعه رؤساؤهم، وقالوا: نحن على مَنْ وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخُذْ منها حق الله، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فوافاه بمكة فى حجة الوداع.

### بعث العمال على اليمن:

ثم بعث ﷺ إلى اليمن عمالاً من قِبَله، فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن، وبعث أبا موسى الأشعرى على الكورة السفلى، ووصاهما ﷺ بقوله: «**يسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا**»(١)، وقال لمعاذ: «**إنك ستأتى قومًا أهل كتاب،**

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٣٤٢)، (٤٣٤٥).

**فإذا جئتَهم فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة، فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرْهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً، تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، واتَّقِ دعوةَ المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**(١).

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله ﷺ ، أما أبو موسى فقدم على الرسول ﷺ فى حجة الوداع.

**حجة الوداع:**(٢)

**وفى السنة العاشرة:** حج ﷺ بالناس حَجَّةً ودَّع فيها المسلمين، ولم يحجَّ غيرها، وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجة وولَّى على المدينة أبا دجانة الأنصاريَّ، وكان مع الرسول ﷺ جمع عظيم يبلغ تسعين ألفًا، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته، ثم لبَّى فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ولم يزل ﷺ سائرًا حتى دخل مكة ضُحًى من الثنية العليا، وهى ثنية كَدَاء، ولما رأى البيتَ قال: «**اللهم زدْه تشريفًا وتعظيمًا ومهابة وبراً**»، ثم طافَ بالبيت سبعًا، واستلم الحجر الأسود، وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعًا راكبًا على راحلته، وكان إذا صعد الصفا يقول: «**لا إله إلا الله، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»، وفى الثامن من ذى الحجة توجه إلى منى فبات بها.(٣)

**خطبة الوداع:**

وفى التاسع منه توجه إلى عرفة، وهناك خطب خطبته الشريفة التى بيَّن فيها الدِّينَ كلَّه أسسه وفرعَه، وهاك نصَّها:

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٣٤٧)، وهو الحديث السابق.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٩٥).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٤٠٧)، ومسلم (١٢١٨).

«الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحُثُّكم على طاعته، وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد:

أيها الناسُ؛ اسمعوا منى أبينْ لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.

أيُّها الناس، إنَّ دماءَكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقَوا ربَّكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهدْ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مَن ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أوَّلَ ربًا أبدأ به ربا عمّى العباس بن عبد المطلب، وإن دماءَ الجاهلية موضوعةٌ، وأوَّلُ دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السِّدانة والسقاية، والعَمْد قَوَدٌ، وشِبه العَمْد ما قُتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها الناس؛ إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقِرون من أعمالكم.

أيها الناس؛ إن النسىء[1] زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عامًا ويحرِّمونه عامًا؛ ليواطئوا عِدَّة ما حرَّم الله؛ وإن الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حُرُمٌ، ثلاثٌ متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جُمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس؛ إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهنَّ حق ألاَّ يُوطِئْنَ فُرُشَكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلنَ فإنَّ الله أذن لكم أن

---

(١) كانت العرب تحرم أربعة أشهر: ثلاثة متواليات، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وشهر رجب، وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم إلى الحرب والقتال، فأجَّلوا المحرم وحرَّموا صفراً من العام المقبل، فهذا هو الذى عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى فى عقيدتهم. (م).

تَعْضُلُوهنَّ[(١)] وتهجروهُنَّ فى المضاجع، وتضربوهنَّ ضَرْبًا غير مُبَرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقُهنَّ وكسوتهن بالمعروف؛ وإنما النساءُ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهنَّ خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيُّها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يَحِلُّ لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفسه منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعُنَّ بعدى كُفَّارًا يضربُ بعضكم رقابَ بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلُّوا بعده: كتابَ الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيُّها الناس؛ إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى فضلٌ على عجمىٍّ إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ.

أيُّها الناس؛ إن الله قد قسم لكل وارثٍ نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارثٍ وصيةٌ، ولا تجوز وصيةٌ فى أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحَجَر[(٢)]، من ادَّعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله».

وفى هذا اليوم امتنَّ الله على المؤمنين بقوله فى سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيدًا ويومًا سعيدًا يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى.

ثم إنه ﷺ أدى مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف، وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قَفَلَ إلى المدينة، ولما رآها كبَّر ثلاثاً وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». [(٣)]

---

(١) العضل: هو الحبس والتضييق. (م).
(٢) أى للزانى المتزوج الحد، وهو أن يُرمى بالحجارة حتى يموت. (م).
(٣) انظر: «صحيح السيرة النبوية» ص (٦٦٤)، و«السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٥٤٩).

# الوفود

فى هذه السنة والتى قبلها كان وفود العرب إلى رسول الله ﷺ ليبايعوه على الإسلام، وكانوا يَقْدَمُونَ أفواجاً، ولما فى أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التى يحتاج ذو الأدب أن يعرفها رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقينًا وينيرُ بصيرتَك فنقول:

**وفود نجران:**(١)

ومن الوفود وفد نصارى نجران، وكانوا ستين راكبًا، دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحَبِرة وأردية الحرير مختمين بالذهب، ومعهم بسط فيها تماثيل ومُسوح جاءوا بها هدية للنبى ﷺ، فلم يقبل البسطَ وقبل المسوحَ، ولما جاء وقت صلاتهم صَلوا فى المسجد مستقبلين بيت المقدس، ولما أتموا صلاتهم دعاهم ﷺ للإسلام فأبوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال ﷺ: «**يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتُكم الصليب، وأكلُكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً**»، قالوا: فمن مَثَلُ عيسى خلق من غير أب؟ فأنزل الله فى ذلك فى سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٥٩)، وليظهر الله لهم أنهم فى شك من أمرهم أنزل: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ (آل عمران: ٦١)، فدعاهم ﷺ لذلك فامتنعوا ورضوا بإعطاء الجزية، وهى ألفُ حُلة فى صفر وألفُ حُلة فى رجب، مع كل حُلة أوقية من ذهب، ثم قالوا: أرسل معنا أمينًا، فأرسل معهم أبا عبيدة عامرَ بن الجراح، وكان لذلك يُسمَّى أمين هذه الأمة.

**وفود ضمام بن ثعلبة:**(٢)

ومن الوفود ضِمَامُ بن ثعلبة، بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه متكئًا جاءه رجل من أهل البادية ثائرَ الرأس يُسمَعُ دويُّ صوته ولا يُفقه ما يقول، فأناخ جمله فى المسجد ثم قال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فدلوه عليه، فدنا منه وقال: إنى سائلك فمشددٌ

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٦٣٣)، و«البداية والنهاية» (٥/ ٤٨).

(٢) انظر: «صحيح السيرة النبوية» ص (٦٣١).

عليك في المسألة، فلا تَجِدْ[١] عليَّ في نفسك، فقال: «**سلْ ما بدا لك**»، فقال: أنشدك بالله، آلله أرسلك إلى الناس كلّهم؟ فقال: «**نعم**»، فقال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة؟ قال: «**اللَّهم نعم**»، فقال: أنشدك بالله؟ الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فتردَّه على فقرائنا؟ قال: «**اللَّهم نعم**»، قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهرًا؟ قال: «**اللَّهم نعم**»، قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نحجَّ هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «**اللهم نعم**»، قال: فإني قد آمنتُ وصدَّقتُ، وأنا ضِمَامُ بنُ ثعلبة.[٢]

ولما ولَّى قال ﷺ: «**فَقُهَ الرجل**»، ثم ذهب ضمام إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام وتركِ عبادة الأوثان، فأسلموا كلُّهم.

**وفود عبد القيس:**[٣]

ومن الوفود عبدُ القيس، وكان من خبرهم أن الرسول ﷺ كان جالسًا بين أصحابه يومًا فقال لهم: «**سيطلعُ عليكم من هنا ركْبٌ هم خيرُ أهل المشرق، لم يُكرَهوا على الإسلام، قد أنضَوا**[٤] **الركائب وأفنَوا الزاد، اللَّهم اغفرْ لعبد القيس**».

فلما أتوا ورأوا النبيَّ ﷺ رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد وتبادروا إلى رسول الله ﷺ يسلمون عليه، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج، وكان أصغرهم سنا، فتخلَّفَ عند الركائب حتى أناخها وجَمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، حتى جاء يمشي هَوْنًا حتى سلَّم على رسول الله ﷺ، وكان رجلاً دميمًا فَفَطِنَ لنظر الرسول ﷺ إلى دمامته، فقال: يا رسول الله، إنهُ لا يُستقى في مسوكِ جلود الرجال، وإنما الرجل بأصغريه: قلبِه ولسانِه، فقال ﷺ: «**إن فيك خُلَّتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**».[٥]

---

(١) أي لا تغضب. (م).

(٢) هو ضمام بن ثعلبة السعديُّ، أسلم قومه كلهم على يديه، قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قط كان أفضل من ضمام. (م).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية ص (٦٣١).

(٤) أنضوا: أهزَلُوا. (م).

(٥) **صحيح**: رواه البخاري (٥٠٣)، ومسلم (١٧).

وقد قال ﷺ لهذا الوفد: «**مرحبًا بالقوم غير خزايا ولا ندامى**»، فقالوا: يا رسول الله؛ إنا نأتيك من شُقَّة بعيدة،(١) وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مُضر، وإنا لا نصلُ إليك إلا فى شهر حرام، فمرنا بأمر فصل، فقال: «**آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن الدبَّاء(٢) والحنتم(٣) والنقير(٤) والمزفَّت**»(٥)، والمراد بذلك ما ينبذ فى هذه الأوانى، فقال الأشج(٦): يا رسول الله، إن أرضنا ثقيلة وخمة، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا فَرَخِّصْ لنا فى مثل هذه، وأشار إلى يده، فأومأ ﷺ بكفيه، وقال: «**يا أشج؛ إن رخصتُ لك فى مثل هذه شربته فى مثل هذه -وفرَّج بين يديه وبسطها- حتى إذا ثَمِلَ أحدُكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضربَ ساقه بالسيف**»، وإنما خَصَّ ﷺ نهيهم بما ذُكر لكثرة الأشربة بينهم.(٧)

**وفود بنى حنيفة:**

ومن الوفود بنو حنيفة، وكان معهم مُسيلمة الكذاب، وكان مُسيلمة يقول: إن جعل لى الأمر من بعده اتَّبَعْتُهُ، فأقبلَ ﷺ ومعه ثابتُ بن قَيْس بن شَمَّاس، وفى يد رسول الله ﷺ قطعة من جريد حتى وقف على مُسيلمة فى أصحابه، فقال: «**إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكَها، وإنى لأراك الذى منه رأيت**»، وكان ﷺ قد رأى فى منامه أن فى يده سوارَين من ذهب، فأهمه شأنهما، فأوحى الله إليه أن انفخهما، فنفخهما فطارا، فأوَّلَهما ﷺ كذَّابَيْنِ يخرجان من بعده، فكان مُسيلمة أحدهما، والثانى الأسود العنسىَّ، صاحب صنعاء، وقد أسلم بنو حنيفة.(٨)

---

(١) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج العربى، وهى ديار ربيعة وبينهم وبين الحجاز أرض نجد. (م).

(٢) القرع: اليابس. (م).

(٣) هو جرار مدهونة بدهان أخضر. (م).

(٤) هو أصل النخلة ينقر. (م).

(٥) ما طلى بالزفت. (م).

(٦) الأشج: رجل أشج: بين الشَّجَّة، إذا كان فى جبينه أثر الشجة. (م).

(٧) **صحيح**: انظر الحديث السابق.

(٨) **صحيح**: رواه البخارى (٣٦٢١، ٧٠٣٤)، ومسلم (٢٢٧٤).

**وفود طيئ:**

ومن الوفود وفد طيئ، وفيهم زيدُ الخيل رئيسُهم، وقد قال ﷺ في حقه: «**ما ذُكر لى رجل من العرب إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل**»، وسمَّاه ﷺ زيد الخير.

**وفود كندة:**

ومنهم وفد كِنْدَةَ، وفيهم الأشعثُ بن قيس، وكانَ وجيهًا مطاعًا فى قومه، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ خبَّأوا له شيئًا وقالوا: أخبرنا عما خَبأناه لك؟ فقال: «**سبحان الله إنما يُفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والمُتكَهِّنَ فى النار**»، ثم قال: «**إن الله بعثنى بالحق، وانزل علىَّ كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**»، فقالوا: أسمعْنا منه، فتلا ﷺ : ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**﴾ (الصافات: ١-٥) ثم سكت وسكنَ ودموعُهُ تجرى على لحيته، فقالوا: إنا نراك تبكى؟ أفمن مخافة مَن أرسلكَ تبكى؟ قال: «**إن خشيتى منه أبكتنى، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف، إن زغت عنه هلكتُ**»، ثم تلا: ﴿**وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ۝٨٦ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً**﴾ (الإسراء: ٨٦، ٨٧). ثم قال لهم ﷺ : «**ألم تسلموا؟**» قالوا: بلى، قال: «**ما بال هذا الحرير فى أعناقكم؟**» فعند ذلك شقُّوه وألْقَوْه.

**وفود أزد شنوءة:**

ومنهم وفد أزد شنوءة، ورئيسهم صُرَدُ بن عبد الله الأزدى، فأسلموا، وأمَّره عليهم، وأمره أن يجاهد بمن أسلم مَن كان يليه من أهل الشرك.

**وفود رسول ملوك حمير:**

ومنهم وفد رسول ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعيم بن عبد كُلال، والنعمانُ، ومَعَافِرَ وهَمْدان، وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب إليهم النبى ﷺ :

**كتاب ملوك حمير:**

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال، وإلى النعمان، قَيْل ذى رعين ومَعَافر وهَمْدان، أما بعد، فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله

إلا هو؛ أما بعد؛ فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم، فلقيناه بالمدينة فبلَّغ ما أرسلتم به وخبر ما قِبَلكُم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبى وصفيه وما كُتب على المؤمنين من الصدقة.

أما بعد، فإن محمدًا النبى أرسل إلى زُرْعَة بن ذى يزن، إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرًا: معاذُ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عُبادة، وعُقبة بن نمر، ومالك بن مُرَّة، وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلى، وإن أميرَهم معاذُ بن جبل فلا يَنْقلبَن إلا راضياً.

أما بعد؛ فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسولُه، ثمّ إن مالك بن مرَّة الرَّهاوى قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيرًا، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإن رسول الله ﷺ هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تَحِلُّ لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هى زكاة يُزَكَّى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وإن مالكًا قد بلَّغ الخبر وحفظ الغَيب، وآمركم به خيراً،[1] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

**وفود همدان:**

ومنها وفود هَمْدان، وفيهم مالك بن نَمَط، وكان شاعرًا مجيدًا، فلقوا رسول الله مَرْجِعَهُ من تبوك، عليهم مُقَطَّعَات من الحبَرات[2] اليمنية والعمائم العدنية، وقد أنشد مالكُ لرسول الله ﷺ :

حلفتُ بربِّ الراقِصَات إلى منى | صَوادرَ بالرُّكبان من هَضْب قَرْدَدِ[3]
بأن رسولَ الله فينا مُصَدَّقٌ | رسولٌ أتى من عند ذى العرش مُهتدِ
فما حَمَلَتْ من ناقة فوق رَحْلها | أشدَّ على أعدائه من مُحمَّدِ

(١) فى سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٥٩٠ زيادة: وأنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى، وأولى دينهم، وأولى علمهم، وآمرك بهم خيراً، فإنهم منظور إليهم. (م).

(٢) مقطعات: ثياب مخيطة، والحبرات: برود يمنية. (م).

(٣) الراقصات: الإبل، وصوادر: رواجع، والقردد، ما ارتفع من الأرض. (م).

وقد أمَّره ﷺ على مَن أسلم من قومه، وقد قال الرسول ﷺ فى حق هَمْدان: «**نعمَ الحيُّ هَمْدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال**[1]، **وفيهم أوتاد**».

**وفود تجيب:**

ومنها وفدُ تُجيب -قبيلة من كندة- وفد على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر رجلاً منهم، معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم، فسرَّ بهم ﷺ وأكرم مثواهم، وقالوا: يا رسول اللّه، إنَّا سُقْنَا إليك حَقَّ الله فى أموالنا، فقال ﷺ: «**رُدُّوها فاقسِموها على فقرائكم**». فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله، ما قدم علينا وفدٌ من العرب مثل هذا الوفد، فقال ﷺ: «**إن الهُدَى بيد الله -عز وجل-، فمَن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان**»، وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد ﷺ رغبة فيهم، ثم أرادوا الرجوع إلى أهليهم، فقيل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا: نرجعُ إلى مَنْ وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ﷺ ولقائنا إياه وما ردَّ علينا، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فودَّعوه، فأجازهم بأفضلَ ما كان يجيز به الوفود، ثم قال لهم: «**هل بقى منكم أحد؟**» قالوا: غلام خلَّفْنَاه على رِحالنا وهو أحدثُنا سنًا، قال: «**فأرسلوه إلينا**»، فأرسلوه، فأقبل الغلام وقال: يا رسول الله، أنا من الرهط الذين أتَوْكَ آنفًا فقضيتَ حوائجهم فاقض حاجتى، قال: «**وما حاجتك؟**» قال: تسأل الله أن يغفرَ لى ويرحمنى ويجعلَ غناى فى قلبى، فقال ﷺ: «**اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه**»، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

**وفود ثعلبة:**

ومنها وفد ثَعْلَبَةَ، وفد على رسول الله ﷺ أربعة منهم مقرين بالإسلام، فسلَّمُوا عليه، وقالوا: يا رسول اللّه، إنا رسلُ مَنْ خلفنا من قومنا، ونحن مقرون بالإسلام، وقد قيل لنا إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال ﷺ: «**حيثما كنتم واتَّقَيْتُم الله فلا يَضُرُّكُم**». ثم قال لهم: «**كيف بلادكم؟**» فقالوا: مخصبون، فقال: «**الحمد لله**»، ثم أقاموا فى ضيافته أياماً، وحين إرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواقٍ من فضة.

---

(١) الأبدال: هم الأولياء والعباد. (م).

**وفود بنى سعد ابن هذيم:**

ومنها وفد بنى سعد ابن هذيم من قُضاعة، قال النعمان منهم: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً فى نفر من قومى، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد وأزاح العرب، والناسُ صنفان: إما داخل فى الإسلام راغب فيه، وإما خائف السيفَ، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤمُّ المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فوجدنا رسول الله ﷺ يصلى على جنازة فى المسجد، فقمنا خلفه ناحية، ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم، وقلنا حتى يصلى رسول الله ﷺ ونبايعه، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ فنظر إلينا فدعا بنا فقال: «**ممن أنتم؟**» فقلنا: من بنى سعد ابن هذيم، فقال: «**أمسلمون أنتم؟**» قلنا: نعم، فقال: «**هلاَّ صلَّيتم على أخيكم؟**» قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعَك، فقال ﷺ: «**أينما أسلمتم فأنتم مسلمون**»، قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ بأيدينا، ثم انصرفنا إلى رحَالنا، وقد كنّا خَلّفنَا عليها أصغرَنا، فبعث ﷺ فى طلبنا، فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا فبايعه ﷺ على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا، فقال: «**سيدُ القوم خادمُهُم، بارك الله عليه**»، قال النعمان: فكان خيرَنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبى ﷺ له، ثم أجازهم وانصرفوا.

**وفود بنى فزارة:**

ومنها وفد بنى فزارة، وفد على رسول الله ﷺ جماعة منهم مقرِّين بالإسلام وهم مسنتون[1] فسألهم ﷺ عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وجاعت عيالنا، فادعُ لنا ربَّكَ يُغثْنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال ﷺ: «**سبحان الله، ويلك هذا! أنا أشفع إلى ربى، فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه! لا إله إلا هو العلى العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، فهى تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرَّحْل...**» الحديث، أى من ثقل الحمل، ثم صعد ﷺ المنبر ودعا الله -عز وجل- حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة.

**وفود بنى أسد:**

ومنها وفد بنى أسد، وفيهم ضِرَارُ بن الأزور، وطليحة بن خُويلد الذى ادعى النبوة بعد ذلك، فأسلموا، وقالوا: يا رسول الله أتيناك نتدرعَ الليل البهيم فى سنة

(١) مسنتون: أى أصابهم الجدب.

شهباء ولم تبعث إلينا بعثًا، فأنزل الله فى ذلك: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (الحجرات: ١٧).

وسألوا رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلون فى الجاهلية من العيافة[1] والكهانة وضرب الحصباء فنهاهم عن ذلك كله، ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال: «**عَلَّمَهُ نبى، فمن صادف مثل علمه فذاك، وإلا فلا**»، ثم أقاموا أيامًا يتعلمون الفرائض، وبعد ذلك ودَّعوا وانصرفوا بعد أن أجيزوا.

**وفود بنى عذرة:**

ومنها وفد بنى عُذْرَة، ووفد بنى بَلِىٍّ، ووفد بنى مُرَّة، ووفد خَوْلان -وهى قبائل من اليمن-، وقد أمرهم ﷺ بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحدًا، فإن الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة.

**وفود بنى محارب:**

ومنها وفد بنى محارب، وكانوا من الذين ردُّوا الرد القبيح حينما كان رسول الله ﷺ بعكاظ يدعو القبائل إلى الله، فما أعظم منة الله الذى أتى بهؤلاء -وكانوا ألدَّ الأعداء- مسلمين مُنقادين.

**وفود غسان:**

ومنها وفد غسان، ووفد بنى عبس، ووفد النَّخَع.

وكان ﷺ يقابل هذه الوفود بما جَبَلَهُ الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، ويجيزهم بما يرضيهم، ويعلِّمهم الإيمان والشرائع ليُعَلِّموا مَنْ وراءَهم، وكانت هذه الوفود أعظمَ وُصْلَةٍ لإظهار الدين بين الأعراب فى البوادى.

**وفاة إبراهيم ابن النبى ﷺ:**

**وفى هذه السنة:** توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

---

(١) هى زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها والتخرص على الغيب. (م).

## السنـة الحادية عشرة:

**سـريـة:**

لأربع بقينَ من صفر جَهَّز ﷺ جيشًا برياسة أسامة بن زيد إلى أُبْنى حيث قُتل زيد ابن حارثة، والد أسـامة، وقال له: «**سر إلى موقع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحًا على أهل أُبْنى، وحرِّق عليهم، وأسرع السيرَ لتسبقَ الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلّ اللبثَ فيهم، وخُذ الأدلاَّء وقدّم العيونَ والطلائعَ معك**»، وكان مع أسـامة فى هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد، ثم عقد ﷺ لأسامة اللواء، وقال له: «**اغزُ باسم الله فى سبيل الله، وقاتل من كفر بالله**». [١]

وقد انتقد جماعة على تأمير أسامـة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبـار المهاجرين، فأبلغ الرسولُ ﷺ هذه المقالةَ فغضب غـضبًا شديدًا وخرج فقال:

«**أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة، ولئن طعنتم فى تأمير أسامة لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله؟! وايم الله إنه كان لخليقًا بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليقٌ بها، وإن كان لمن أحب الناس إلىَّ، وإنهما لمظنة لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم**». [٢]

ولم يتم لهذا الجيش الخروج فى عهد المصطفى ﷺ؛ لأن المرض بدأه، فاختاره الله للرفيق الأعلى، وسيرى القارئ إن شاء الله خروج هذا الجيش متممًا فى كتابنا «إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء».

## مـرض الرســول ﷺ

لما تم ﷺ ما كُلِّفَ به وأدى ما اؤتمن عليه، وهدى الله به أمته، اختاره الله للرفيق الأعلى، فجلس على المنبر مرة، وكان فيما قال: «**إن عبداً من عباد الله خَيَّره الله بين أن**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

**يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده»**. فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فقال ﷺ : **«إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، فلو كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد خوخة[1] إلا سُدَّت إلا خَوْخة أبي بكر»**.[2]

وقد بدأه ﷺ مرضُه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة، واستمر مريضًا ثلاثة عشر يومًا، كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يُمَرَّض في بيت عائشة الصدِّيقة فأذنَّ له، ولما دخلَ بيتها واشتد عليه وجعه قال: **«هَرِيقوا عليَّ من سبع قِرَب لم تُحْلَلْ أوكيتهن لعلِّي أعهد إلى الناس»**، فأجلس في مخضب وَصُبَّ عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتنَّ، وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمَّى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه.

**صلاة أبي بكر بالناس:**

ولما تعذَّرَ عليه الخروج إلى الصلاة قال: **«مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»**، فرضيهُ ﷺ خليفةً له في حياته.[3]

ولما رأت الأنصارُ اشتدادَ وجع الرسول ﷺ أطافوا بالمسجد، فدخلَ العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج ﷺ متوكئًا على عليٍّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبي ﷺ معصوبُ الرأس يَخُطُّ برجليه، حتى جلس في أسفل مِرقاة من المنبر، وثار الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

**«يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم؛ هل خُلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلَّد فيكم، ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا، وأوصى المهاجرين فيما بينهم، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** (العصر).

**وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنَّكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله -عز وجل-**

(١) خوخة: الفتح في الجدار يدخل منها الضوء، والمراد بها هنا الباب كما في سيرة ابن هشام. (م).
(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٤٦٦، ٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢٠٧).

**لا يعجِّل بعجلة أحد، ومن غَالَبَ الله غلبه، ومن خادع الله خدعه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢)، وأوصيكم بالأنصار خيرًا، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يُوَسِّعُوا لكم فى الديار؟ ألم يُؤْثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن وُلّى أن يحكم بين رجلين فليقبلْ من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإنى فَرَط لكم وأنتم لاحقون بى، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحبَّ أن يَرِدَه علىَّ غداً فليكففْ يده ولسانه إلا فيما ينبغى».** (١)

وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلّى بهم إذا برسول الله ﷺ قد كشف سَجْف حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصلَ الصَّفَّ، وظنَّ أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرةَ وأرخى السترَ. (٢)

## وفاة رسول الله ﷺ

ولم تأتِ ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق بمولاه، وكان ذلك فى يوم الاثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٣م) فيكون عمره ﷺ ٦٣سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام، وإحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يومًا.

وكان أبو بكر غائبًا بالسّنح، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج، عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد، فسَلَّ عمر سيفَه وتوعَّد من يقول: مات رسول الله، وقال: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فلبثَ عن قومه أربعين ليلة، والله إنى لأرجو أن يُقطِّع أيدى رجالٍ وأرجلَهم، فلما أقبل أبو بكر وأُخبر الخبر دخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله ﷺ فجثا يُقَبِّلُهُ ويبكى، ويقول: تُوفى والذى نفسى

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٧٩٩، ٣٨٠١).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٤٨).

بيده، صلوات الله عليك يا رسـول الله، ما أطيبك حـيًا وميـتًا! بأبى أنت وأمى، لا يجمع الله عليك موتتين.

ثم خرج فحمد الله وأثنـى عليه ثم قال: (ألا من كان يعبدُ محمـداً فإن محمدًا قد مـات، ومن كان يعبـد الله فإن الله حَىٌّ لا يموت) وتلا قـوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ (الزمر: ٣٠)، وقوله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (آل عمران: ١٤٤)، قال عمر: والله لكأنى لم أتلُ هذه الآية قط.(١)

ثم مكث ﷺ فى بيته بقـية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه ولـيلة الأربعاء، حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفـة عليهم فَغُسِّلَ وَدُفِنَ؛ وكان الذى يغسله علىٌّ بن أبى طالب ويسـاعده العبـاسُ وابناه الفضل وقـثم وأسامـة بن زيد وشُقْـران مولى رسول الله ﷺ، وكُفنَ فى ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة.(٢)

ولما فرغوا من تجـهيزه وُضع على سريره فى بيتـه، ودخل الناس عليه أرسالاً -أى جمـاعات- متتـابعين يُصَلُّون عليه ولم يؤمـهم أحد(٣)، ثم حُفِرَ له لحـد فى حجرة عائشة حيث توفى، وأنزله القبرَ علىٌّ والعـباس وولداه الفضل وقثم، وَرَشَّ قبره بلالٌ بالماء، ورُفع قبره عن الأرض قدر شبر.(٤)

توفى رسول الله ﷺ وترك للمسلمـين ما إن اتَّبعوه لم يضـرَّهم شىء: كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وترك أصحابه البررة الكرام يوضِّحون الدين، ويتـممون فتح البلاد، ويظهرون فى الدنيا شمس الدين الإسلامى القويم حتى يتمَّ اللهُ كلمته ويحقَّ وعده وقد فعل.

**فنسأل الله أن يقدِّرنا على أداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى**

---

(١) انظر: «تفسير القرطبى» (٢/ ١٧٦)، و«صحيح البخارى» (٤٤٥٢) (٤٤٥٤).

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٥٩، ٦٠)، وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى، وصححه ابن حبان.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم (٢/ ٦٥٠)، كتاب الجنائز.

(٤) انظر: «صحيح السيرة النبوية» ص (٧٢٧)، و«الموطأ» (٥٤٥).

## شمائله ﷺ (١)

منح الله سبحانه نبينا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده، ولابد أن نأتى لك فى هذا الباب[٢] بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه لتكون لك أنموذجًا تسير عليه، حتى تكون على قدم نبيك ﷺ ، فتستحق الحمد فى الدنيا والذخر فى الأخرى.

فاعلم -أرشدنى الله وإياك وهدانا للصراط السوىّ- أن خصال الجلال والكمال فى البشر نوعان:

- ضرورى دنيوى اقتضته الجبلّة وضرورة الحياة.
- ومكتسب دينى، وهو ما يحمد فاعله ويُقرَّبُ إلى الله زلفى.

فأما الضرورى: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان فى جبلَّته ﷺ من كمال الخِلْقة، وجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزة القوم، وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه.

**أما المكتسبة الأخروية:** فسائر الأخلاق العلية والآداب الشرعية من: الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة . . . وأخواتها، وهى التى يجمعها حسن الخُلُق.

فإذا نظرت -رعاك الله- إلى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة وفى جبلة الخلقة؛ وجدته ﷺ حائزًا لجميعها محيطًا بشتات محاسنها.

فأما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه فى حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة

---

(١) انظر: «الشمائل المحمدية» للترمذى بتحقيقى ط. دار الغد الجديد.

(٢) جل ما ذُكر فى الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب «الشفاء» للقاضى عياض رحمه الله. (م).

والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه ﷺ كان: أزهر اللون[١] أدعج[٢] أنجل[٣] أشكل[٤] أهدبَ الأشفار[٥] أبلج[٦] أزج[٧] أقنى[٨] أفلج[٩]، مدوَّر الوجه، واسع الجبين، كثَّ اللحية تملأ صدره، سواءَ البطن والصدر، عظيم المنكبين،[١٠] ضخم العظام، عبْل[١١] العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرَّد، دقيق المسربة[١٢]، ربعةَ القدِّ، ليس بالطويل البائن[١٣] ولا القصير المتردد[١٤]، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد يُنسب إلى الطول إلا طاله ﷺ ، رجلَ الشعر إذا افترَّ ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حبِّ الغمام، إذا تكلم رُئى كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عنقاً، ليس بمطهَّم[١٥] ولا مكلثم، متماسك البدن، ضرب اللحم.[١٦]

قال البراءُ بن عازب: ما رأيتُ من ذى لِمَّة سوداءَ فى حُلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ[١٧]، وقال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه، وإذا ضحك يتلألأ فى الجُدُر.

---

(١) نير اللون أو حسنه. (م).
(٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها. (م).
(٣) واسع العين مع حسن. (م).
(٤) فى بياض عينيه حمرة. (م).
(٥) كثير شعر حروف الأجفان. (م).
(٦) مضىء الوجه مشرقه. (م).
(٧) دقيق الحاجبين فى طول. (م).
(٨) مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها. (م).
(٩) مفرج بين الثنيا والرباعيات. (م).
(١٠) المنكب مجمع رأس العضد والكتب. (م).
(١١) ضخم. (م).
(١٢) المسربة شعر دقيق من الصدر إلى البطن. (م).
(١٣) مفرط الطول. (م).
(١٤) المتناهى فى القصر. (م).
(١٥) المطهم: الفاحش السمن. (م).
(١٦) انظر ما رواه البخارى (٣٥٤٨، ٥٩٠٠)، ومسلم (٢٣٤٧).
(١٧) صحيح: رواه البخارى (٥٩٠١)، ومسلم (٢٢٣٧).

وفى حديث ابن أبى هالة: يتلألأ وجهُه تلألؤَ القمرِ ليلةَ البدر، وقال علىّ فى آخر وصفه له: مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفـه أحبَّهُ، يقول ناعتُه؛ لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ.(١)

أمَّا نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصَّه الله تـعالى فى ذلك بخصائص لم توجـد فى غيره، ثم أتمَّها بنظافـة الشرع، قال ﷺ: «**بُنى الدين على النظافة**»(٢) وقال أنس: ما شمـمتُ عنبرًا قط، ولا مسكًا ولا شيئًـا أطيبَ من ريح رسول الله ﷺ(٣)، وعن جابر بن سـمرة: أنه ﷺ مَسحَ خدَّه، قـال: فوجدتُ ليده بردًا وريحًـا، كأنما أخرجـها من جُونة عطار، قال غـيره: مسها بطيب أو لم يمسَّهَا، يصَـافح المصافح فيظل يومه يجد ريحَها، ويضع يده على رأس الصبى فيُعرفُ من بين الصبيان بريحها، وروى البخارى فى «تاريخه الكبير» عن جابر: لم يكن النبى ﷺ يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه.(٤)

وأما وفـور عقله ﷺ، وذكاء لُبِّـه، وقوةُ حواسـه، وفصـاحةُ لسانه، واعـتدالُ حركاته، وحسـن شمائله، فلا مِرية أنه كان أعـقلَ الناس وأذكاهم، ومَن تأمل تدبيره أمْرَ بواطن الخلق وظواهرهم، وسـياستـه للعامة والخاصـة مع عجيب شـمائله وبديع سيـره، فضـلاً عما أفـاده من العلم وقرَّره مـن الشرع دون تعلُّم سـابق، ولا ممارسةٍ تقدَّمت، ولا مطالعةٍ للكتب منه، لم يمترِ فى رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة.

وكان ﷺ إذا قام فى الصلاة يَرى مَن خلفَه كما يَرَى مَن أمامَه، وبذلك فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (الشعراء: ٢١٩)، وقالـت عائشـة: كان ﷺ يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء، وكان يَعُدُّ فى الثريا أحد عشر نجمًا.(٥)

وجاءتِ الأخبار أنه صَرع رُكانة أشدَّ أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام.

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الترمذى (٣٦٣٨)، والبيهقى فى «الدلائل» (١/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٢) **ضعيف**: رواه ابن عساكر (١/ ١٢٤)، و«كشف الخفا» (١/ ٣٤١).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٤) انظر: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ٦٢).

(٥) **موضوع**: رواه الخطيب البغدادى فى «التاريخ» (٤/ ٢٧٢)، والبيهقى فى «الدلائل» (٦/ ٧٤، ٧٥)، وقال الألبانى فى «الضعيفة» (٣٤١): موضوع.

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه، كأنما الأرض تُطوى له، إنا لنجهد أنفسنا، وهو غير مكترث.(١)

وفي صفته ﷺ أن ضحكه كان تبسمًا، إذا التفتَ التفتَ معًا، وإذا مشى مشى تقلُّعًا كأنما ينحط من صبَبٍ.(٢)

وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذى لا يُجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع؛ ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخُص ببدائع الحكم، وعُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كلَّ أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها فى منزع بلاغتها، حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، من تأمل حديثه وسَبَره عَلِم ذلك وتحقَّقه، وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقيال حضرموت وملوك اليمن وعظماء نجد، بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ، وما انتهجته من طرق البلاغة، ليُبين للناس ما نُزِّلَ إليهم، وليحدّث الناس بما يعلمون.

وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كَلِمه، وحكمه المأثورة فقد ألَّفَ النَّاسُ فيها الدواوين، وجُمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يُوازَى فصاحة، ولا يُبارى بلاغة؛ كقوله: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»(٣) وقوله: «**الناس كأسنان المشط**»(٤) و«**المرء مع من أحب**»(٥) و«**لا خير فى صحبة مَن لا يرى لك ما ترى له**»(٦) و«**الناس معادن**»(٧) و«**ما هلك امرؤ عرف قدره**»(٨) و«**المستشار مؤتمن**»(٩) و«**رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت**

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠)، والترمذى فى «الشمائل» (١١٨)، وصححه الألبانى.
(٢) **ضعيف**: رواه الترمذى (٣٦٣٨)، والبيهقى فى «الدلائل» (١/ ٢٦٩، ٢٧٠)، وضعفه الألبانى.
(٣) **صحيح**: سبق تخريجه.
(٤) **موضوع**: رواه ابن عدى فى «الكامل» (٣/ ٢٤٨)، وانظر «كنز العمال» (٢٤٨٢٢).
(٥) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٢٧)، والترمذى (٢٣٨٦)، وأحمد (٣/ ١٥٩، ٢٢١).
(٦) **ضعيف**: رواه ابن عساكر (٢/ ١٨٧)، وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٥٩٦).
(٧) **صحيح**: رواه البخارى (٣٥٨٨)، ومسلم (٢٥٢٦).
(٨) **ضعيف**: رواه ابن عساكر (٢/ ١٨٧)، وانظر «الشفا» (١/ ٧٢).
(٩) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذى (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٦٤١).

فسلم»[١]، وقوله: «أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»[٢] و«إن أحبكم إليَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون»[٣] وقوله: «لعله كان يتكلم بما لا يَعنيه، أو يبخلُ بما لا يُغنيه»[٤] وقوله: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا»[٥] ونهيه عن: «قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمّهات، ووأد البنات»[٦] وقوله: «اتق الله حيثما كنتَ، واتبع السيئة الحسنة تَمْحُهَا، وخالق الناس بخلق حسن»[٧] و«خير الأمور أوسطها»[٨] وقوله: «أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما»[٩] وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[١٠] وقوله فى بعض دعائه: «اللَّهم إنى أسألك رحمة تهدى بها قلبى، وتجمعُ بها أمرى، وتلمُّ بها شعثى، وتصلحُ بها غائبى، وتزكّى بها عملى، وتلهمُنى بها رشدى، وتردُّ بها ألفتى، وتعصمُنى بها من كل سوء، اللَّهم إنى أسألك الفوز فى القضاء، ونُزُل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء»[١١] إلى غير ذلك مما روته الكافة عن الكافة من مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته، وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يُقاس بها غيره، وحاز فيها سَبْقًا لا يُقْدر قدره.

---

(١) **صحيح**: رواه ابن حبان (١٢٨)، وابن عساكر (٣/ ١٠٧)، وصححه الألبانى فى «السلسلة الصحيحة» (٨٥٥).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٧٧٣)، وأحمد (١/ ٢٦٣).

(٣) **صحيح بشواهده**: رواه ابن أبى شيبة (٦/ ٨٨)، وأحمد (٤/ ١٩٣، ١٩٤)، والبغوى فى «شرح السنة» (٣٣٩٥)، وابن حبان (٤٨٣)، وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١)، رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح، ورواه الترمذى (٢٠١٨)، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٧٩١).

(٤) **ضعيف**: «الإتحاف» (٩/ ٢٢٥)، و«الترغيب» (٣/ ٥٤١)، وابن عساكر (٣/ ١٠٩).

(٥) انظر: «الشفا» (١/ ٧٣).

(٦) **صحيح**: رواه مسلم (٥٩٣).

(٧) **حسن**: رواه الترمذى (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨)، والحاكم فى «المستدرك» (١٧٨)، وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٥٠٨٣).

(٨) **ضعيف**: رواه البيهقى (٣/ ٢٧٣)، و«كشف الخفا» (١/ ٤٦٥).

(٩) **صحيح**: رواه الترمذى (١٩٩٧)، وصححه الألبانى فى «غاية المرام» (٤٧٢).

(١٠) **صحيح**: رواه البخارى (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).

(١١) **ضعيف الإسناد**: رواه الترمذى (٣٤١٩)، وابن خزيمة (١١١٩)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى».

وقد قال له أصحابه: ما رأينا الذى هو أفصح منك، فقال: «**وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى، لسان عربىٌّ مبين**»[1] وقال مرة أخرى: «**أنا أفصَحُ العرب بيدَ أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد**»[2] فجمع له بذلك قوة عارضة[3] البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة، ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى الذى لا يُحيط بعلمه بشر.

وأما شرفُ نسبه، وكرمُ بلده ومنشئه، فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفى منه، فإنه نخبة بنى هاشم، ونخبة قريش وصميمها، وأشرف العرب وأعزهم نفرًا من قِبَل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده، وقد قدَّمنا لك فى أول الكتاب ما فيه الكفاية فى هذا المقام.

**أما ما تدعو إليه ضرورة الحياة:** فمنه ما الفضل فى قلته، ومنه ما الفضل فى كثرته، ومنه ما تختلف الأحوال فيه.

فالأول كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء قديمًا تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما، لأن كثرةَ الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره، وغلبة الشهوة مسببٌ لمضار الدنيا والآخرة، جالبٌ لأدواء الجسد، وخثارة النفس، وامتلاء الدماغ، وقلته دليل على القناعة ومَلْكِ النفس، وقمع الشهوة مُسببٌ للصحة، وصفاء الخاطر، وحِدَّة الذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفُسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة، مسبب للكسل وعادة العجز، وتضييع العمر فى غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته.

وكان ﷺ قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل وحضَّ عليه، قال ﷺ: «**ما ملأ ابنُ آدم وِعاءً شرًا من بطنه! حسبُ ابن آدم لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان لا مَحَالَةَ فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلثٌ لنفسه**».[4]

---

(١) ضعيف: انظر «الشفا» (١/ ٧٥).

(٢) ضعيف: «الشفا» (١/ ٧٥).

(٣) عارضة: بيان ولسن. (م).

(٤) صحيح: رواه الترمذى (٢٣٨٠)، والنسائى فى «الكبرى» (٦٧٦٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وصححه الألبانى فى «الإرواء» (١٩٨٣).

ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب، وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ جوف النبى ﷺ شبعًا قط، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقوه شرب[1]، وفى صحيح الحديث: «أما أنا فلا آكل مُتكئًا»[2] والاتكاء: هو التمكن للأكل، والتقعدد فى الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات، التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل ويستكثر منه، والنبى ﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيًا ويقول: **«إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلسُ العبد»**[3] وكذلك نومه كان قليلاً، ومع ذلك فقد قال: **«إن عينيَّ تنامان ولا ينامُ قلبى»**.[4]

وأما ما الفضل فى كثرته فكالجاه، وهو محمود عند العقلاء عادة، وبقدر جَاهه يكون عظَمُه فى القلوب، وقد قال تعالى فى صفة عيسى -عليه السلام-: ﴿**وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ (آل عمران: ٤٥).

وكان النبى ﷺ قد رُزق من الحشمة والمكانة فى القلوب والعظمة، قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه فى نفسه خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، كما ذكرنا ذلك مِرَارًا، وقد كان يُبهَتُ ويَفرَقُ لَرؤيته مَن لم يره، كما رُوى عن قيلة أنها لما رأته أرعدت من الفَرَق فقال: «يا مسكينة عليك السكينة»[5]، وفى حديث أبى مسعود أن رجلاً قام بين يديه فارتعد فقال له ﷺ: **«هوِّن عليك فإنى لست بملك»**.[6]

وأما عظيم قَدْره بالنبوة، وشريفُ منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة فى الدنيا، فأمرٌ هو مبلغ النهاية، ثم هو فى الآخرة سيدُ ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات فى التمدح به، والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجله،

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذى (٢٣٥٧)، ورواه أيضاً مسلم (٢٩٧٠)، وابن ماجه (٣٣٤٦).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٥٣٩٨، ٥٣٩٩)، وأبو داود (٣٧٦٩)، والترمذى (١٨٣)، وابن ماجه (٣٢٦٢).

(٣) **ضعيف**: رواه ابن عدى (٥/ ٣٣٤)، وابن عساكر (٢/ ٤، ٣٦٧)، و«الإتحاف» (٥/ ٢١٤).

(٤) **صحيح**: رواه البخارى (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٥) **حسن**: رواه الطبرانى فى «الكبير» (١، ٢٥)، وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٦/ ١١)، وعزاه للطبرانى وقال: رجاله ثقات.

(٦) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٣٣١٢)، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٨٧٦).

ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظَّم عند العـامة لاعتقادها تَوصُّلَه به إلى حاجته، وتمكنه فى أغراضه، وإلا فلـيس فضيلة فى نفسه، فـمتى كان بهذه الصورة وصـاحبه مُنفقًا له فى مهمـاته ومهمات مَن قصده وأمله، يصرفه فى مواضعـه مشتريًا به المعالى والثناء الحسن والمنزلة فى القلوب، كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرَفه فى وجوه البـر وأنفقه فى سـبيل الخير وقَـصَد بذلك الله تعالى والدار الآخـرة، كان فضيلـة عند الكل بكل حال، ومتى كان صـاحبه مُمْـسكًا له، غير موجـهه وجوهه، حريصًا على جـمعه، عادت كثرته كـالعدم، وكان مَنْقصة فى صـاحبه، ولم يقفْ به على جَدَد السلامـة، بل أوقعه فى هُوَّة رذيلة البخل، ومذمة النذالة، فـالتمدح بالمال ليس لذاته، بل للتوصل به إلى غيره، وتصريفه فى متصرفاته.

ونبينا ﷺ أوتى خزائن الأرض، ومفاتيح البـلاد، وأحلت له الغنائم، وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجُلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها، وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم، فما استـأثر بشىء منه، ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصـارفه، وأغنى به غيره، وقوَّى به المسلمـين، وقال: **«ما يسرنى أن لى أُحُدًا ذهبًا يبيت عندى منه دينار إلا دينارًا أرصده لدينى»**[(١)] وأتته دنانير مرة فقـسَّمها، وبقيت منها بقية فدفـعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقـسمها. وقال: **«الآن استرحت»**، ومات ودرعه مـرهونة فى نفقة عياله، واقتـصر فى نفقته وملبسـه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليـه، وزَهد فيما سواه، فكان يلـبس ما وجده، فـيلبس فى الغالب الشَّـملة والكساء الخـشن، والبُرْدَ الغليظ، ويقسم على مَن حضره أقبيـة الديباج المخوَّصة بالذهب ويرفعُ لِمَن لم يحضره، فأنت ترى رسولَ الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه وإنفاقه على مستحقيه.

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحـميدة والآداب الشريفة، وهى المسماة بحسن الخُلُق، فجمـيعها قد كـانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء فى كمـالها، والاعتدال فى غايتها، حتى أثنى الله تعـالى عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، قالت عائشة: كان خُلُقُه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه.[(٢)]

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٥)، ومسلم (٩٩١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦)، وأحمد (٦/ ١٦٣).

وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق»(١)، وقال أنس: كان ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا.(٢)

وكانت له هذه الآداب الكريمة كما كانت لإخوانه من الأنبياء جبلَّة خُلقوا عليها، ثم يتمكن الأمر لهم وتترادفُ نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتُشرق أنوارُ المعارف فى قلوبهم، حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة فى تحصيل هذه الخصال الشريفة دون نهاية، دون ممارسة.

وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة، ولكنا نذكر أصولها، ونشير إلى جميعها، ونحقق وصفه ﷺ بها إن شاء الله.

فأصل فروعها، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها، العقل الذى منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع عن هذا ثقوب الرأى، وجودة الفطنة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل، وقد بلغ ﷺ منه ومن العلم الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه، يَعلمُ ذلك مَن تتبع مجاريَ أحواله واطرادَ سيره، وطالَعَ جوامع كلمه، وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما فى التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحِكم الحكماء، وسِير الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التى اتَّخذ أهلُها كلامه فيها قدوة، وإشاراته حجة، كالطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك، دون تعليم، ولا مدارسة ولا مطالعة كُتُب مَن تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبيٌّ أُمِّيٌّ لا يعرف شيئًا من ذلك، شرح الله صدره وأبان أمره وعلَّمه، وبحسب عقله كانت معارفه ﷺ، إلى سائر ما علَّمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣).

وأمّا الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة، والصبر على ما يكرهه، فمما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)،

(١) صحيح: رواه مالك فى «الموطأ» (٨٠)، والبيهقى فى «الشعب» (٧٩٧٨)، وصححه الألبانى.
(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

وقد سأل ﷺ جبريل عن تأويلها فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تَصلَ مَن قطعَكَ، وتعطىَ مَن حرَمَكَ، وتعفو عمن ظلمك[1]، وقال له: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ (لقمان:١٧)، وقال: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (النور:٢٢)، وقال: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ (الشورى:٤٣).

وقد تضافرت الأخبار على اتصافه ﷺ بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا عُرفتْ منه زلة، وحُفظت عنه هفوة، ونبينا ﷺ لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا، قالت عائشة رضي الله عنها: «**ما خُيِّرَ ﷺ فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم لنفسه إلاّ أن تُنْتَهكَ حرمة الله فينتقم لله بها**»[2]، ولَّما فعل به المشركون ما فعلوا فى أحد، وطُلب منه أن يدعوَ عليهم، قال: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**».[3]

وحسبك فى هذا الباب ما فعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزأوا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه، ثم قاتلوه وحرَّضوا عليه غيرهم من مشركى العرب، حتى تمالأ عليه جمعُهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال: «**ما تقولون أنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا أخٌ كريمٌ، وابنُ أخ كريم، فقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وعن أنس: كنتُ مع النبى ﷺ وعليه بُرْد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابىّ بردائه جذبةً شديدة حتى أثَّرَتْ حاشيةُ البرد فى صفحة عنقه، ثم قال: يا محمد احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك، فسكتَ النبىُّ ﷺ ثم قال: «**المال مال الله، وأنا عبده**»، ثم قال: «**ويُقاد منك يا أعرابىُّ ما فعلتَ بى**»، قال: لا، قال: «**لم؟**» قال: لأنك لم تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك ﷺ، ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.[4]

قالت عائشة: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظُلمها قط، ما لم تكنْ

---

(١) رواه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٨٦٨٢)، وابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ١٠٥).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٩).
(٤) صحيح: رواه البخارى (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٢٧)، بلفظ مقارب.

حُرْمَةٌ من محارم الله تعالى، وما ضربَ بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما ضربَ خادمًا ولا امرأة.[١]

فصلى الله تعالى عليه، وأقرَّ عينه باتباع المسلمين سُنته.

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان ﷺ لا يُوازَى فى هذه الأخلاق الكريمة ولا يُبارَى وصفه بهذا كلٌّ من عرفه.

قال جابر ﵁: ما سُئل ﷺ شيئًا فقال لا[٢]، وقال ابن عباس: كان ﷺ أجودَ الناس بالخير، وأجودَ ما كان فى شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل -عليه السلام- أجودَ بالخير من الريح المرسلة[٣]، وقالت خديجة فى صفته ﷺ مخاطبةً له: إنك تَحْمِلُ الكَلَّ وتُكْسِبُ المعدومَ.[٤]

وحَسبُك شاهدًا فى هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردِّ السَّبى إليها، وما فعله يومَ تقسيم السبى من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيمَ الأعطية، وقد استوفينا ذلك فى موضعه.[٥]

وحُمل إليه ﷺ تسعون ألفًا فوضعها على حصير وأخذ يقسمها، فما قام حتى فرغ منها، وجاءه رجل فسأله، فقال: **«ما عندى شىء ولكن ابتع علىَّ، فإذا جاءنى شىء قضيناه»**، فقال له عمر: ما كلَّفَكَ الله ما لا تقدرُ عليه، فكره ذلك ﷺ فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخفْ من ذى العرش إقلالاً، فتبَسَّمَ ﷺ، وعُرِف البِشرُ فى وجهه وقال: **«بهذا أمرتُ»**.[٦]

والأخبار بجوده وكرمه ﷺ كثيرة، يكفى منها لتعليمك ما ذكرناه.

ومنها: الشجاعة والنجدة، فكان ﷺ منهما بالمكان الذى لا يُجهل، قد حضر المواقفَ الصعبة، وفرَّ الكُماة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يَبْرَحُ، ومُقْبِلٌ لا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢١)، وابن ماجه (٢٢١٨)، وأحمد (٦/ ٣٢، ٢٢٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٣) صحيح: رواه البخارى (١١٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٤) صحيح: رواه البخارى (٤٩٥٦)، ومسلم (١٦٠).

(٥) صحيح: وسبق ذكره.

(٦) ضعيف: رواه الترمذى فى «الشمائل» (٣٤٠)، وضعفه الألبانى.

يُدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع إلا أحصيتْ له فرة، وحُفظت عنه جولة سواه، وحَسْبُك ما فعله فى حُنَيْنٍ وأحُد، مما ذكرناه مستوفى.

وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجع ولا أنجدَ ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ. وقال علىٌّ: إنا كنا إذا اشتد البأسُ واحْمرَّتْ الحدَق اتَّقيْنَا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتُنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً، وقال أنس: كان ﷺ أشجعَ الناس، وأحسنَ الناس وأجود الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلةً، فانطلق ناسٌ قِبَل الصَّوْت، فتلقَّاهم ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت، استبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عُرْى والسيف فى عنقه، وهو يقول: «**لن تُراعوا**».[١]

**وأما الحياء والإغضاءُ:** فكان ﷺ أشدَّ الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاءً، قال أبو سعيد الخدرى: كان ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء فى خدْرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه[٢]، وكان ﷺ لطيفَ البشرة، رقيق الظاهر، لا يُشَافهُ أحدًا بما يكرهه حياءً وكرمَ نفس، قالت عائشة: كان ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقلْ: ما بال فلان يقول كذا وكذا، بل يقول: ما بالُ أقوام يصنعون أو يقولون كذا[٣]، ينهى عنه ولا يُسَمِّى فاعله، وقالت رضي الله عنها: لم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا صَخَّابًا فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح.[٤]

وأما حسنُ عشرته، وأدبُه، وبسطُ خلقه مع أصناف الخلق فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال علىٌّ رضي الله عنه: كان ﷺ أوسعَ الناس صدرًا، وأصدقَ الناس لهجةً، وألينهم عريكةً، وأكرمَهم عشرةً، وكان ﷺ يؤلفهم ولا ينفِّرهم، ويكرم كريم كلِّ قومٍ ويولِّيه عليهم، ويحْذَر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوىَ عن أحد منهم بشرَه ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويعطى كلَّ جلسائه نصيبَه، ولا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه،

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٦٠٦٣).

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧٨٨)، وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود».

(٤) **صحيح**: رواه البخارى (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١).

ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بَسْطه وخُلُقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده فى الحق سواء، بهذا وصفه ابن أبى هالة.

وكان دائم البشر، سهل الخلق، ليِّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب ولا فحَّاش، ولا عيَّاب، ولا مدَّاح، يتغافل عما لا يشتهى، ولا يؤيس منه، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (فصلت: ٣٤)، وكان ﷺ يجيب مَنْ دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كراعًا[١] ويكافئ عليها، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويُجلسهم فى حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى فى أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر.

قال أنس: ما التقم أحدٌ أذنَ النبى يحادثه فنحَّى رأسه حتى يكون الرجلُ الذى ينحِّى رأسَه، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسلَ يدَه حتى يرسلَها الآخرُ[٢]، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم يُرَ قط مادًا رجليه بين أصحابه حتى يضيقَ بهما على أحد، يُكرم مَن يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التى تحته، ويعزمُ عليه فى الجلوس عليها إن أبى، ويكنِّى أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمةً لهم، ولا يقطعُ على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهى أو قيام، وكان أكثرَ الناس تبسُّمًا وأطيبَهم نفسًا ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.[٣]

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد وصفه الله بها فى قوله: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧). روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: «**أأحسنتُ إليك؟**» قال الأعرابى: لا ولا أجملت، فغضبَ المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئًا، ثم قال: «**أأحسنتُ إليك؟**» فقال: نعم، فجزاكَ الله من أهل وعشيرة خيرًا، فقال ﷺ: «**إنك قلتَ ما قُلتَ وفى**

(١) الكراع: من البقرة والغنم، وهو مستدقُّ الساق. (م).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود (٤٧٩٤)، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (٢٤٨٥).

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٦٠٨٩)، ومسلم (٨٩٩).

**أنفس أصحابى من ذلك شىء، فإن أحببتَ فقلْ بين أيديهم ما قلتَ بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك»**، قال: نعم.

فلما كان الغد -أو العشية- جاء فقال ﷺ: **«إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضى، أكذلك؟»** قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فقال ﷺ: **«مثلى ومثلُ هذا مثلُ رجلٍ له ناقة شردتْ عليه، فاتَّبعها الناسُ فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها خلُّوا بينى وبين ناقتى، فإنى أرفقُ بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها، حتى جاءتْ واستناختْ، وشدَّ عليها رحلَها واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيثُ قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»**.(1)

وقال ﷺ: **«لا يُبَلِّغنى أحدٌ منكم عن أصحابى شيئًا، فإنى أحب أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر»**(2)، وكان يسمعُ بكاء الصبىِّ فيتجوز(3) فى صلاته، وعن ابن مسعود: كان ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.(4)

وأما خلُقه ﷺ فى الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم، فروى عن عبد الله بن أبى الحمساء قال: بايعتُ النبى ﷺ ببيع قبل أن يُبعثَ، وبقيتْ له بقية، فوعدته أن آتيه بها مكانه، فنسيتُ، ثم ذكرتُ بعد ثلاث، فجئت فإذا هو مكانه، فقال: **«يا فتى لقد شققت علىَّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك!»**.(5)

وكان إذا أُتى بهدية قال: **«اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبُّ خديجة»**.(6)

وكان ﷺ يصلُ ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على مَنْ هو أفضل منهم، ووفدَ عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك، فقال: **«إنهم كانوا**

---

(1) ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٩/ ١٥).

(2) **ضعيف الإسناد**: رواه الترمذى (٣٨٩٦)، وأبو داود (٤٨٦٠)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى».

(3) **صحيح**: رواه البخارى (٢٣٨)، ومسلم (١١٠٢).

(4) **صحيح**: رواه البخارى (٦٠٣٠)، ومسلم (٢٥٩٤).

(5) **ضعيف**: رواه أبو داود (٤٩٩٦)، والبيهقى (١٠/ ١٩٨)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف أبى داود».

(6) **صحيح**: رواه البخارى (٢٤٣٥)، ومسلم (٢٤٣٥).

**لأصحابنا مكرمين، وإنى أحبُّ أن أكافئهم».**

وفى حديث خديجة: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.(١)

وأما تواضعَه ﷺ على علو منصبه ورفعة رتبته، فكان أشدَّ الناس تواضعًا، وأقلهم كِبْرًا، وحسبك أنه خُيِّر بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا.

وخرج ﷺ مرة على أصحابه متوكئًا على عصا فقاموا له، فقال: **«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظِّم بعضهم بعضًا»**(٢)، وقال: **«إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»**.(٣)

وكان يركب الحمار ويُرْدِفُ خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس، وقال ﷺ: **«لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»**(٤)، وحَجَّ ﷺ على رَحْلٍ رثّ، وعليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم، فقال: **«اللهم اجعله حَجًا لا رياء فيه ولا سمعة»**.(٥)

هذا، وقد فُتحت عليه الأرض، وأَهْدى فى حَجّه هذا مائة بدنة، ولما فُتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كادَ يَمَس قادمته(٦) تواضعًا لله تعالى.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه: دخلتُ السوق مع النبى ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوازن: **«زن وارجح»**(٧)، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله ﷺ يقبّلها فجذب يده

---

(١) **صحيح**: سبق تخريجه.

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود (٥٢٣٠)، وابن ماجه (٣٨٣٦)، وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٣٤٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢١).

(٦) قادمة الرحل: هى الخشبة التى فى مقدمة كور البعير، بمنزلة قربُوس السرج. (م).

(٧) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٣٣٦)، والترمذى (١٣٠٥)، والنسائى (٧/ ٢٨٤)، وابن ماجه (٢٢٢٠)، وأحمد (٤/ ٣٥٢)، وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٢٩٢٤).

وقال: «**هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولستُ بملك، إنما أنا رجلٌ منكم**»(١)، ثم أخذ السراويلَ، فذهبتُ لأحمله فقال: «**صاحبُ الشيء أحقُّ بشيئه أن يحملَه**».(٢)

وأما عدله ﷺ، وأمانته، وعفته، وصدق لهجته، فكان آمن الناس، وأصدقَهم لهجةً منذ كان، اعترف له بذلك محادّوه وأعداؤه، وكان يُسَمَّى قبل نبوته الأمين، وقد قدمنا ذلك في سيرته ﷺ قبل النبوة، وفي الحديث عنه ﷺ: «**ما مستْ يدُه يدَ امرأة قط لا يملك رِقَّها**».

قال أبو العباس المبرد: قسَّم كسرى أيامه فقال: يوم الريح يَصْلحُ للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويومُ المطر للهو والشرب، ويومُ الشمس للحوائج، ولكن نبينا ﷺ جزَّأ نهاره ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزَّأ جُزْأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «**أبلغوا حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغي، فإنه من أبلغ حاجةَ مَن لا يستطيعُ إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر**»، وكان ﷺ لا يأخذ أحدًا بذنب أحد، ولا يُصَدِّق أحدًا على أحد.(٣)

وأما وقاره ﷺ، وصمته، وتؤدته، ومروءته، وحسن هَدْيه، فكان ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه، وكان إذا جلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثرُ جلوسه محتبيًا(٤)، وكان كثير السكوت لا يتكلَّم في غير حاجة، يُعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، وكان ضحكُ أصحابه عنده التبسم توقيرًا له واقتداءً به، مجلسُه مجلسُ حلم وحياء وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبن فيه الحُرَم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير.

وقال ابن أبي هالة: كان سكوته ﷺ على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر، وقالت عائشة ﵂: كان ﷺ يُحَدِّثُ حديثًا لو عدَّه العادُّ لأحصاه، وكان يُحبُّ الطِّيب والرائحة الحسنة، ويستعملهما كثيرًا، ويحضُّ عليهما.

---

(١، ٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٩٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦١٦٢).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣١٠).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٤٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٢٧).

ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب[١]، والأمر بالأكل مما يلى، والأمر بالسواك[٢]، وإنقاء البراجم والرواجب (مفاصل الأصابع من ظاهر الكف وباطنها).

وأما زهده ﷺ فقد قدمنا لك فيه ما فيه الكفاية، وحسبك شاهدًا على تقلُّله من الدنيا وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفتْ عليه فتوحُها؛ أنه توفى ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله، وهو يدعو ويقول: **«اللهم اجعلْ رزقَ آل محمد قوتًا»**[٣]، وقالت عائشة ﵂: ما شبعَ ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز حتى مضى لسبيله[٤]، وقالت: ما ترك ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيرًا[٥]، ولقد ماتَ وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى، وقال: **«إنى عُرض علىَّ أن تُجعلَ لى بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، فأما اليوم الذى أجوعُ فيه فأتضرَّع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك»**[٦]، وقالت عائشة: إن كنا آل محمد لنمكثُ شهرًا ما نستوقد نارًا، إن هو إلا التمر والماء.

وعن أنس: ما أكل ﷺ على خِوَانٍ ولا فى سُكرجة ولا خُبزَ له مرُقَّق، ولا رأى شاة سميطًا قط[٧]، وفى حديث عائشة: كان فراش رسول الله ﷺ فى بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه، فثنيناه ليلةً بأربع، فلما أصبح قال: **«ما فرشتم لى؟»** فذكرنا له ذلك فقال: **«ردوه بحاله فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى»**.[٨]

وقالت عائشة: لم يمتلئ جوف النبى ﷺ شبعاً، ولم يبث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقةُ أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظلُّ جائعًا يلتوى طول ليلته من الجوع

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).
(٢) **صحيح**: رواه مسلم (٢٥٦).
(٣) **صحيح**: رواه مسلم (١٠٥٥)، والترمذى (٢٣٦١).
(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢٩٧٠)، والترمذى (٢٣٥٨).
(٥) **صحيح**: رواه مسلم (١٦٣٥)، وأبو داود (٢٨٦٣)، وابن ماجه (٢٦٩٥).
(٦) **ضعيف**: رواه الترمذى (٢٣٤٧)، وضعفه الألبانى فى «المشكاة» (٥١٨٩).
(٧) **صحيح**: رواه البخارى (٥٣٨٦)، والترمذى (١٧٨٨).
(٨) **صحيح**: رواه الترمذى (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٤٣٩-٤٤٠).

فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغدَ عيشها، ولقد كنتُ أبكى رحمةً له مما أرى به، وأمسحُ بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسى لك الفداء لو تبلَّغْتَ من الدنيا ما يقوتُك؛ فيقول: «**يا عائشة ما لى وللدنيا، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضَوا على حالهم، فقدِمُوا على ربهم، فأكرمَ مآبهم، وأجزلَ ثوابهم، فأجدنى أستحى إن ترفَّهْتُ فى معيشتى أن يُقَصَّرَ لى غداً دونهم، وما من شىء هو أحب إلىَّ من اللحوق بإخوانى وأخلائى**»، قالت: فما أقام بعدُ إلا أشهراً حتى توفى ﷺ .(١)

وأما خوفه من ربَّه وطاعتهُ له، وشدةُ عبادته، فعلى قدر علمه بربه، ولذلك قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّتِ (صوتت) السَّماءُ وَحُقَّ لها أن تَئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذَّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى، لوددتُ أنى شجرة تعضد**»(٢)، وكان ﷺ يُصَلىِّ حتى تَرِمَ قدماه، فقيل له: أتكَلَّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».(٣)

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عملُ رسول الله ﷺ ديمةً، وأيُّكم يُطيق ما كان يُطيق؟(٤) وقالت: كان يصوم حتى نقولَ: لا يفطر، ويُفطِر حتى نقول: لا يصوم(٥)، وقال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاكَ، ثم توضأ، ثم قام يصلى فقمتُ معه فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذى الجبروت والملكوت

(١) رواه أبو الشيخ فى «أخلاق النبى ﷺ» (٢٦٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٨/ ١٣١)، ومسلم (٢٣٥٩)، الشطر الأول وروى باقى الحديث الترمذى (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٣).

(٣) صحيح: رواه البخارى (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٤) صحيح: رواه البخارى (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٢).

(٥) صحيح: رواه أبو دود (٢٤٣٠)، والنسائى (٤/ ١٤٠)، وأحمد (١/ ٢٣١، ٢٢٧).

والكبرياء والعظمة[١]، ثم سجَد وقال مثل ذلك، ثم قـرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك، وقال بـعضهم: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرجل.[٢]

وفى وصف ابن أبى هالة: كـان رسول الله ﷺ متـواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة.[٣]

وعن علىّ ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن سُنته فقال: «المعرفةُ رأسُ مالى، والعـقلُ أصل دينى، والحبُّ أساسى، والشـوقُ مركـبى، وذكر الله أنيـسى، والثـقة كنزى، والحزن رفـيقى، والعلمُ سلاحى، والصبـرُ ردائى، والرضا غنيمتى، والـعجزُ فخرى، والزهدُ حرفتى، واليقينُ قوتى، والصـدق شفيعى، والطاعةُ حسبى، والجهاد خُلقى، وقرّةُ عينى فى الصلاة، وثمرةُ فؤادى فى ذكره، وغَمى لأجل أمتى، وشوقى إلى ربى».[٤]

فـجزاه الله مِن نبى عن أمـته خـيراً، ورحـم الله عبـدًا تأمل فى هذه الشمـائل الكريمة والخصال الجميلـة، فتمسك بها، واتَّبعَ رسول الله ﷺ ليحوزَ شفاعته يوم الفزع الأكبر ويرضى الله عنه، فنسالك اللهم التوفـيقَ لما فيه الخير بِمنك وكرمِك يا أرحم الراحمين.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائى (٢/ ٢٢٣)، وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود».
(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٩٠٤)، والنسائى (٣/ ١٣)، وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود».
(٣) سبق تخريجه.
(٤) لم أعثر عليه.

## معجزاته ﷺ

إذا تأمل المتأمل ما قدمنا من جميل أثر هذا السيد الكريم، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله؛ لم يمترِ فى صحة نبوته وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد فى إسلامه والإيمان به، كعبد الله بن سلام، فإنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجهه عرفت أن وجهَه ليس بوجه كذاب.

وروى مُسلم أنَّ ضمادًا لما وَفَدَ عليه قال له النبى ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله**»، فقال له ضماد: أعدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فقد بلغنَ قاموس البحر، هات يدكَ أبايعْكَ.(١)

ولما بلغَ ملكَ عُمانَ أن رسولَ الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام قال: والله لقد دلَّنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أوَّلَ آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغْلبُ فلا يَبْطُر، ويُغْلَبُ فلا يَضجَرُ، ويفى بالعهد، ويُنجز الموعود، وأشهدُ أنه نبى.(٢)

وقال ابن رواحة:

**لو لم تكن فيه آياتٌ مبيَّنةٌ ... لكانَ منظرُه يُنبيك بالخبرِ**

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقًا لدعوته من المعجزات ما لا يفى به العدُّ، فهو اكثر الأنبياء آية وأظهرُهم برهانًا.

وسنذكر لك فى هذا الفصل من الآيات ما تقرُّ به عينُك، ويزدادُ به يقينُك، مما رواه الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم، وأثبته المحدِّثون فى صحاحِهم، ونبدأ منها بأظهرها شأناً، وأوضحها بيانًا، وهو القرآن الشريف وإعجازه.

اعلم أن كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

**أولها:**[1] حسنُ تأليفه، والتئام كلمه، وفصـاحتُه، ووجوه إيجازه، وبلاغتُه الخارقة عادةَ العـرب، وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن، وفـرسانَ الكلام، قد خُـصُّوا من البلاغة والحِكَم بما لم يُخَصَّ به غيرُهُم من الأمم، وأوتوا من ذَرَابة اللسان ما لم يُؤتَ إنسان، ومن فصل الخطاب ما يُقيدُ الألباب، جعل الله لهم ذلك طَبْعًا وخِلْقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على الـبديهة بالعَجَب، ويُدْلُون به إلى كل سبب، فـيخطبون بديهًا فى المقـامات وشـديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطَّعْن والضَّـرب، فيمـدحون ويقدحـون، ويتوسلون ويتـوصلون، ويرفعـون ويضعون، فـيأتون من ذلك بالسِّـحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سـمْط اللآلئ فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويُذْهبـون الإحَنَ، ويهيِّجون الدِّمَن، ويجرِّئون الجبـانَ، ويصيِّرون الناقصَ كامـلاً، ويتركـون النبيـه خامـلاً، منهم البدوىُّ ذو اللفـظ الجزل، والقول الـفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهرى، والمنزع القوى، ومنهم الحـضرىُّ ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعـة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتـصرف فى القولَ القليل الكلفة الكثيـر الرونق الرقيق الحاشية، وكـلاهما له فى البلاغة الحجة البـالغة، والقوة الدامغة، والقدحَ الفالج، والمهـيع الناهج، لا يشكون أن الكلام طوعُ مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حَوَوا فنونها، واسـتنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلَوا صرحًا لبلوغ أسـبابها، فقالوا فى الخطير والمهـين، وتفننوا فى الغث والسمين، وتقاولوا فى القُلِّ والكُثْر، وتـساجلوا فى النظم والنثر، فما راعـهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أحكمت آياته، وفُصِّلَتْ كلماتُه، وبَهَرَت بلاغتُه العـقول، وظهرتْ فصاحتُه على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت فى الحسن مطالعه ومقـاطعه، وحوتْ كلَّ البـيان مجامـعه وبدائعه، واعـتدل مع إيجازه حـسنُ نظمه، وانطبق على كثـرة فوائده مخـتار لفظه، وهم أفسح مـا كانوا فى هذا الباب مـجالاً، وأشهرُ فى الخطابة رجالاً، وأكثر فى الشـعر والسجع ارتجالاً، وأوسعُ فى الغريب واللغة مقالاً، بلُغتـهم التى بها يتحاورون، ومنازعهم التى عنهـا يتناضلون، صارخًا بهم فى كل حين ومقرعًا لهم بضعة وعشرين عامًا على رءوس الملأ أجمعين: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**

(١) انظر «الشفا» (١/ ٢٣٨).

قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس:٣٨)، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٣)، ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨)، ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود:١٣)، فلم يزل يقرِّعُهم أشد التقريع، ويـوبِّخُهم غاية التوبيخ، ويسفِّه أحلامَهم، ويَحُطُّ أعلامَهم، ويشتِّتُ نظامهم، ويذم آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والاعتزاء بالافتراء، وقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (المدثر:٢٤)، و ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر:٢)، ﴿ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ (الفرقان:٤)، و ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الفرقان:٥)، والمباهتة والرضا بالدنيئة، كقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (البقرة:٨٨)، و﴿ فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ ، و ﴿ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (فصلت:٥)، و﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت:٢٦)، والادعاء مع العجز؛ بقولهم: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ (الأنفال:٣١)، وقد قال لهم الله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ (البقرة:٢٤)، فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمُسيلمة كُشفَ عُوارُه لجميعهم، وسلبهم الله ما ألِفُوه من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخفَ على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم، بل ولَّوا عنه مدبرين، وأتوا إليه مذعنين.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩)، وقوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٤)، وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود:٤٤)، وقوله: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٠)، وأشباهها من الآي، بل أكثر القرآن حققت ما بينتُه من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عباراتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وإن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمة، وعلومًا زواخر، مُلئت الدواوين من بعض ما استُفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القَصص الطوال، وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض،

والتئام سـرده، وتناصف وجوهه؛ كقصة يوسف على طولها، ثم إذا تـرددت قصصُه اختلفت العـبارات عنها على كثرة تـرددها، وتناصف فى الحسن وجه مقـابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا مُعاداة لُمعادها.

**الوجه الثانى من إعجاز القرآن:** صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كـلام العرب، ومناهج نظمها ونثـرها الذى جاء عليه، ووقف عليـه مقاطع آيه، وانتهتْ فواصلُ كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلة شىء منه، بل حارَتْ فـيه عقـولهُم، وتدلَّهت دونه أحلامُهم، ولـم يهـتدوا إلى مثله فى جنس كلامـهم: من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعـر، والإعجاز بكل واحـد من النوعين -الإيجـاز والبلاغـة بذاتها، والأسلوب الغـريب بذاته- كل واحد منهـما نوع إعجـاز، لم تقدر العرب على الإتيـان بواحد منهـما؛ إذ كلٌّ واحد منهما خارج عن قدرتها، مباينٌ لفصاحتها وكلامها.

**الوجه الثالث من الإعجاز:** ما انطوى عليه من الإخبار بـالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوقع فوجـد كما ورد وعلى الوجه الذى أخبر؛ كـقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (الفتح:٢٧)، وقوله عن الروم: ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم:٣،٤)، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف:٩)، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور:٥٥)، وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر)، فكان جميع هذا كـما أخـبـر، فـغلبت الرومُ فـارسَ، ودخل الناس فى الدين أفـواجـاً، واتَّسعَ مُلك المسلمـين حتى كـان لهم فى وقت من أقصـى بلاد الأندلس غربًا إلى أقـاصى الهند شرقًا، ومن بلاد الأناضول شمالاً إلى أقاصى السودان جنوبًا.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، فكان كـذلك إلى الآن والحمد لله، وقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر:٤٥)، فكان كذلك فى بدر، والآية نزلت بمكة، وقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ (التوبة:١٤)، فكان كذلك مما اطلع عليه قـارئ هذه السيرة، ومـا فيه من كـشف أسرار المنافقـين واليهود ومـقالهم وكذبهم فى حلفهم؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة:٨)، وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ﴾ (آل عمران:١٥٤)، وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾** (النساء: ٤٦)، إلى غير ذلك من الآيات البينات.

**الوجه الرابع:** ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك، فيورده ﷺ على وجهه، ويأتى به على نصه، فيقر العالم بذلك بصحته وصدقه، وإن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه ﷺ أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة، لم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم، وكثيرًا ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء، وبدء الخلق، وما فى الكتب السابقة مما صدَّقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذُكر منها، ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلافَ قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًا من صحفه بعد أن قرعهم ووبخهم بقوله: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (آل عمران: ٩٣).

ومما يدل على أن أهل الكتاب عجزوا عن تكذيبه وما تحداهم فيه الله بقوله: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ٩٤)، ثم حتم عدم إجابتهم بقوله: ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ (البقرة: ٩٥)، فما سُمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه مع أنهم كانوا أحرصَ الناس على تكذيبه، ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبَوا، وقد قدمنا ذلك فى فصل وفودهم.

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر: الروعة التى تَلْحَق قلوب سامعيه، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته؛ لقوة حاله، وإنافة خطره، حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا، ولهذا قال ﷺ: «إن القرآن صَعْبٌ مُستصعب على من كرهه، وهو الحكم»، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالاً، وتكسبه هشاشة، لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (الزمر: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ (الحشر: ٢١).

**ومن وجوه إعجاز القرآن:** كونه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩)، وقال: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن**

بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت:٤٢)، وسائر معجزات الأنبياء لم يبقَ إلا خبرها، والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادى للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشىء يؤثر فى معارضته، ولا ألَّف كلمتين فى مناقضته، ولا قدر فيه على مَطْعن صحيح، ولا قدح المتكلفُ من ذهنه فى ذلك إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل مَنْ رام ذلك إلقاؤه فى العجز بيديه والنكوص على عقبيه.

ولنختم لك هذا الباب بحديثه ﷺ فى القرآن حيث قال: «إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية، ومثلاً مضروبًا، فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم؛ ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يُخلقه طول الرد، ولا تنقضى عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أُجرَ، ومن تمسك به هُدى إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهُدَى من غيره أضلَّه الله، ومن حكَمَ بغيره قَصَمَهُ الله، هو الذكرُ الحكيم، والنورُ المبين، والصراطُ المستقيم، وحبلُ الله المتين، والشفاءُ النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن اتَّبعه، لا يَعوَجّ فيقَوَّم، ولا يزيغ فيستعتب». (١)

**ومن معجزاته ﷺ**: انشقاق القمر، وقد قَدَّمنا حديثه مستوفًى. (٢)

**ومن معجزاته ﷺ**: نبع الماء من بين أصابعه، وتكثيرهُ ببركته(٣)، وقد روى هذا الجمُّ الغفير من الصحابة، منهم أنس، وجابر، وابن مسعود، قال أنس: رأيتُ رسول الله ﷺ وقد حانتْ صلاة العصر، فالتمسَ الناس ماءً للوضوء فلم يجدوه، فأُتى النبيُّ ﷺ بوَضوء فوضع فى الإناء يدَه، وأمر الناس أن يتوضئوا منه، قال: فرأيت الماءَ ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناسُ حتى توضئوا عن آخرهم، فقيل: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال ابن مسعود: بينما نحن مع النبى ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا: اطلبوا من معه فضل ماء، فأتى بماء، فصبَّه فى إناء: ثم وضعَ كفَّه فيه فجعل

---

(١) **ضعيف**: رواه الترمذى (٢٩٠٦)، وضعفه الألبانى فى «المشكاة» (٢١٣٨).

(٢) **صحيح**: وسبق تخريجه.

(٣) **صحيح**: رواه البخارى (٣٥٧٢)، ومسلم (٢٢٧٩).

الماءُ ينبعُ من بين أصابعـه، وقال جابر: عطش الناسُ يوم الحديبـية، ورسول الله ﷺ بين يديه رِكْوة يتـوضأ منها، وأقـبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا مـاء إلا ما فى ركوتك، فـوضع يده فى الرَّكْوة، فجـعل الماءُ يفور من بين أصابعـه كأمثال العـيون، قـيل: كم كنتم؟ قال: لو كنا مـائة ألف لكفـانا، كنا خمس عـشرة مـائة[١]، وروى القـصة جـمع عظيم من الصحـابة، ومـثل هذا فى هذه المواطن الحفـيلة، والجمـوع الكثيـرة، لا تتطرق التهمـة إلى المحدِّث به، لأنهم كانوا أسـرع شىء إلى تكذيبه؛ لما جُبلت عليه نـفوسُهُم من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكتُ على باطل، فـهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجَمِّ الغـفير له، ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدَّثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.

ومما يشبه هذا تفجيرُ الماء ببركته وانبـعاثه بمسِّه ودعوته؛ كما ورد عن معاذ بن جبل فى قصـة غزوة تبـوك، وأنهم وردوا العين، وهى تلمـعُ بشىء من ماء مثـل الشِّراك فغرفُـوا من العين بأيديهمَ حتى اجتـمع فى شىء، ثم غسل ﷺ فيه وجـهه ويديه، وأعاده فيهـا، فجرَتْ بماء كثير، فـاستقى الناس[٢]، وفى رواية ابن إسحاق: فانخرَقَ من الماء ما له حس كحـسِّ الصواعق، ثم قال: **«يوشك يا معاذ، إن طالتْ بك حياةٌ أن ترى ما هنا قد مُلئ جنانًا»**، وقد قدَّمنا ذلك فى غزوة تبوك.[٣]

ورُوِى عن البراء وسلمة بن الأكوع تكثيـر عين الحديبية بدعوته ﷺ، وروى أبو قتادة أن الناس شكَوا إلى رسول الله ﷺ العطش فى بعض أسفاره، فدعا بالميضأة فجعلها فى ضبنه (ما بين الكشح إلى الإبط) ثم التقـم فمها، فالله أعلم أنفَث فيها أم لا؟ فشرب الناسُ حتى روَوا ومـلئوا كل إناء معهم، فخيّل لى أنهـا كما أخذها منى، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً.[٤]

ورُويت قصصٌ مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة -رضوان الله عليهم- فى محالٍّ مختلفة، بحيث لا يشك أحدٌ فى صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٥٧٦)، ومسلم (٢٢٧٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٩)، ومالك فى «الموطأ» (١/١٤٣، ١٤٤).

(٣) صحيح: سبق تخريجه.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٩).

**ومن ذلك**: تكثيــر الطعام ببركتــه ودعائه ﷺ ، وروى أبو طلحة أنه ﷺ أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها ﷺ ففتِّتت وقال فيــها ما شاء الله أن يقول[1]، وروى جابر أنه ﷺ أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شـعير وعَنَاق، وقال جـابر: فأقسم بالله لأكلوا حـتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرمَتَنا لَتَغطُّ كما هى، وإن عجيننا ليخبز، وكان ﷺ قد بَصَقَ فى العـجين والـبُرمـة وبارَكَ، وروى أبو أيوب أنه صنع لرسـول الله ﷺ وأبى بكر طعامًا يكفيهما، فأطعم منه ﷺ مائة وثمانين رجلاً[2]، وروى مثل ذلك كثير من الصحابة، كـعبد الرحمن بن أبى بكر، وسلمة بن الأكـوع، وأبى هريرة، وعمر ابن الخطاب، وأنس بن مالك، رضوان الله عليهم أجمعين.

**ومن معجـزاته ﷺ**: قصـة حنين الجذع[3]، قال جـابر بن عبد الله: كان المســجد مسقـوفًا على جذوع نخل، فكان ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منـها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كـصوت العِشار، وفى رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجد لخواره، وفى رواية سـهل: وكَثُـر بكاءُ الناس لما رأوه به، وفى رواية المطلب: وانشق حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليـه فسكت، زاد غيره فـقال ﷺ : **«إن هذا بكى لما فقد من الذكر»**[4]، وزاد غيره: **«والذى نفسى بيده لو لم التزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيـامـة، تحـزنًا على رسول الله ﷺ»**، فأمـر به فدُفن تحت المـنبر[5]، وهذا الحديث خرَّجه أهل الصحة، ورواه من الصحابة كثـيرون، ورواه عنهم من التابعين ضِعفُهم، وبِمَنْ دون عدتهم يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب، والله المثبِّت على الصواب.

**ومن معجزاته ﷺ**: إبراء المرضى وذوى العاهات، فقد أصيبت يوم أحد عينُ قتادة ابن النعمان حتى وقـعت على وجنته، فردَّها ﷺ فكانت أحسنَ عينيـه وأحَدَّهما[6]، وبصق على أثر سهم فى وجه أبى قـتادة فى يوم ذى قَرَد فما ضَـرَب عليه ولا قاح،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٠).
(٢) رواه البيهقى فى «الدلائل» (٦/ ٩٤).
(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٥٨٣).
(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٠٠).
(٥) رواه البيهقى فى «الدلائل» (٢/ ٥٥٨).
(٦) سبق تخريجه.

وأصاب ابنَ ملاعب الأسنة استسقاء فبعث إلى النبى ﷺ فأخذ بيده حَثوةً من الأرض، فتفل عليها ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجبًا يرى أن قد هُزِئ به، فأتاه بها وهو على شفا الموت فشربها فشفاه الله، وتقدم حديث علىّ ورمده فى غزوة خيبر(١)، وغير ذلك كثير مما يعجز قلمُنا عن عَدِّه، ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

أما ما منحه الله إياه من إجابة دعواته، فرُوِى عن أنس بن مالك قال: قالت أمى أم سليم: يا رسول الله، خادمك أنس، ادعُ الله له، فقال: **«اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيته»**، قال أنس: فوالله إن مالى لكثير، وان ولدى وولد ولدى ليعادُّون اليوم نحو المائة(٢)، ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة، فكان نصيبُ كلٍّ زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانين ألفًا، وتصدَّق مرَّة بَعير فيها سبعمائة بعير وَرَدَتْ عليه تحمل من كل شىء، فتصدَّق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها.(٣)

ودعا لمعاوية بالتمكين فى الأرض فنال الخلافة، ودعا لسعد بإجابة الدعوة فما دعا لأحد إلا استُجيب له، وتقدم دعاؤه لعمَر بن الخطاب أن يعز الإسلام به(٤)، وقال لأبى قتادة: **«أفلحَ وجهك، اللهم بارك فى شعره وبشره»**، فمات وهو ابن سبعين سنة كأنه ابن خمس عشرة(٥)، ودعواته ﷺ المستجابة أكثر من أن تحصَى يَطَّلع عليها قارئ سيرتنا هذه.

أما ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن، فمما سارت به الركبان، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ مقامًا فما ترك شيئًا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّثه، حفظه مَن حفظه، ونسيه مَن نسيه، قد علمه أصحابى هؤلاء، وإنه ليكون منه الشىء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وما أدرى أنسى أصحابى أم تناسَوه، والله ما ترك ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سمَّاه لنا اسمه واسم أبيه واسم قبيلته.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **صحيح**: رواه البخارى (٦٣٤٤)، ومسلم (٢٤٨٠).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٢١٠٩)، وأصله عند البخارى (٢٠٤٩).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذى (٣٦٨١)، وصححه الألبانى فى «المشكاة» (٦٠٣٦).

(٥) رواه البيهقى فى «الدلائل» (٦/ ٢١٧).

وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليـمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وإن المدينة ستُغزى ويُفتح خيبر على يد عليّ فى غـد يومـه، وما يفـتح الله على أمـته من الدنيـا، ويؤتون من زهرتهـا، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصـر، وقدَّمنا كثيرًا من ذلك فى هذه السيرة، وقدمنا ما فى القرآنَ من ذلك، وهذا يغنينا عن الإطالة فى هذا المقام، فحسبُك ما سمعتَ.

ومما ينير بصيرتك أيها القارئ مـا مَنَّ الله به على رسولنا من عصمته له من الناس وكفايتـه من آذاه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨)، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر:٣٦)، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٥)، ولما نزل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ صرف حُجَّابه وقال: «**انصرفوا فقد عصمنى الله**».

وقد قدَّمنا حديثَ دُعثور وإرادته قتل النبى ﷺ ، وعصمة الله لنبينا، وذكرنا كثيرًا مما حَصَل من أبى جهل لما أراد بالرسول ﷺ المكايدة، فكفاه الله شره، وما مَنَّ الله به عليه ليلة الهجرة، وحديث سراقة فى الطريق.

**وعلى الجـملة:** فَـيكفينا من هذا البـاب أنه ﷺ مكث بين أعـداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سـنة، وبين مشابهيـهم من المنافقين واليهـود عشر سنين، فمـا تمكَّن أحد من إيصال أذًى إليه ﷺ ، بل كفاه مولاه شرَّ أعدائه حتى أظهر الدينَ وتمَّمه.(١)

والحمد لله حمدًا يوافى نعمـه، ويكافئ مزيده، ونسأله أن يُوفِّق قارئى هذه السيرة إلى اتِّباع رسول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره.

**تـم بعـون الله تعـالـى**

---

(١) وانظر كتاب «صحيح معجزات النبى ﷺ» للمحقق طبعة المكتب الثقافى بالقاهرة.


فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|---|---|---|---|
| وفود نجران | 55 | أول جمعة | 73 |
| وفاة خديجة رضي الله عنها | 56 | النزول على أبى أيوب | 74 |
| زواج سودة رضي الله عنها | 56 | نزول المهاجرين | 74 |
| زواج عائشة رضي الله عنها | 57 | أخوة الإسلام | 75 |
| هجرة الطائف | 58 | هجرة أهل البيت | 75 |
| الاحتماء بالمطعم بن عدي | 59 | حمى المدينة | 76 |
| وفد دوس | 60 | منع المستضعفين من الهجرة | 76 |
| الإسراء والمعراج | 60 | السنة الأولى - بناء المسجد | 77 |
| العرض على القبائل | 62 | بدء الأذان | 77 |
| بدء إسلام الأنصار | 64 | يهود المدينة | 79 |
| العقبة الأولى | 64 | المنافقون | 80 |
| العقبة الثانية | 65 | معاهدة اليهود | 81 |
| هجرة المسلمين إلى المدينة | 67 | مشروعية القتال | 81 |
| دار الندوة | 67 | بدء القتال | 83 |
| هجرة المصطفى ﷺ | 69 | سـريـة | 83 |
| النزول بقباء | 71 | وفيات | 84 |
| هجرة الأنبياء | 71 | السنة الثانية - غزوة ودان | 85 |
| أعمال مكة | 72 | غزوة بواط | 85 |
| مسجد قباء | 73 | غزوة العشيرة | 85 |
| الوصول إلى المدينة | 73 | غزوة بدر الأولي | 86 |

